الفصل الثاني

منهجه في الإيمان بالرسل وما يتعلق به

وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الإيمان بالرسل وما يتعلق به من مسائل .

المبحث الثاني : الإيمان بنبوة محمد ﷺ وما يتعلق بها .

المبحث الثالث : منهجه في الصحابة - رضوان الله عليهم - .

المبحث الرابع : منهجه في الإمامة والخلافة .

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

الإيمان بالرسل وما يتعلق به من مسائل

وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف النبوة وحقيقتها .

المطلب الثاني: حاجة البشرية إلى الرسل وحكم الإيمان بهم .

المطلب الثالث : صفات الرسل وخصائصهم .

المطلب الرابع : وظائف الرسل .

المطلب الخامس : دلائل النبوة وآيات الأنبياء .

المطلب السادس : التفاضل بين الأنبياء والرسل .

المطلب السابع : وقفة مع كلام سيد قطب عن موسى عليه السلام

obeikandl.com

المطلب الأول

تعريف النبوة وحقيقتها

الفرع الأول: تعريف النبي و الرسول والفرق بينهما :

تعددت أراء العلماء في تعريف النبي والرسول والفرق بينهما على أقوال:

الأول : أنهما مترادفان ، وهذا غير صحيح لما تقرر من أنهما متغايران لفظًا ومعنى [١] .

الثاني : أن النبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالتبليغ والرسول من أوحي إليه وأمر بالتبليغ " [٢].

الثالث : " أن النبي هو الذي ينبئه الله ، وهو ينبئ عما أنبأ الله به ، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله فهو رسول ، وأما إن كان إنما يعمل بشريعة من قبله ، ولم يرسل إلى أحد فهو نبي لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ [٣]، فذكر إرسالًا يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول ، فهو الرسول المطلق الذي أمره الله بتبليغ رسالته إلى من خالف الله كنوح – عليه السلام – " [٤].

أما سيد - رحمه الله -فيعرف النبي والرسول بقوله :".. والرسول هو صاحب الدعوة من الأنبياء المأمور بإبلاغها للناس ، والنبي لا يكلف إبلاغ الناس دعوة إنما هو في ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله ، وكان في بني إسرائيل أنبياء كثيرون وظيفتهم القيام على دعوة موسى والحكم بالتوراة التي جاء بها من عند الله ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا

(١) فتح الباري لابن حجر: ١١/ ١١٢ .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص١٥٥ .
(٣) سورة الحج : الآية ٥٢ .
(٤) النبوات لابن تيمية : ص ٢٥٥ .

ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ (١) " (٢).

فالرسول أخص من النبي يقول- سيد- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾(٣): " إن هذا القول إنما يقال للنبي ﷺ الرسول الذي أوحي إليه من ربه ، وكلف مخاطبه الناس بهذه العقيدة " (٤).

ويلاحظ أن تعريف سيد قطب يقترب من التعريفين الثاني والثالث نوعًا ما، ويتفق معهما في أن الرسول أخص من النبي ﷺ .

الفرع الثاني : طبيعة النبوة وحقيقتها :

النبوة عند جمهور المسلمين وأهل السُّنَّة والجماعة فضلٌ إلهي ، وهبةٌ ربانية ، يهبها الله لمن يشاء من عباده ، ويختص بها ويصطفي لها من يريد من خلقه ، فهي محض فضل إلهي ، واصطفاء واختيار ، لا تدرك بالنصب والجد ، ولا تنال بالذكاء والعبقرية كما هو مفهومها عند المنحرفين من الفلاسفة وغيرهم .

طبيعة النبوة وحقيقتها عند سيد قطب :

يمكننا بيان موقف سيد قطب - رحمه الله - ومنهجه فيما يتعلق بحقيقة النبوة فيما يأتي :

أولا: النبوة اصطفاء واختيار: يتفق سيد – رحمه الله– مع أهل السُّنَّة والجماعة حول طبيعة النبوة وحقيقتها ، من أنها هبة لدينه ، واختيار واصطفاء من الله – سبحانه– حيث يقول: " والرسل جماعة خاصة ، ذات طبيعة خاصة ... هذه الطبيعة الخاصة هي التي تتلقى الوحي ، فتطيق تلقيه ، لأنها مهيأة لاستقبالها " (٥).

" فالله ينتدب للنبوة المختار من عباد الله ، ثم يسلمها إلى المختار بعده ، وليس

(١) سورة المائدة : الآية ٤٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٣ .
(٣) سورة الرعد : الآية ٤٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧١ .
(٥) في ظلال القرآن ١/ ٢٧٨ بتصرف .

للنبي في نفسه من شيء ،وما له في هذه المهمة من أرب شخصي ، ولا مجد ذاتي، إنما هو عبد مصطفى ، ومبلغ مختار، والله – سبحانه – هو الذي ينقل خطى هذه الدعوة بين أجيال البشر، ويقود هذا الموكب ويصرفه كيف يشاء "[١]. " فموكب الأنبياء يظم الصفوة المختارة من البشر "[٢]

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[٣] يقول: " يرد الله على قولتهم المنكرة الغبية أولًا: بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكوني الخطير...

إن الرسالة أمر هائل خطير ، أمر كوني تتصل فيه الإرادة الأزلية الأبدية بحركة عبد من العبيد ، ويتصل فيه الملأ الأعلى بعالم الإنسان المحدود ، وتتصل فيه السماء بالأرض ، والدنيا بالآخرة ، ويتمثل فيه الحق الكلي ، في قلب بشر، وفي واقع ناس، وفي حركة تأريخ ، وتتجرد فيها كينونة بشرية من حظ ذاتها ، لتخلص لله كاملة ، لا خلوص النية والعمل وحده ، ولكن كذلك خلوص المحل الذي يملؤه هذا الأمر الخطير .

فذات الرسول – ﷺ – تصبح موصولة بهذا الحق ومصدره صلة مباشرة كاملة، وهي لا تتصل هذه الصلة إلا أن تكون من ناحية عنصرها الذاتي صالحة للتلقي المباشر الكامل بلا عوائق ولا سدود والله وحده – سبحانه – هو الذي يعلم أين يضع رسالته ، ويختار لها الذات التي تنتدب من بين ألوف الملايين ، ويقال لصاحبها : أنت منتدب لهذا الأمر الهائل الخطير، والذين يتطلعون إلى مقام الرسالة ، أو يطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتي الرسول ، هم أولًا من طبيعة لا تصلح أساسًا لهذا الأمر ، فهم يتخذون من ذواتهم محورًا للوجود الكوني، والرسل من طبيعة أخرى ، طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلمًا ، ويهب لها نفسه ، وينسى فيها ذاته ، ويؤتاها من غير تطلع ولا ارتقاب : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ

(١) المصدر السابق ١/ ٤٢٠ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨٠٥ ، وينظر : ٢/ ١١٤٤ .
(٣) سورة الأنعام: الآية ١٢٤ .

إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[١]، ثم هم بعد ذلك جُهَّال لا يدركون خطورة هذا الأمر الهائل ولا يعلمون أن الله وحده هو الذي يقدر بعلمه على اختيار الرجل الصالح، فـ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾، وقد جعلها سبحانه حيث علم ، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم ، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم ، حتى انتهت إلى محمد - ﷺ - خير خلق الله وخاتم النبيين" [٢].

وقد بين سيد - رحمه الله- في نصوص كثيرة أن النبوة هبةُ من الله ، واصطفاء لبعض عباده واختيار لهم من بين البشر كما قال - سبحانه وتعالى -: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾[٣]. وقال: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾[٤] وغيرها" [٥].

ثانيًا : أن موكب الأنبياء واحد في تاريخ البشرية كلها : بيَّن سيد - رحمه الله- أن الرابط بين موكب الأنبياء هو رابط الاصطفاء والاختيار الإلهي ، وأن الصلة بينهم هي عهد الله عليهم أن يسلم السابق منهم للاحق وينصره ، وأنهم يواجهون مواقف متشابهة ويمضون في طريق ثابت " [٦].

" فموكب الأنبياء موكب واحد يتراءى على طريق التاريخ البشري الموصول، ورسالة واحدة بهدي واحد ، للإنذار والتبشير، موكب واحد يضم هذه الصفوة المختارة من بين البشر: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وعيسى، وأيوب، ويونس، وهارون، وسليمان ، وداود ، وموسى.. وغيرهم ممن قصهم الله على نبيه - ﷺ - في القرآن، وممن لم يقصصهم عليه ،موكب من شتى الأقوام والأجناس، وشتى البقاع والأرضيين، في شتى الآونة والأزمان، لا يفرقهم نسب ولا جنس، ولا أرض ولا وطن ، ولا زمن ولا بيئة ، كلهم آت

---

(١) سورة القصص : الآية ٨٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٢ - ١٢٠٣ .
(٣) سورة الحج : الآية ٧٥
(٤) سورة النمل : الآية ٥٩ ..
(٥) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ١/ ٣٩١ ، ٤/ ١٩٠٩ ، ٢٢١١ ، ٢٤٤٥ ، ٥/ ٢٦٥٤ ، ٢٩٦١ .
(٦) في ظلال القرآن ١/ ١٢ ، ٤١٠ ، ٤٢٠ بتصرف .

من ذلك المصدر الكريم ، وكلهم يحمل ذلك النور الهادي ، وكلهم يؤدي الإنذار والتبشير، وكلهم يحاول أن يأخذ بزمام القافلة البشرية إلى ذلك النور، سواء منهم من جاء لعشيرة ، ومن جاء لقوم ، ومن جاء لمدينة ومن جاء لقطر ، ثم من جاء للناس أجمعين ، محمد رسول الله - ﷺ - خاتم النبيين "[١].

الفرع الثالث : منهج القرآن الكريم في تصحيح التصورات الجاهلية عن الرسل والرسالات :

أشار سيد - رحمه الله- في ظلال كثير من الآيات إلى منهج القرآن الكريم في بيان حقيقة الرسل والرسالات ، وتصحيح التصورات الجاهلية والبشرية عمومًا عن الرسل والرد على التصورات الضالة حول طبيعة النبي ووظيفته سواءً عند المشركين أو عند أهل الكتاب على حد سواء، ومن ذلك :

١- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[٢] ، يقول سيد: " لقد كان هذا الدين يعد البشرية للرشد العقلي.. وكان هذا كله يقتضي الانتقال بالبشرية من عهد الخوارق الحسية، التي تلوي الأعناق.. إلى توجيه الإدراك البشري لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية في الوجود كله، وهي في ذاتها خوارق معجزة ودائمة.. وقد اقتضى ذلك تربية طويلة على هذا الأمر.. بعيدة عن منهج التصورات الذهنية التجريدية، أو التصورات الحسية المادية التي سادت الفلسفات الإغريقية و الهندية والمصرية والبوذية والمجوسية والحسية الساذجة التي كانت سائدة في العقائد الجاهلية العربية ، وتتمثل جانب من هذه التربية في بيان وظيفة الرسول، وحقيقة دوره في الرسالة، فالرسول بشر، يرسله الله ليبشر وينذر، وهنا تنتهي وظيفته..، وبهذا ينفي القرآن الكريم كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله، مما كان

(١)في ظلال القرآن٢/ ٨٠٥ ، ١١٣٧ ، ١١٤٣، ١١٤٤ ، ١١٤٧ ،٣/ ١٥٥٥ ،٤/ ٢١٠٠، ٢٣٩٥- ٢٣٩٦.
(٢) سورة الأنعام : الآية ٤٨ - ٥٠ .

سائدًا في الجاهليات.. بعدما عبثت وابتعدت بها عن حقيقة الرسالة وحقيقة النبوة، وحقيقة الوحي، وحقيقة الرسول، ودخلت بها في خرافات وأساطير وأوهام وأضاليل، حتى اختلطت النبوة بالسحر والكهانة، واختلط الوحي بالجن والجنون أيضًا! وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب، وأن يأتي بالخوارق، وأن يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر!.

- لقد جاءت العقيدة الإسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، ولترد إلى التصور الإيماني وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته، ولتخلص صورة النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل التي شاعت في الجاهليات كلها، وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم، وكلها تشترك في تشويه صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه!...

وكانت مطالب المشركين للخوارق من النبي - ﷺ - تصوغها تلك الأوهام والأساطير التي أحاطت بصورة النبوة والنبي في الجاهليات حولها...

حيث شاعت في الجاهليات المتنوعة صور من " النبوءات " الزائفة، يدعيها " متنبئون " ويصدقها مخدوعون.. ومن بينها نبوءات السحر والكهانة والتنجيم والجنون! حيث يدعي المتنبئون قدرتهم على العلم بالغيب، والاتصال بالجن والأرواح، وتسخير نواميس الطبيعة بالرقى والتعاويذ، أو بغيرها من الوسائل في مراسيم مختلفة...

حيث حفلت الجاهليات كلها بتصورات منحرفة عن طبعة النبوة والنبي، فجاء القرآن الكريم ليصحح هذه الانحرافات ويقرر حقيقة النبوة وطبيعة النبي بعيدًا عن الأساطير والخرافات" [1].

- كما صحح للمشركين تصورهم عن النبي - ﷺ - واعتقادهم أنه لا يكون بشرًا، بل لابد أن يكون ملكًا، حيث ذكر اعتراض المشركين في كل الأمم على بشرية الرسل، وبين أن ذلك مرده إلى الجهل بوظيفة الرسول - ﷺ -، وحقيقة

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٣ - ١٠٩٧ بتصرف.

الرسالة "[١].

- كما رد القرآن الكريم على الذين ينكرون إرسال الرسل في مواضع كثيرة، وندد بمن يزعمون أن الله لم يرسل رسولاً ، ولم ينزل على بشر كتابًا ، بأنهم لم يقدروا الله حق قدره ، فما قدر الله حق قدره من يقول : إنه - سبحانه - تارك الناس لأنفسهم وعقولهم وما يتعاورها من الأهواء والشهوات والضعف والقصور، فما يليق هذا بألوهية الله وربوبيته ، وعلمه وحكمته وعدله ورحمته ، إنما اقتضت رحمة الله وعلمه ورحمته وعدله أن يرسل إلى عباده رسلًا ، وأن ينزل على بعض الرسل كتبًا ، ليحاولوا جميعًا هداية البشرية إلى بارئها ، واستنقاذ فطرتها "[٢] .

- كما رد على مقولات المشركين الذي جعلوا للنبوة مواصفات ، واعترضوا على نبوة النبي- ﷺ - بقولهم:﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[٣]، وناقش مقولتهم هذه ، وما تنطوي عليه من خطأ في تقدير القيم الأصيلة التي أقام الله عليها الحياة... والقيم الزائفة التي تخايل لهم وتصدهم عن الحق... بقوله - سبحانه-: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[٤].. فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل ... فلا علاقة بين النبوة و بين عرض الحياة الدنيا ، ولا صلة لها بقيم هذه الحياة الدنيا الزائفة من المال و الزعامة ونحوها "[٥].

ومن ذلك ما روى أن الوليد بن المغيرة قال للنبي- ﷺ -: لو كانت النبوة حقًا لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سنًا ، وأكثر من مالًا "[٦] وهذا كله من انحراف تصورهم لحقيقة النبوة والنبي .

- كما صحح القرآن الكريم للمشركين تصورهم للنبوة وحقيقتها ، فقد صحح

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٥٩ ، ٥/ ٢٩٦١ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٣٧ وينظر ٣/ ١٢٠٢ .
(٣) سورة الزخرف : الآية ٣١ .
(٤) سورة الزخرف : الآية ٣٢
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٨٤ ، ٣١٨٦ ، ٣١٨٧ بتصرف ، وينظر ٤/ ١٨٧٢ .
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٢ .

لأهل الكتاب أيضًا تصورهم المنحرف للنبوة والأنبياء ، حيث انحرفت تصورات اليهود لأنبيائهم بعد تحريف لكتب ربهم ، أما النصارى فقد صحح القرآن الكريم لهم تصوراتهم عن عيسى - عليه السلام - وقص عليهم الخبر اليقين في أنه عبد الله ورسوله ، وروح منه وكلمته ألقاها جبريل -عليه السلام- على مريم العذراء ، فليس إلهًا، ولا ابن إله ، ولا ثالث ثلاثة ، ومما تعتقده النصارى فيه .

- أما اليهود فقد حدثهم القرآن الكريم حديث الصدق عن تاريخهم وأنبيائهم، مجردًا من الأساطير الكثيرة التي اختلفت فيها رواياتهم ، مطهرًا من الأقذار التي ألصقتها هذه الروايات بالأنبياء ، والتي لم يكد نبي من أنبياء بني إسرائيل يخرج منها نظيفًا .

- إبراهيم - عليه السلام - بزعمهم قدم امرأته لأبي مالك ملك الفلسطينيين ، وإلى فرعون ملك مصر باسم أنها أخته لعله ينال بسببها نعمة في أعينهما ! .

- ويعقوب - عليه السلام - الذي هو إسرائيل أخذ بركة جده إبراهيم من والده إسحاق بطريق السرقة والحيلة والكذب ، وكانت بزعمهم هذه البركة لأخيه الأكبر عيصو!.

- ولوط - عليه السلام - بزعمهم أسكرته بنتاه كل منهما ليلة ليضطجع معها لتنجب منه كي لا يذهب مال أبيها إذ لم يكن له وارث ذكر، وكان ما أرادتا ! .

- وداود - عليه السلام - رأى من سطوح قصره امرأة جميلة عرف أنها زوجة أحد جنده ، فأرسل هذا الجندي إلى المهالك ليفوز بزعمهم بامرأته !.

- وسليمان - عليه السلام - مال إلى عبادة " بغل " - بزعمهم - مجاراة لإحدى نسائه التي كان يعشقها ولا يملك معارضتها !.

وقد جاء القرآن فطهر صفحات هؤلاء الرسل الكرام مما لوثتهم به الأساطير الإسرائيلية التي أضافوها إلى التوراة المنزلة ، كما صحح تلك الأساطير عن عيسى ابن مريم -عليه السلام - "[1].

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٦٦٤ - ٢٦٦٥ بتصرف يسير .

المطلب الثاني

حاجة البشرية إلى الرسل وحكم الإيمان بهم

لا شك أن الحاجة إلى النبوة والوحي ضرورة للبشر لا غنى عنها بحال من الأحوال. يقول ابن القيم – رحمه الله– : " ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به ، وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم .. فأي ضرورة وحاجة فرضت ، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير " (١).

وقد بين سيد – رحمه الله– حاجة البشر إلى الرسالة ، ورد على الذين يقولون بأن الإنسان يمكن أن يستغني بعقله عن الوحي ، كما بين حكم الإيمان بالرسل في مواطن كثيرة ، نجملها في الفرعين الآتيين :

الفرع الأول :الحكمة من إرسال الرسل :

يقول سيد– رحمه الله– : "ولو علم الله أن العقل البشري يكفي الإنسان لبلوغ الهدى والمصلحة في دنياه وآخرته لوكله إليه ، وجعله حجته على عباده ، ولكن لما علم أن العقل الذي آتاه للإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى – بغير توجيه من الرسالة وعون وضبط – وقاصرة عن رسم منهج للحياة الإنسانية يحقق المصلحة الصحيحة لهذه الحياة ، وينجي صاحبه من سوء المآل في الدنيا والآخرة ... لما علم الله – سبحانه – هذا كان من رحمته وحكمته أن يبعث بالرسل ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " (٢).

" وهذا يعني أن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء ، منوطة بالرسل

---

(١) زاد المعاد لابن القيم مؤسسة الرسالة بيروت ط٣٠ عام ١٤١٧هـ ١/ ٦٨ وما بعدها .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٦ بتصرف .

وبأتباعهم من بعدهم فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم، ويترتب ثوابهم أو عقابهم، في الدنيا والآخرة "[١].

ويقول أيضًا : " أما حكمة الله في إرسال الرسل فهي واضحة، والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر وعقله هو أداته للتمييز، ولكن هذا العقل في حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائمًا كلما غم عليه الأمر، وأحاطت به الشبهات، وجذبته التيارات والشهوات، وأثرت فيه المؤثرات العارضة التي تصيب البدن والأعصاب والمزاج، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحيانًا من النقيض إلى النقيض، هو في حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه، وينزل على إرشاده، ويرجع إلى الصواب على هداه، وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعة الله "[٢].

" إن العقل حين يستقل بنفسه بعيدًا عن الوحي، يتعرض للضلال والانحراف، وسوء الرؤية ونقصها، وسوء التقدير و التدبير، بسبب طبيعة تركيبه ذاتها في رؤية الوجود أجزاء لا كلًا واحدًا، فيتعذر عليه أن يقيم أحكامًا ونظامًا ملحوظا فيه الشمول والتوازن، ومن ثم يضل ويضطرب ...

ويضل أيضًا بسبب ما ركب في الكيان البشري من شهوات وأهواء ونزعات، إذا لم تضبط بميزان الوحي فإنها ستدمر الحياة "[٣].

" فالحاجة إلى الرسالة والوحي أمر ضروري لاستنقاذ الفطرة من الركام والانحراف، لتكشف للبشر عن القوانين الكونية الثابتة وما وراءها، مما حجب عن الإنسان رؤيته ومعرفته، ولتكون مصدرًا للمعرفة اليقينية لما وراء المادة "[٤].

" ومن العجب أن يأتي على هذا الإنسان زمان يزعم لنفسه أنه استغنى عن ربه ورعايته ورحمته وهدايته ودينه ورسله بالعقل، فمثال ذلك كالطفل الذي يحس ببعض القوة في ساقيه فيروح يبعد عنه اليد التي تسنده، ليتكافأ ويتعثر !...

---

(١) المصدر السابق ٨٠٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٦٠-١٧٦١٦ ، وينظر : ١/ ٢٨١،٢/ ١١٤٥-١١٤٦، ٦/ ٣٩١٨.
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٩٧- ١٠٩٨ بتصرف .
(٤) المصدر السابق / ٢٧٨، ٣/ ١٣٩٥- ١٣٩٦، ٥/ ١٧٦٠ .

فالعقول مهما كانت كبيرة لا تبلغ بدون الرسالة ما بلغته بالرسالة .. ولم يسجل التاريخ أن عقلًا واحدًا من العقول الكبيرة - أفلاطون وأرسطو كما يزعمون - اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول العادية بالرسالة .. فعندما نقارن بين تصور أفلاطون لإلهه - كما وصفه - وبين تصور المسلم العادي لإلهه مهتديا بهدي الرسالة، نرى مسافة هائلة تفصل بينهما، وكذلك في مجال الأخلاق والمبادئ والنظم والتشريعات، لا يمكن أن نقارن بين ما جاء به الرسل وبين ما وصلت إليه العقول البشرية "[١].

الفرع الثاني : حكم الإيمان بالرسل وموقف الناس منهم :

تباينت مواقف الناس من رسل الله تعالى، بين مؤمن ومنكر .

- فقد كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا قليلًا منهم، وكانت شبهتهم استبعاد أن يبعث الله بشرًا رسولًا - كما سبق - وقريبًا من موقف العرب يقف اليهود الذين أنكروا أن يختص الله بهذه الرحمة من يشاء من عباده، وأوجبوا أن يحصر النبوة في شعب إسرائيل وحده، على أنهم كفروا بأنبيائهم وقتلوا بعضهم، ونسبوا إليهم ما لا يليق، ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم .

- ومن بين هذه المواقف جاء موقف الإسلام، حيث جعل من أركان الإيمان الحق الذي لا يتم إلا به، الإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله جميعا لهداية الأمم، وعدم التفريق بينهم، ومحبتهم جميعا، واعتبار أن من كذب واحدًا منهم فهو مكذب للجميع، فالكفر ببعضهم كالكفر بهم كلهم[٢] .

- وقد بين سيد - رحمه الله- حكم الإيمان بالرسل ومكانته في هذا الدين في أكثر من موضع يقول -رحمه الله-: " الإيمان بكتب الله ورسله، بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الإيمان بالله في الصورة التي رسمها الإسلام، فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله ، وصدق

(١) المصدر السابق ٢/ ٨١١-٨١٢ بتصرف .

(٢) ينظر:الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي ز بيروت، ط ٩ عام ١٣٩٩، ص١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٣.

كل الرسل الذين يبعثهم الله ، ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم، وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم، فكلهم جاء من عند الله بالإسلام في صورة من صوره المناسبة لحال القوم الذين أرسل إليهم، وانتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد - ﷺ - فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد "[١] .

" والقران يدعو إلى الإيمان بعناصر الإيمان الشامل ، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولكل عنصر من هذه العناصر قيمته في تكوين العقيدة الإيمانية، والتصور الإسلامي "[٢]، " ذلك التصور الذي يجعل دين الله واحدًا، ويجعل رسل الله موكبًا يحمل هذا الدين الواحد، ويجعل التفرقة بين الرسل، والتفرقة بين ما جاءوا به كفرًا صراحًا "[٣] .

"وذلك أن التوحيد المطلق لله -سبحانه- يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس، وكل كفر بوحدة الرسل، أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية .. لذلك عبر عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله - بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل -وعمن يريد التفرقة بين الرسل-بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعضهم -عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾، وعد تفرقتهم بين الله ورسله وتفرقتهم بين بعض رسله وبعض ، كفرًا بالله وبرسله.

إن الإيمان وحدة لا تتجزأ، الإيمان بالله إيمان بوحدانيته - سبحانه - ووحدانيته تقتضي وحدة الدين الذي ارتضاه للناس لتقوم حياتهم كلها - كوحدة - على أساسه، ويقتضي وحدة الرسل الذين جاءوا بهذا الدين من عنده ووحدة الموقف تجاههم جميعًا، ولا سبيل إلى تفكيك هذه الوحدة، إلا بالكفر المطلق، وإن حسب أهله أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض! لكنهم الكافرون حقًا ..

أما " المسلمون " فهم الذين يشتمل تصورهم الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٢.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٧٤.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٧٩٢.

جميعًا، بلا تفرقة . فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام .. وفي ظل هذا البيان يبدو الذين يفرقون بين الله ورسله ، ويفرقون بين بعض الرسل وبعض ، منقطعين عن موكب الإيمان، مفرقين للوحدة التي جمعها الله ، منكرين للوحدانية التي يقوم عليها الإيمان بالله "[١].

" وقد ندد الله بكفر من أنكر النبوات، سواءً المشركين الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، أو الذين يزعمون أن الأديان من صنع البشر وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم دون تفريق بين الأديان الوثنية التي هي من صنع البشر، وبين الأديان التي جاء بها الرسل من عند الله ، والتي هي ثابتة في أصولها، والتي ينحرف عنها الناس فترة حتى يبعث الله لهم رسولاً بذات الدين الواحد الموصول، أو الفلاسفة والملحدين من الماديين الذين يرون أن الإله لا يمكن أن يعنى بغير ذاته، وبالتالي فلا يمكن أن يلتفت إلى الخلق، فليس هناك وحي ولا رسل، إنما هي أوهام الناس وخداع بعضهم لبعض باسم الدين "[٢] .

" وقد جاءت آيات كثيرة تصرح بكفر من كذب رسولاً واحدًا، واعتباره مكذبًا لجميع الرسل منها قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٣] ، وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحًا، ولكنه يذكر أنهم كذبوا المرسلين، لأن الرسالة في أصلها واحد ، فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين جميعًا "[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٦]، وقوله تعالى﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٨]، ومن ذلك أيضًا وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٧٩٧-٧٩٨ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٤٥ بتصرف.
(٣) سورة الشعراء :الآية ١٠٥.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٠٧ .
(٥) سورة الشعراء: الآية ١٢٣.
(٦) سورة الشعراء : الآية ١٤١.
(٧) سورة الشعراء : الآية ١٦٠.
(٨) سورة الشعراء: الآية ١٧٦.

ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [١] وهم لم يكذبوا سوى رسولهم صالح - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ولكن ليس صالح إلا ممثلًا للرسل أجمعين، فلما كذبه قومه قيل : إنهم كذبوا المرسلين، توحيدًا للرسالة وللرسل وللمكذبين، في كل أعصار التاريخ ، وفي كل جوانب الأرض ، على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام " [٢] .

وخلاصة موقف سيد قطب : أنه يرى وجوب الإيمان برسل الله كلهم، بدون تفرقة بينهم، فكلهم جاء من عند الله، وكلهم جاء بدين الله، وأن عدم الإيمان بواحد منهم كفر بهم جميعًا ، وكفر بالله الذي بعث بهم جميعًا " [٣] .

(١) سورة الحجر: الآية ٨٠.
(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢١٥١.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٥٨.

obeikandl.com

المطلب الثالث

صفات الرسل وخصائصهم

النبوة -كما تقدم- منةٌ من الله- تعالى- يمن بها ويختص بها من يشاء من عباده، وهؤلاء المختارون خصهم الله بصفات كمال النوع الإنساني من العلوم والمعارف، والفضائل والآداب، مع التنزه عن النقائص .[١]

وقد جاء ذكر بعض أوصاف الأنبياء ومميزاتهم في القرآن الكريم، من كونهم بشرًا، يوحى إليهم وكونهم معصومون عن ما ينافي النبوة والبلاغ، واتصافهم بجميل الصفات والأخلاق، وقد تكلم سيد -رحمه الله - في مواضع كثيرة عن أهم صفات وخصائص الأنبياء -عليهم السلام -ومما ذكره- سيد- من صفات وخصائص الأنبياء ما يأتي :

أولًا : أنهم بشر : من صفات الرسل - عليهم السلام - أنهم رجال من البشر ، ليسوا ملائكة ، ولا أربابًا ، وليس لهم من خصائص الألوهية شيء .

وقد افترق الناس في مسألة بشرية الرسل إلى ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : الذين غلوا في الأنبياء - عليهم السلام - وأفرطوا في تصوير خصوصيتهم حتى رفعوهم فوق جنس البشر، وجعلوا لهم صفات وخصائص الألوهية والربوبية .

الطائفة الثانية : جعلوا صفة البشرية مانعًا من النبوة ، وبالتالي أنكروا نبوتهم لكونهم بشر .

الطائفة الثالثة : الذين توسطوا والوسط هو الحق ، فإن كون الأنبياء - عليهم السلام - بشرًا هو ما تقتضيه حكمة الله وصلاح البشرية [٢] .

---

(١) ينظر : فتح الباري لابن حجر ١٢/ ٣٦٨ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٨/ ٢٧٨ - ٢٧٩ بتصرف يسير .

وقد تعرض سيد - رحمه الله- كثيرًا في ظلال الآيات التي تتحدث عن طبيعة الأنبياء ، إلى مسألة بشريتهم ، وبين أنها من صفات الرسل - عليهم السلام - وكذا الحكمة من كونهم بشرًا ، وردَّ على اعتراضات المشركين في مسألة بشرية الرسل ، حيث قرر -رحمه الله -أن الرسل جميعًا هم بشر، اختارهم الله من بين البشر ، لحمل أمانة الوحي ، والبلاغ ، والإنذار ، وما داموا بشرًا فإنهم محكومون بالسُنن الجارية على البشر من الحياة والموت والفناء ، وخضوعهم لألوهية الله - سبحانه - فالنبي عبد يتوجه لله بالعبودية كغيرة من المخلوقات ، وليس لهم من خصائص الألوهية شيء .

كما أنهم لا يعلمون الغيب ، ولا يدعون أنهم ملائكة ، ولا يقدرون على فعل الخوارق والمعجزات بأنفسهم ،ولهذا كان جواب النبي ﷺ على المشركين لما طلبوا منه أمور من خوارق العادات" : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[1]، وقد قرر القرآن الكريم بشرية الرسل في آيات كثيرة منها :

- قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾[2] .

- قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾[3]، فالرسل والأنبياء - عليهم السلام- بشر يوحى إليهم،وتنحصر حقيقتهم في كونهم "بشرًا يتلقون الوحي"[4].

الحكمة من كون الرسل بشرًا ، والرد على المعترضين :

ذكر سيد - رحمه الله- أن بشرية الرسل كانت موضع اعتراض في كل الجاهليات بقوله " لقد كانت بشرية الرسل هي موضع الاعتراض من جميع الأقوام في جاهليتهم" [5]، " وبدلًا من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته،

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٩٣ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ١١ .

(٣) سورة الكهف : الآية ١١١ ، وسورة فصلت : الآية ٦ .

(٤) ينظر كلام سيد حول بشرية الرسل في ظلال القرآن ١/ ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٨٥ ، ٢/ ٧١٩ ، ١٠٩٣ - ١٠٩٥ ، ١١٤٥ ، ٣/ ١٤٠٩ - ١٤١٠ ، ١٧٥٩ ، ٤/ ١٨٧١ ، ٢٠٧٨ ، ٢٣٦٨ ، ٥/ ٢٥٥٢ ، ٢٦١٥ ، ٢٩٦١ ، ٣٠٠٥ ، ٣٠٠٨ ، ٦/ ٣٤٣٢ ، ٣٥٨٦ .

(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧٨ وينظر : ٢/ ١١٤٥ .

فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار، ويجعلونه مثار ريبة في الرسل المختارين، ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم "[١].

أسباب الاعتراض على بشرية الرسل:

بين سيد قطب أسباب الاعتراض على بشرية الرسل بقوله: " وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول ..والتوقع أن يكون هناك سر غامض في شخصية الرسول وحياته، تكمن وراءه الأوهام والأساطير.. أليس رسول السماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهام والأساطير؟ كيف يكون شخصية مكشوفة بسيطة لا أسرار فيها ولا ألغاز حولها ؟! شخصية بشرية عادية من الشخصيات التي تمتلئ بها الأسواق والبيوت ؟![٢].

وهذا الاعتراض على بشرية الرسل هو اعتراض فج:

- ناشئ عن الجهل بطبيعة الرسالة، وكونها منهجًا إلهيًا للبشر، فلا بد أن تتمثل واقعيًا في بشر يحيا بها، ويكون بشخصه ترجمانًا لها، فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر ماً يستطيعون، ولا ينعزل هو عنهم بجنسه، فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية يحاولون تحقيقها في ذوات أنفسهم، وفي حياتهم ومعاشهم.

- وناشئ كذلك من الجهل بطبيعة الإنسان ذاته ورفعة حقيقته بحيث يتلقى رسالة السماء ويبلغها بدون حاجة إلى أن يحملها إلى الناس ملك كما كانوا يقترحون، ففي الإنسان تلك النفخة من روح الله ! وهي تهيئة لاستقبال الرسالة من الله، وأدائها كاملة كما تلقاها من الملأ الأعلى، وهي كرامة للجنس البشري كله لا يرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان عند الله، حين يحقق في ذاته حقيقة النفخة من روح الله !.

- وناشئ في النهاية من التعنت والاستكبار الكاذب عن إتباع رسول من البشر، كأن في هذا غضًا من قيمة هؤلاء الجُهَّال المتكبرين ! فجائز في عرفهم أن يتبعوا

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٠٩١ وينظر: ٤/ ٢٦١٥، ٥/ ٢٥٠٢، ٣٤٣٢، ٦/ ٣٥٨٦.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٩٦١ وينظر: ٥/ ٣٠٠٨.

رسولًا من خلق آخر غير جنسهم بلا غضاضة، أما أن يتبعوا واحدًا منهم فهي في نظرهم حطة وقلة قيمة ! "[١].

أما الحكمة من كون الرسل بشرًا : فقد تحدث عنها سيد - رحمه الله- كثيرًا ومن ذلك:

* في ظلال قوله تعالى ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾[٢]، يقول: " وأوجب شيء وأقرب شيء إلى الحكمة والمنطق أن يكون المنذر منهم ، بشرًا يدرك كيف يفكر البشر وكيف يشعرون ، ويحس ما يعتلج في نفوسهم ، وما يشتجر في كيانهم ، وما يعانون من نقص وضعف ، وما يجدون من ميول ونزعات ، وما يستطيعون أولا يستطيعون من جهد وعمل ، وما يعترضهم من عوائق وعقبات ، وما يعتريهم من مؤثرات واستجابات .

- بشرًا يعيش بين البشر وهو منهم فتكون حياته قدوة لهم ، وتكون لهم فيه أسوة ، وهم يحسون أنه واحد منهم ، وأن بينهم وبينه شبهًا وصلة، فهم مطالبون إذن بالمنهج الذي يأخذ به نفسه ، ويدعوهم لإتباعه، وهم قادرون على الأخذ بهذا المنهج فقد حققه أمامهم بشر منهم في واقع حياته .

- بشرًا منهم، من جيلهم، ومن لسانهم، يعرف مصطلحاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتفصيلات حياتهم، ويعرفون لغته ، ويفهمون عنه ، ويتفاهمون معه، ويتجاوبون وإياه، ومن ثم لا تقوم بينه وبينهم جفوة من اختلاف جنسه، أو اختلاف لغته، أو اختلاف طبيعة حياته أو تفصيلات حياته .

- وأيضًا فقد أراد الله- للبشرية وبخاصة في الرسالة الأخيرة - أن تعيش بهذه الرسالة عيشة طبيعية واقعية ،عيشة طيبة ونظيفة وعالية ، ولكنها حقيقة في هذه الأرض ، لا وهمًا ولا خيالًا ولا مثلًا طائرًا في سماء الأساطير والأحلام ! يعز على التحقيق ويهرب في ضباب الخيالات والأوهام !" [٣].

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٨٦ وينظر أيضًا : ٤/ ١٨٧١ ، ٥/ ٢٩٦١ .
(٢) سورة ص : الآية ٤ .
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٠٨ بتصرف يسير .

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾[1]، يقول سيد : " فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر ، يتلقون الوحي فيدعون به الناس، وما كان الرسل من قبل إلا رجالاً ذوي أجساد، وما جعل الله لهم أجسادًا ثم جعلهم لا يأكلون الطعام، فأكل الطعام من مقتضيات الجسدية ، والجسدية من مقتضيات البشرية، وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون لم يكونوا خالدين .

هذه هي سُنَّة الله المطردة فليسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل، إن كانوا هم لا يعلمون .

لقد كان الرسل من البشر ليعيشوا حياة البشر ، فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم، وسلوكهم العملي نموذجًا حيًا لما يدعون إليه الناس ، فالكلمة الحية هي التي تؤثر وتهدي ، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة .

ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام ، ولا يمشون في الأسواق ، ولا يعاشرون النساء ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس، فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم ، ولا البشر يتأسون بهم ويقتدون .

وأيما داعيةٍ لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ولا يحسون مشاعره ، فإنه يقف على هامش حياتهم ، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه، ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول، لما بينه وبينهم من قطعية في الحس والشعور .

وأيما داعية لا يصدق فعله قوله، فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب، مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة، فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال ويؤيدها العمل، هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين للعمل .

- والذين كانوا يقترحون أن يكون الرسول من الملائكة ، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرسول منزهًا عن انفعالات البشر.. كلهم يتعنتون ويغفلون عن هذه الحقيقة، وهي أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧ .

يحيوها.. لا يمكن أن يحسوا بدوافع الجسد ومقتضياته ، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص، وأن الرسول يجب أن يحس بهذه الدوافع والمشاعر ، وأن يزاولها في حياته الواقعية ليرسم بحياته دستور الحياة العملي لمتبعيه من الناس.

- وهنالك اعتبار آخر، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يثير في نفوسهم الرغبة في تقليده في جزئيات حياته ، لأنه من جنس غير جنسهم ، وطبيعة غير طبيعتهم ، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية ، وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس .

وهذا وذلك فوق ما في ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشري كله، باختيار الرسل منه ، ليتصلوا بالملأ الأعلى ويتلقوا عنه .

لذلك كله اقتضت سنة الله الجارية اختيار الرسل من البشر، وأجرت عليهم كل ما يجري على البشر من ولادة وموت، ومن عواطف وانفعالات، ومن آلام وآمال، ومن أكل للطعام ومعاشرة للنساء . . وجعلت أكبر الرسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرسالة الباقية فيهم أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض، بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة "[1].

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[2] يستعرض سيد - رحمه الله - استغراب المشركين من كون الرسول بشرًا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، و يتصرف تصرفات البشر ، كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان ، المعروف لهم ، المألوف في حياتهم ، الذي يأكل ويعيش مثلهم ، كيف يمكن أن يكون رسولًا من عند الله يوحى إليه ؟ وكيف يتصل بالعالم الآخر ويتلقى عنه ؟...

والمسألة من هذا الجانب قد تبدو غريبة مستبعدة، ولكنها من الجانب الآخر تبدو طبيعية مقبولة ، لقد نفخ الله من روحه في هذا الإنسان ، وصار بها إنسانًا ، واستخلف في الأرض ، ومن رحمة الله بهذا الإنسان قاصرِ العلم محدودِ التجربة

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٦٨ - ٢٣٦٩ .
(٢) سورة الفرقان : الآية ٢٠ .

ضعيفِ الوسيلة أنه لا يدعه دون عون وهدي ، وقد أودعه الاستعداد للاتصال به عن طريق تلك النفخة العلوية التي ميزته ، فلا عجب أن يختار الله واحدًا من هذا الجنس ، صاحب استعداد روحي للتلقي الوحي وهداية إخوانه البشر وهنا يبدو التكريم الإلهي للجنس البشري ، ...

وتبدو الحكمة الإلهية في جعل الرسل بشرا ، ليحس بإحساسهم ، ويتذوق مواجدهم ، ويعاني تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم، ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو في قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة ، وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ،لأنه في النهاية واحد منهم ، يرتاد بهم الطريق إلى الله ، بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق !.

وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد ، لأنه بشر منهم ، يتسامى بهم رويدًا رويدًا ، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم ، وأرادها منهم ، فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم ، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم ينقلونها سطرًا سطرًا ، ويحققونها معنى معنى ، وهم يرونها بينهم ، فتهفو نفوسهم إلى تقليدها ، لأنها ممثلة في إنسان ، ولو كان ملكًا ما فكروا في عمله ولا حاولوا أن يقلدوه ، لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم ، فلا جرم يكون سلوكه غير سلوكهم على غير أمل في محاكاته ، ولا شوق إلى تحقيق صورته !.

فهي حكمة الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، هي حكمة الله البالغة أن جعل الرسول بشرًا ليؤدي دوره في قيادة البشر، والاعتراض على بشرية الرسول جهل بهذه الحكمة ، فوق ما فيه من جهل بتكريم الله للإنسان "[1].

" وبهذا تبدو حكمة الله واضحة في الإيحاء إلى رجل منهم ، رجل يعرفهم ويعرفونه ، يطمئنون إليه ويأخذون عنه ، بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج "[2].

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٥٢- ٢٥٥٣ بتصرف يسير .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٧٦٠ .

ثانيًا : أنهم رجال : لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾[١] " لم يكونوا ملائكة، ولا خلقًا آخرًا ، إنما رجال من البشر " [٢].

ويعقب سيد - رحمه الله- على الآيات التي جاء فيها ذكر الأنبياء ، وختمت بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٣] بقوله: " وأخيرًا يذكر مريم بمناسبة ذكر ابنها - عليه السلام - ولا يذكر اسمها هنا لأن المقصود في سلسلة الأنبياء هو ابنها - عليه السلام - وقد جاءت هي تبعًا له ، إنما يذكر صفتها المتعلقة بولدها "[٤]. وكلامه يدل على أن النبوة في الرجال فقط ، كما صرحت بها الآية السابقة .

ثالثًا: أن كل نبي أو رسول بعث بلسان قومه : قال سبحانه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[٥] " وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة ، فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ، ليبين لهم وليفهموا عنه ، فتتم الغاية من الرسالة "[٦] .

رابعًا : أنهم يوحى إليهم : وهذه الصفات التي تميز بها الأنبياء عن باقي البشر، وهي أنهم رجال ذو طبيعة خاصة ، آتاها الله الاستعداد اللدني، وجعلها مهيأة لاستقبال الوحي ، ولذلك تطيق تلقيه ويجد الأنبياء في نفوسهم بينة ، يستيقنون معها أن الله هو الذي يوحي إليهم "[٧].

أ- معني الوحي: يذكر سيد - رحمه الله- " أن من معاني الوحي : التأثير الداخلي الذي ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن أخر "[٨].

---

(١) سورة يوسف : الآية ١٠٩ وسورة النحل : الآية ٤٣ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٣٥ ، ٢١٧٢ .
(٣) سورة الأنبياء : الآية ٩١ ، وينظر الآيات التي قبلها ٤٨- ٩٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٥ .
(٥) سورة إبراهيم : الآية ٤ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧٨ ، ٢٠٨٧ .
(٧) المصدر السابق ١/ ٢٧٩ بتصرف يسير، ٣/ ١٨٦٤.
(٨) في ظلال القرآن ٣/ ١١٨٩.

ب- واسطة حمل الوحي بين الله ورسله : النزول بالوحي إلى الأنبياء من مهام الملائكة – كما سبق – وقد جعل الله تعالى الواسطة بينه وبين رسله جبريل – عليه السلام – وذكر من صفاته أنه ملك كريم عند ربه ، ذي قوة لأن الوحي يحتاج في حمله إلى قوة ، مكين عند ربه في مقامه ومكانته ، مطاع في الملأ الأعلى ، أمين على ما يحمل وما يبلغ ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (١) وهذه الصفات لجبريل – عليه السلام – في مجموعها توحي بكرامة هذا القول – الوحي– وضخامته، وسموه كذلك وارتفاعه" (٢).

– كما جاء تسميته أيضًا "بروح القدس" يقول سيد : " أما روح القدس فالقرآن يعني به جبريل – عليه السلام – فهو حامل الوحي إلى الرسل، وهو الذي ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور الفذ العظيم ، وهو الذي يثبتهم على المضي في الطريق الشاق الطويل، وهو الذي يتنزل عليهم بالسكينة والتثبيت والنصر في مواقع الهول والشدة في ثنايا الطريق " (٣).

" وقد أعلمنا الله – سبحانه– أن الذي يقوم بمهمة إبلاغ الوحي إلى الرسل – عليهم السلام – هو جبريل – عليه السلام – فقال سبحانه :﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾(٤)، وقال سبحانه :﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (٥)، وقد رآه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على هيئته الملائكية مرتين اثنتين، بينما رآه في صور شتى في مرات الوحي التالية "(٦).

ج- صور الوحي إلى الرسل : أما صور الوحي إلى الرسل، فقد ذكرها الله تعالى في سورة الشورى بقوله:﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا

---

(١) سورة التكوير :الآيات ١٩-٢١.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٢ بتصرف وينظر أيضًا :

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٢.

(٤) سورة النحل : الآية ٢.

(٥) سورة البقرة: الآية ٩٧.

(٦) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٣.

obeikandi.com

مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ (١) .

يقول سيد - رحمه الله - : " ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن إنسان أن يكلمه الله مواجهه، وقد روي عن عائشة - رضي الله عنها - :" من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية " (٢).

إنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث :

١- ﴿ وَحْيًا ﴾ في النفس مباشرة فتعرف انه من الله .

٢- ﴿ أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ كما كلم الله موسى - عليه السلام - وحين طلب الرؤية لم يجب إليها، ولم يطق تجلي الله على الجبل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣).

٣- ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ وهو الملك ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ بالطرق التي وردت عن رسول الله ﷺ.

الأولى : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال ﷺ :" إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " (٤).

والثانية : أنه كان ﷺ يتمثل له الملك رجلًا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول .

والثالثة : أنه كان يأتيه في مثل صلصله الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

---

(١) سورة الشورى : الآية ٥١-٥٢.
(٢) سبق تخريجه ص ٥٣٤ .
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.
(٤) رواه : ابن أبي شيبة ٨/ ١٢٩ وعبد الرزاق في المصنف ١١/ ١٢٥ والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٣٣٩ وصححه الألباني في الصحيحة ٦/ ٨٦٥ برقم ٢٨٦٦

والرابعة : أنه يرى الملك في صورته التي خُلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم ".

ثم ذكر سيد -رحمه الله-: " أن هذه هي صور الوحي وطرق الاتصال، وذكر كلامًا أدبيًا يصور فيه مشاعره كلما وقف أمام آية تذكر الوحي أو حديث، فما تأمل هذا الاتصال إلا وأحس له رجفة في فؤاده "(١).

د- شبهة المنكرين للوحي والرد عليها :

في ظلال قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾(٢) يقول سيد - رحمه الله- : " سؤال استنكاري، يستنكر هذا العجب الذي تلقى به الناس حقيقة الوحي منذ كانت الرسل، لقد كان السؤال الدائم الذي قوبل به كل رسول : ابعث الله بشرًا رسولًا ؟ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة الإنسان.. فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله، وأن يتصل به عن طريق الوحي ، هذه كانت شبهة الكفار المكذبين على عهد الرسول - ﷺ - وشبهة أمثالهم في القرون الأولى .

- أما في هذا العصر الحديث فيقيم بعض الناس من أنفسهم لأنفسهم شبهة أخرى لا تقل تهافتًا عن تلك !

إنهم يسألون : كيف يتم الاتصال بين بشر ذي طبيعة مادية وبين الله المخالف لطبيعة كل شيء مما خلق والذي ليس كمثله شيء ؟.

وهو سؤال لا يحق لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط علمًا بحقيقة الله سبحانه، وطبيعة ذاته الإلهية كما أحاط علمًا بكل خصائص الإنسان التي أودعها الله إياه، وهو ما لا يدعيه أحد يحترم عقله ويعرف حدود هذا العقل، بل يعرف أن خصائص الإنسان القابلة للكشف ما يزال يكشف منها جديد بعد جديد، ولم يقف العلم بعد حتى يقال : إنه أدرك كل الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك، فضلًا

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٦٩-٣١٧٠ وقد أشار سيد في الهامش انه نقل ذلك عن زاد المعاد لابن القيم - رحمه الله -.

(٢) سورة يونس: الآية ٢ .

على أنه ستبقى وراء إدراك العلم والعقل دائمًا آفاق من المجهول بعد آفاق.

ففي الإنسان إذن طاقات مجهولة لا يعلمها إلا الله، والله أعلم حيث يجعل رسالته في الإنسان ذي الطاقة التي تحمل هذه الرسالة، وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس ، ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرسالة، ولكن الله الذي نفخ في هذا الإنسان من روحه عليم بما تنطوي عليه كل خلية ، وكل بنية ، وكل مخلوق ، وقادر على أن يطوع لإنسان هذا الاتصال الخاص بكيفية لا يدركها إلا من ذاقها وأوتيها .

ولقد جهد ناس من المفسرين المحدثين في إثبات الوحي عن طريق العلم للتقريب .

ونحن لا نقر هذا المنهج من أساسه، فللعلم ميدان هو الميدان الذي يملك أدواته، وللعلم أفاق هي الأفاق التي يملك أدوات كشفها ومراقبتها، والعلم لم يدع أنه يعرف شيئا حقيقيًا عن الروح، فهي ليست داخله في نطاق عمله، لأنها ليست شيئا قابلًا للاختبار المادي الذي يملك العلم وسائله، لذلك تجنب العلم الملتزم للأصول العلمية أن يدخل في ميدان الروح .

أما ما يسمى " بالعلوم الروحانية " فهي محاولات وراءها الريب والشكوك في حقيقتها، وفي أهدافها كذلك [١]، ولا سبيل إلى معرفة شيء يقيني في هذا الميدان، إلا ما جاءنا من مصدر يقيني كالقرآن والحديث، وفي الحدود التي جاء فيها بلا زيادة ولا تصرف ولا قياس، إذ أن الزيادة والتصرف والقياس عمليات عقلية، والعقل هنا في غير ميدانه ، وليس معه أدواته، لأنه لم يزود بأدوات العمل في هذا الميدان "[٢].

خامسًا : العصمة :

١ - معنى العصمة والحكمة منها :

أ- **العصمة في اللغة تعني:** المنع والامتناع عن الشيء [٣].

---

(١) أشار سيد هنا في الهامش إلى مراجعة الكراسة التي كتبها الدكتور محمد بن محمد حسين بعنوان: الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٥٩-١٧٦٠ بتصرف يسير .

(٣) لسان العرب٩/ ٢٤٤ .

وعصمة الرسل يقصد بها : أن يكون الرسل والأنبياء معصومين في تحمل الرسالة والتبليغ عن الله، فلا يكتمون شيئا، ولا ينسون شيئًا من الوحي أمروا ببلاغه، وهذا متفق عليه عند الأمة "[١] .

وأما العصمة في غير ما يتعلق بالتبليغ، فيقصد بها حفظ الله لأنبيائه ورسله من الوقوع في الذنوب والمحرمات والنقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسية .

والعصمة ثابتة للأنبياء والرسل دون غيرهم، وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله بها وميزهم على سائر البشر [٢] .

ب- الحكمة من ذلك : أن الله -عز وجل- جعلهم قدوه للخلق، وأمر الخلق بإتباعهم والاقتداء بهم، وبالتالي لو وقعوا في المعاصي، لأصبحت المعصية مشروعه، ومن ناحية أخرى لابد عقلًا وشرعًا أن يكونوا معصومين، حتى يكون لهم تأثير في نفوس الناس، فلو كانت حياتهم ملوثة بالمعاصي فلن يكون لكلامهم ودعوتهم أثر "[٣] .

وقد اختلف العلماء في عصمة الأنبياء، هل هي قبل النبوة وبعدها، أم بعد النبوة؟ وهل تكون العصمة عن الكبائر فقط ؟ أم عن الكبائر والصغائر من الذنوب ؟ على أقوال [٤].

رجح شيخ الإسلام ابن تيميه أن القول بعصمتهم بعد النبوة من الكبائر مما هو متفق عليه، وأما عصمة الأنبياء قبل النبوة فمن مواضع النزاع ، وكذا عصمتهم عن الصغائر، وأجاب عن القائلين بالعصمة المطلقة واحتجاجهم بأننا مأمورون بالتأسي بهم ووقوع الصغائر يقدح في التأسي، بأن التأسي إنما هو فيما اقروا عليه، كما أن النسخ جائز فيما يبلغون من الأمر والنهي، وليس تجويز ذلك مانعًا من وجوب الطاعة، لأن الطاعة تجب فيما لم ينسخ، فعدم النسخ يقرر الحكم، وعدم الإنكار

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٢٨٩. والمواقف للإيجي ص٣٥٨.

(٢) ينظر : فتح الباري ٧/ ٢٦ و مجموع فتاوى ابن تيمية ١٢٩٠ والنبوة والأنبياء . محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي ، طبعة عام ١٤٠٠هـ ص ٥٥-٥٦ .

(٣) النبوة والأنبياء . للصابوني ص٥٣-٥٥ .

(٤) تفسير القرطبي ١/ ٣٠٨ وفتح الباري لابن حجر ٧/ ١٤٤، ٨/ ٦٩، ١١/ ١٠١، ٤٤٠ ومجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣١٩، ١٠/ ٣٠٩، ٢٩٢، ٢٩٣ والنبوة والأنبياء للصابوني ص٥٣-٥٥.

يقرر الفعل، والأصل عدم كل منهما "[١].

٢- موقف سيد قطب - رحمه الله - من مسألة عصمة الأنبياء :

يقرر سيد- رحمه الله-أن الأنبياء معصومون، وأن الاعتقاد بعصمة النبي أصل من أصول العقيدة[٢] ، وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾[٣].

يقول سيد : " والله الذي يحفظ دعوته من تكذيب المكذبين ، وتعطيل المعوقين، ومعاجزة المعاجزين، يحفظها كذلك من كيد الشيطان ، ومن محاولته أن ينفذ إليها من خلال أمنيات الرسل النابعة من طبيعتهم البشرية، وهم معصومون من الشيطان ولكنهم بشر تمتد نفوسهم إلى أمانيّ تتعلق بسرعة نشر دعوتهم وانتصارها وإزالة العقبات من طريقها ...

ثم ذكر روايات لقصة الغرانيق، وفيها أن قريش كانت تتمنى أن يذكر الرسول -ﷺ - آلهتها بخير، وكان رسول الله- ﷺ - قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذى وتكذيب ، وأحزنه ضلالهم ، فكان يتمنى هداهم، فلما أنزل الله في سورة النجم قوله: ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ ألقى الشيطان عندها كلمات فقال : وأنهن لهن الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك.. فلما بلغ رسول الله - ﷺ - آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك ...وانتشر خبر سجود المشركين حتى بلغ الحبشة وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا، فرجع المهاجرون من الحبشة بعدها ..وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم آياته وأنزل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ وساق كلام ابن كثير - رحمه الله- حول القصة ، وكيف وقع مثل

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية٤/ ٣١٩، ٣٢٠، ١٠/ ٢٩٣، ١٥/ ١٤٨-١٥٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٣١ -٢٤٣٢ .
(٣) سورة الحج : الآية ٥٢ .

هذا مع العصمة المضمونة من الله - سبحانه - لرسوله - ﷺ - وحكى أجوبة عن الناس من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهموا أنه صدر عن الرسول ﷺ، وليس كذلك في الواقع .

ثم عقب سيد - رحمه الله- على ما أورده ابن كثير -رحمه الله - بقوله: " هذه خلاصة تلك الروايات في هذا الحديث الذي عرف بحديث الغرانيق، وهو من ناحية السند واهي الأصل، قال علماء الحديث: إنه لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند سليم متصل يجوز ذكره ، وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلًا من أصول العقيدة وهو عصمة النبي ﷺ من أن يدس عليه الشيطان شيئًا في تبليغ رسالته .

وقد أولع المستشرقون والطاعنون في هذا الدين بذلك الحديث ، وأذاعوا به ، وأثاروا حوله عجاجة[1] من القول، والأمر في هذا كله لا يثبت للمناقشة ، بل لا يصح أن يكون موضوعًا للمناقشة .

- وهناك من النص ذاته ما يستبعد معه أن يكون سبب نزول الآية شيئًا كهذا ، فالنص يقرر أن هذه القاعدة في الرسالات كلها مع الرسل كلهم : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴾ ، فلا بد أن يكون المقصود أمرًا عامًا يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعًا ، بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل .

وحاول سيد - رحمه الله- بيان ذلك بأن الرسل عندما كلفوا بحمل الدعوة ، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يتبع الناس الدعوة ويدركوا الخير ، ولكن لكثرة العقبات في الطريق ، ولمحدودية عمر الرسل يتمنون لو يجذبون الناس بأسرع طريق ، ولومن خلال السكوت المؤقت على بعض عادات وموروثات الناس حتى يدخلوا في الدين ثم بعد ذلك تتم تربيتهم الصحيحة .

- وهذه الرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة في حين أن الله يريد أن تمضى

(١) العجاجة : الغبار والدخان ، انظر لسان العرب ٩/ ٥٤ .

الدعوة على أصولها الكاملة ، وفق موازينها ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق .

- والشيطان يجد في رغبات الرسل البشرية تلك فرصة للكيد للدعوة ، وتحويلها عن خطها ، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان ، ويصحح ما وقع من خطأ في اجتهادات الرسل ... وفي حياة النبي ﷺ أمثلة من هذا ، تغنينا عن تأويل الكلام ومن ذلك :

- قصة ابن أم مكتوم رضي الله عنه [١] الأعمى الفقير الذي جاء إلى الرسول ﷺ يطلب منه أن يعلمه وهو - ﷺ - مشغول ببعض صناديد قريش، والأعمى لا يعلم ذلك، حتى كره - ﷺ - إلحاحه فعبس في وجهه وأعرض عنه، فأنزل الله قرآنًا يعاتب فيه الرسول - ﷺ -عتابًا شديدًا ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [٢] وبهذا صحح القرآن الكريم تصرف رسول الله - ﷺ - وأبطل كيد الشيطان من الدخول إلى العقيدة من هذه الثغرة

- وكذلك ما جاء في الصحيح " من أنه كان مع النبي - ﷺ - ستة نفر من الصحابة ، فجاءه المشركون فقالوا : أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا ، فوقع في نفس رسول الله - ﷺ - ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[٣]، وهكذا رد الله كيد الشيطان من أن يدخل من ثغرة الرغبة البشرية في استمالة كبراء قريش بطرد الفقراء من مجلس الرسول - ﷺ - .

- ومنها كذلك قصة زواج النبي- ﷺ - بزينب بنت جحش- رضي الله عنها -[٤]، حيث خشي النبي - ﷺ - من زواجها حتى لا يقال تزوج مطلقة متبناه ، فنزل القرآن

(١) هو : عبد الله بن قيس بن زائدة القرشي ، كان ضريرًا مؤذنًا للرسول - ﷺ - هاجر بعد بدر واستخلفه الرسول - ﷺ - على المدينة مرتين ، مات بعد القادسية في المدينة ، انظر سير أعلام النبلاء ١/ ٣٦٠ .

(٢) سورة عبس : الآيات ١- ١٠ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٥٢ .

(٤) هي : زينب بنت جحش بن رئاب ، ابنة عمته ﷺ ، من المهاجرات الأوائل ، زوجها الله تعالى لنبيه ﷺ بنص كتابه بلا ولي ولا شاهد بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، كانت من سادة النساء دينًا وورعًا وجودًا ومعروفًا ، انظر : سير أعلام النبلاء ٢/ ٢١١-٢١٨

الكريم يكشف ما في خاطر رسول الله -ﷺ- ويقرر الحق وصدقت عائشة رضي عنها وهي تقول: " لو كتم محمد - ﷺ - شيئًا مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[1]، وهذا هو ما نطمئن إليه في تفسير تلك الآيات ...

وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم ، فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة " مصلحة الدعوة " وهي أمر يجب أن يرتفع من قاموس الدعوات باعتبارها مزلة ومدخل للشيطان،.. وقد تتحول إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة ، وينسون معه منهج الدعوة الأصيل "[2].

- وفي ظلال قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾[3].

يقول سيد - رحمه الله - : " وقد حاول المشركون في صور شتى ، منها مساومتهم أن يعبدوا إلهه في مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وآبائهم ، ومنها أن يجعل أرضهم كلها حرامًا كالبيت العتيق ، ومنها طلب بعض كبرائهم مجلسًا غير مجلس الفقراء .

والنص يشير إلى هذه المحاولات دون تفصيل، ليذكر فضل الله على الرسول-ﷺ- في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته لركن إليهم فاتخذوه خليلًا ، ويلقى عاقبة الركون إلى فتنة المشركين ..

وهذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله ، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائمًا لإغرائهم لينحرفوا ولو قليلًا عن استقامة الدعوة وصلابتها ، ويرضوا بالحلول الوسط مقابل مغانم كثيرة ، ومن حملة الدعوة من

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٧ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٣١- ٢٤٣٦ بتصرف .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٧٣ - ٧٤ .

يفتن بهذا عن دعوته .. "[١]

وعمومًا فسيد - رحمه الله - يرى أن الأنبياء معصومون فيما يتعلق بالبلاغ والدعوة والوحي كما سبق في تعليقه على قصة الغرانيق ، وأنه قد يصدر منهم خطأ بناء على طبيعة البشرية في اجتهاداتهم في قضايا الدعوة التي لم ينزل فيها وحي فيأتي الوحي فيصحح الخطأ ويقيم الميزان الحق ، ومن ذلك ما ذكره سيد - رحمه الله- حول قصة ابن أم مكتوم ، ومساومة المشركين للنبي - ﷺ - في طرد بعض فقراء المسلمين من المجلس ليجلسوا معه هم ، وكذلك ما أشار إليه في مواطن أخرى مثل عتاب الله لرسوله - ﷺ - في قضية أسرى بدر[٢] وإذنه للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك[٣] وغيرها .

٣- شبهات حول عصمة الأنبياء وموقف سيد قطب منها :

جاء في القرآن الكريم ما يشير إلى وقوع بعض المخالفات من بعض الأنبياء والرسل - عليهم السلام - فكيف يتفق ذلك مع القول بعصمتهم ؟ .

والجواب : أن العصمة ثابتة للأنبياء كما دلت على ذلك النصوص الشرعية ، وكما يقضي بذلك العقل السليم ، أما ما وقع من بعضهم من أمور ظاهرها أنها مخالفات ومعاصي فهي محمولة على بعض الوجوه الآتية :

١ - إما أنها ليست معصية ، وإنما هي فعل خلاف الأولى .

٢ - أو أنها خطأ في الاجتهاد .

٣- أو أنها كانت قبل النبوة على فرض أنها معصية .[٤]

وقد ذكر البعض أمثلة لذلك يمكن استعراضها مع بيان موقف سيد - رحمه الله- منها :

١ - **عصمة آدم** - عليه السلام - : ترد في مسالة عصمة آدم - عليه السلام - قضيتان :

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٤٥ .

(٢) ينظر في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٠ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٦٦٢ .

(٤) النبوة والأنبياء للصابوني : ص٦١.

الأولى : أكله من الشجرة وعصيان أمر الله : قال تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾[1]، والمفسرون على أن هذه المعصية كانت قبل نبوته - عليه السلام - أو أنه أكل ناسيًا بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمًا ﴾[2]، ومادام الأمر وقع بدافع النسيان فإنه لا يؤاخذ عليها، ما لم تكن تعمدًا[3].

وهو ما يقرره سيد- رحمه الله - حيث يرى أن المخالفة كانت من آدم قبل أن يعهد إليه بالخلافة في الأرض، وكانت منه نسيانا وليس تعمدًا[4].

الثانية : نسبة الشرك إلى آدم وحواء - عليهما السلام - :

أورد بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[5] روايات تنسب الشرك إلى آدم وحواء -عليهما السلام- من خلال طاعتهما للشيطان في تسمية ولدهما بعبد الحارث حتى يعيش، نظرًا لأنه كان لا يعيش لهما ولد .

ويرى سيد- رحمه الله - " أن ظاهر ما في هذه الروايات طابع إسرائيلي، ولا حاجة بنا إلى هذه الإسرائيليات، فالنص إنما يصور مدارج الانحراف في النفس البشرية، والمثل هنا مضروب للفطرة"[6] .

- عصمة إبراهيم - عليه السلام - :

مما يرد في قضية عصمة إبراهيم - عليه السلام - مسائل :

الأولى : نسبة الشرك إليه ، أورد بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا

---

(١) سورة طه : الآية ١٢١.
(٢) سورة طه: الآية ١١٥.
(٣) ينظر أحكام القرآن لابن العربي : ص١٢٤٩، وتفسير القرطبي١/ ٣٠٦٩، وتفسير المنار١/ ٣٨٠٠.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٥٣ بتصرف .
(٥) سورة الأعراف : الآية ١٩٠.
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١١ - ١٤١٢ .ويراجع ما سبق عن نشأة الشرك .

جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1]، روايات وآثارًا في أن إبراهيم - عليه السلام - اعتقد في طفولته أو بعد بلوغه أن الكواكب هي إلهه[2].

وجمهور المفسرين على أن القصة جاءت في سياق استدراج إبراهيم - عليه السلام - لقومه، ومناظرتهم والتنزل معهم لإبطال شركهم بالله، وفساد عقيدتهم فيها.[3]

أما سيد - رحمه الله- فيرى أن القصة الواردة في الآيات ترسم مشهدا للفطرة السليمة، وهي تبحث عن إلهها الحق، الذي تجده في أعماقها، بينما هي تصطدم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها، فالآيات تصور فطرة إبراهيم- عليه السلام - وهي تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها، وتنطلق بعد أن نفضت عنها الخرافة تبحث عن إلهها الحق الذي تجده في ضميرها... وتختبر ما أمامها فتجده زائفًا لا يطابق لما هو مكنون من حقيقة الإله وصفته، فهي تصور رحلة طويلة من نقطة الإيمان الفطري إلى نقطة الإيمان الواعي، الذي يقوم عليه التكليف بالفرائض والشرائع... وبعد اختبار ألوهية الكواكب وبطلانها بمنطق الفطرة، يجد إبراهيم إلهه الحق في قلبه وفطرته، وعندئذ تكون المفاصلة الحاسمة للآلهة الزائفة، وللمشركين بها "[4].

الثانية: الشك في قدرة الله. أخبر الله تعالى أن إبراهيم - عليه السلام - سأل ربه أن يريه كيف يحي الموتى بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾[5] حيث قد يفهم منه أن إبراهيم - عليه السلام -

---

(١) سورة الأنعام: الآيات ٧٦-٧٩.

(٢) تفسير الطبري: ٥/ ٢٤٤-٢٤٦.

(٣) ينظر في ذلك: تفسير ابن كثير ٣/ ١٣٢٦ والكشاف للزمخشري ٢/ ٤٠ واحتكام القرآن لابن العربي ٢/ ٧٣٢. وأضواء البيان للشنقيطي ١/ ٣٦٣.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن ٢/ ١١٣٧ - ١١٤١ بتصرف.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

كان شاك في قدرة الله على إحياء الموتى ، وهذا الفهم غير سليم ، فإبراهيم - عليه السلام - إنما كان مستفهما عن الكيفية ، وليس عن الماهية ، فلم يقل : هل تقدر يا رب على أن تحيي الموتى ؟ "[١] .

- أما سيد قطب- رحمه الله- فيقول في ظلال هذه الآية : " إنه التشوف إلى ملابسة سر الصنعة الإلهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم ، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل ، حين يجيء هذا التشوف من إبراهيم فإنه يكشف عما يختلج أحيانًا من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين !.

إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره ، وليس طلبًا للبرهان أو تقوية الإيمان، إنما هو أمر آخر له مذاق آخر إنه الشوق الروحي، إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي .

ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب ولو كان هو إيمان إبراهيم الخليل ، الذي يقول لربه ، ويقول له ربه ، وليس وراء هذا إيمان ولا برهان للإيمان ، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل ، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيستروح بها ، ويتنفس في جوها ، ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده إيمان ....

وقد استجاب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب إبراهيم ، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة ،... لقد أمره أن يختار أربعة من الطير، ويقربهن إليه ، حتى يتأكد من مميزاتهن وأن يذبحهن ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة ، ثم يدعوهن فتتجمع الأجزاء مرة أخرى ، وترتد إليها الحياة ، ويعدن إليه ساعيات .

رأى إبراهيم هذا السر يقع بين يديه.. وهو سر يعلو على التكوين البشري إدراكه، فهو قد يراه ،ويصدق به كما فعل إبراهيم ، لكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته" [٢].

---

(١) الكشاف للرازي ١/ ٣٠٨ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٠١- ٣٠٢ بتصرف .

٣- عصمة يوسف عليه السلام -:

في قصة يوسف - عليه السلام - صورة مشرقة عن النزاهة والبراءة و العصمة ، مع وجود الإغواء والإغراء والكيد ، ومع ذلك فقد جاء في بعض التفاسير روايات إسرائيلية حول قصة يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز " حيث أورد بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾[1].

يقول سيد : " لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم في تلك الواقعة الأخيرة ، فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعًا شبقًا ، والله يدافعه بالبراهين الكثيرة فلا يندفع ! صورت له هيئة أبيه يعقوب في سقف المخدع عاضًا على أصبعه بفمه ! وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن - أي نعم من القرآن !!- تنهى عن مثل هذا المنكر، وهو لا يرعوي ! حتى أرسل الله- جبريل- يقول له : أدرك عبدي ، فجاء فضربه في صدره .. إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي سار وراءها بعض الرواة وهي واضحة التلفيق والاختراع ! " .

- أما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل ، وهم بها هم النفس ، ثم تجلى له برهان ربه فترك، وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار على الجمهور هذا الرأي، وقال : إنها إنما همت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها وهي السيدة الآمرة ، وهم هو برد الاعتداء ، ولكنه آثر الهرب ، وتفسير الهم بأنه هم الضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها في العبارة ، فهي مجرد رأي لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل إليه في تلك الواقعة، وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص .

أما الذي خطر لي وأنا أراجع النصوص هنا ، وأراجع الظروف التي عاش فيها يوسف - عليه السلام - ، في داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة ، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعد ما أوتيهما . .

الذي خطر لي أن قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ

(١) سورة يوسف : الآية ٢٤ .

رَبِّهِۦ ﴾ هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعدما أبى يوسف في أول الأمر واستعصم.. وهو تصوير واقعي صادق لحالة النفس البشرية الصالحة في المقاومة والضعف ، ثم الاعتصام بالله في النهاية والنجاة..ولكن السياق القرآني لم يفصل في تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة المتغالبة... بل ذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعًا .

هذا ما خطر لنا ونحن نواجه النصوص، ونتصور الظروف، وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية، وما كان يوسف سوى بشر، نعم إنه بشر مختار، ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات، فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه ، بعد لحظة الضعف الطارئة ، عاد إلى الاعتصام والتأبي " [١].

وقد أيد سيد – رحمه الله– كلامه هذا بما ذكره الزمخشري [٢] في الكشاف : " فإن قلت : كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه همٌ بالمعصية وقصدٌ إليها ؟ قلت المراد أنّ نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ، ميلًا يشبه الهم به والقصد إليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويردّه بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًا لشدّته لما كان صاحبه ممدوحًا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته . انتهى .. " [٣] ، ثم قال سيد – رحمه الله– معلقًا على النص :"وهو تعليل صحيح في جملته بغض النظر عن الإشارة الاعتزالية في قول الزمخشري : "ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم"فهو إشارة منه إلى مذهب المعتزلة في أن البرهان عقلي ، والبرهان الذي أخذه الله على

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨١ – ١٩٨٢ بتصرف يسير .

(٢) هو : محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري ، أبو القاسم ، ولد بزمخشرى من خوارزم سنة ٤٦٧هـ كان محدثًا ومتكلمًا ومفسرًا معتزلي العقيدة له عدة مؤلفات توفى سنة ٥٣٨هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٥١ ، شذرات الذهب ٤/ ١٠٨ .

(٣) ينظر : الكشاف للزمخشري دار إحياء التراث العربي بيروت ط١ عام ١٤١٧هـ ٢/ ٤٣٠ .

المكلفين هو ما قرره في شريعته ، ولكن هذا خلافٌ مذهبي تاريخي لا شأن لنا به ، فهو بجملته غريب على التصور الإسلامي " (١)

هذه نماذج خاصة بعصمة الأنبياء مما ورد في القرآن الكريم .

أما ما ينسب إلى بعض الأنبياء -عليهم السلام - زورًا وكذبًا وافتراءً من أهل الكتاب في كتبهم المحرفة ، فقد أشار سيد - رحمه الله- إلى ذلك " كما سبق في تصحيح القرآن الكريم لأهل الكتاب صورة الأنبياء التي شوهت في كتبهم المحرفة ".

سادسًا : الصدق والأمانة في التبليغ :

من صفات الأنبياء - عليهم السلام- الصدق والأمانة في التبليغ ، وهذه الصفات ملازمة للنبوة ، بل هي من الصفات الفطرية فيهم ، يقول سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى:﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (٢) : " وهذا تهديد رعيب ، لمن يفتري على الله في شأن العقيدة وهي الجد الذي لا هوادة فيه، يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول - ﷺ -وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذًا شديدًا، كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ ...ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمدًا - ﷺ - صادق فيما أبلغهم به، وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه ، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق " (٣).

وقد أورد سيد - رحمه الله - روايات عن إقرار المشركين بصدق النبي ﷺ قبل بعثته وبعدها ، مع أنهم لم يؤمنوا به ، من ذلك قول النضر بن الحارث لقريش : " يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثًا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٨٢ هامش رقم ١ .
(٢) سورة الحاقة : ٤٤ -٤٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٩ .

في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر! لا والله ، ما هو بساحر... لا والله ما هو بكاهن ... لا والله ما هو بشاعر ... وما هو بمجنون ... فانظروا في شأنكم ، فإنه قد نزل بكم أمر عظيم " (١).

وأيضًا حديث :أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : " يا صباحاه " فاجتمعت إليه قريش ، فقال : " أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ؟ أكنتم مصدقي؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " . فقال أبو لهب . ألهذا جمعتنا ؟ تبًا لك، فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٢) " (٣).

فالمشركون كانوا يعرفون الرسول ﷺ في عمره الطويل معهم، لكنهم لما جاءهم بالحق قالوا فيه ما قالوا، وهو صاحبهم الذي لا يجهلون، وهو الأمين على الغيب الذي يحدثهم عنه عن يقين، لقد كانوا يعرفون رجاحة عقله ، وصدقه وأمانته وتثبته ، فراحوا يعللون ما جاءهم به أنه سحر وكهانة وجنون وشعر.. وتركوا التعليل الوحيد الصادق : وهو أنه وحي وتنزيل من الله، وأن محمدًا ﷺ مؤتمن على الغيب، لا تظن به الظنون فيما يقول فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين " (٤) .

" وهذه هي صفات الرسل جميعًا، فالبلاغ الكامل لما أنزل الله هو مقتضى العصمة "(٥).

" وكل رسول جاء إلى قوم قال لهم : ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ في مودة الناصح وصدق الأمين " (٦) .

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٦٨٨ .
(٢) سورة المسد : الآية ١ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٩٩ .
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٨٤٢ - ٣٨٤٣ بصرف .
(٥) المصدر السابق ٢/ ٩٣٨ .
(٦) المصدر السابق ٣/ ١٣٠٥ ، ١٣١١ بتصرف .

المطلب الرابع

وظائف الرسل

للرسل – صلوات الله وسلامة عليهم– وظائف جليلة ، ومهمات جسيمة في حياة البشرية ، يقول سيد – رحمه الله – : " إن مصائر البشرية كلها في الدنيا وفي الآخرة سواء ، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم ، فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر ، تقوم سعادة البشر أو شقوتهم ، ويترتب ثوابهم أو عقابهم في الدنيا والآخرة ، ...ومن ثم كان الرسل – صلوات الله عليهم – يحسون بجسامة ما يكلفون، وكان الله – سبحانه – يبصرهم بحقيقة العبء الذي ينوطه بهم ، ... إنه الأمر الهائل العظيم، أمر رقاب الناس، أمر حياتهم ومماتهم، أمر سعادتهم وشقائهم، أمر ثوابهم وعقابهم، أمر هذه البشرية سعادة وشقاء "[1] .

وقد أشار سيد – رحمه الله– إلى عدد من وظائف ومهام الرسل –عليهم السلام– في مواطن متفرقة يمكن إجمالها في الآتي :

أولا :تعريف العباد بربهم ـ سبحانه ـ ودعوتهم إلى توحيده وعبادته:

وهذه هي المهمة الكبرى الذي بعث الله من أجلها الرسل الكرام ، والمتمثلة بتعريف الخلق بالخالق – جل وعلا – وتخصيص العبادة له دون سواه قال –سبحانه– : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[2]، وقال أيضًا : ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[3].

يقول سيد -رحمه الله-:" إن الدعوة الإسلامية – على يد محمد رسول الله – ﷺ – إنما تمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٩ بتصرف يسير .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٥ .
(٣) سورة النحل : الآية ٣٦ .

الكرام، وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف أمرًا واحدًا :هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق ،وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق.

هذه طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشري، إنها تستهدف" الإسلام " إسلام العباد لرب العباد وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، بإخراجهم من سلطان العباد وحاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم ، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة"(١).

ويقرر سيد – رحمه الله– في مواطن كثيرة: " أن الإنسان أُهبط إلى الأرض مؤمنًا بربه ، مهتديًا تائبًا موحدًا ، وأنه تتقاذفه الأمواج بين الحين الآخر فيضل ويشرك ، وبالتالي فمن رحمة الله به أن أرسل إليه الرسل لإنقاذه وهدايته "،"لقد جاءت الرسل – رسولًا بعد رسول – بالتوحيد الخالص وبربوبية رب العالمين : جاء كل رسول إلى قومه بعد انحرافهم عن التوحيد الذي تركهم عليه رسولهم السابق ليدعوهم إلى توحيد الله بقوله : ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾ " فالتركيز في كل رسالة كان على أمر واحد : هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده – رب العالمين – باعتبارها القاعدة الأساسية المشتركة في الرسالات جميعًا " ، "والقران يقرر أن جميع الرسل – عليهم السلام – جاءوا بالتوحيد المطلق الخالص ، الذي لا ظل فيه للشرك ، في صورة من صوره " ،" وكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد سبحانه وتعالى"، " ولقد كان هذا الجهد الموصول المكرر مع كل رسالة ومع كل رسول ، وكان الإصرار من الرسل صلوات الله عليهم على كلمة التوحيد بلا هوادة ، على اعتبار أن وظيفتهم الأساسية في الحياة هي إقرار وإقامة هذه الحقيقة في البشرية " (٢).

ثانيًا:تبليغ أوامر الله ونواهيه للعباد وإقامة الحياة على وفق منهج الله:

جعل الله سبحانه وتعالى من وظائف الرسل : تبليغ أوامره ونواهيه للبشر، وقد قام الرسل جميعا بهذه المهمة كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٥ .
(٢) ينظر في ذلك : في ظلال القرآن ١/ ٢٧٩ ، ٢/ ١١١٠، ١١٣٧، ١١٤٧ ، ١٣٥، ١٣٠٤، ١٣٠٦ ، ١٥٥٥ ، ٤/ ١٨٥٣ ، ٢١٠٠ ، ٢١٧١، ٢٣٩٧ ، ٥/ ٣٠١١.

وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[١] وجعل علامة الرسول تبليغ الرسالة، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[٢].

يقول سيد : " فوظيفة الرسول التلقي من الله، وأداء الرسالة المتمثلة في تبليغ ما يأتيه من ربه "[٣] ومن ثم كان هنالك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل، لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة الوجود الإنساني ، ولغاية الوجود كله، وغاية الوجود الإنساني ، ومن هذا التصور ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم ، ..وهي أمور لا يمكن للعقول أو التجارب البشرية أن تصل إلى الحق فيها، .. فالذي يضع خطه الرحلة للطريق كله، هو الذي يدرك الطريق كله، والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطريق، فأنى له أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول؟ إنه إما الخبط والضلال والشرود، وإما منهج الرسالات والرسل المستمد من خالق الوجود "[٤].

ويقرر- سيد - أنه: " ليست وظيفة الرسل مجرد البلاغ، بل البلاغ هو قاعدة عمل الرسول والدعاة من بعده، وهذا البلاغ أول مراتب الجهاد، فمتى صح تبليغ حقائق الدين فلابد أن الجاهلية ستواجه الداعية إلى الله ، ومن ثم تجيء مرحلة الجهاد نتيجة طبيعة للتبليغ الصحيح لا محالة "[٥]. فلا بد من بلاغ ، ولا بد من أداء، بلاغ بالبيان، وبلاغ بالعمل حتى يكون المبلغون ترجمة حية واقعة مما يبلغون، وبلاغ بإزالة العقبات التي تعترض طريق الدعوة، وتفتن الناس بالباطل وبالقوة وإلا فلا بلاغ ...

فأما رسل الله -عليهم السلام- فقد أدوا الأمانة، وبلغوا الرسالة، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان، ولكن بلغوها

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٩.
(٢) سورة المائدة: الآية:٦٧.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٧١٩، ١٠٩٥ ، ٣/ ١٤٢٠ بتصرف وينظر أيضًا :٤/ ١٨٥٣، ٢٠٧٨ ٥/ ٢٩٦١، ٣١٧٢.
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٨١ بتصرف .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٧١.بتصرف يسير .

- مع هذا- قدوة ممثلة في العمل، وجهادًا مضيئا بالليل والنهار ، لإزالة العقبات والعوائق، سواء كانت هذه العقبات والعوائق شبهات تحاك وضلالات تزين ، أو كانت قوى طاغية تصد الناس عن الدعوة وتفتنهم في الدين، كما صنع رسول الله ﷺ خاتم النبيين، بما أنه المبلغ الأخير، وبما أن رسالته هي خاتمة الرسالات، فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان، إنما أزالها كذلك بالسنان ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾[1]، وبقي الواجب الثقيل على من بعده، على المؤمنين برسالته في التبليغ، ولا فكاك لهم من التبعة الثقيلة - تبعة إقامة حجة الله على الناس ، وتبعة استنقاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا - إلا بالتبليغ والأداء، على ذات المنهج الذي بلغ به رسول الله ﷺ وأدى، فالرسالة هي الرسالة، والناس هم الناس، والضلالات والأهواء، والشبهات والشهوات ،وقوى الطغيان والعقبات، هي هي "[2] .

ويقول أيضًا في بيان أن مهمة الرسل إقامة منهج الله في حياة البشر : " وصورة الإسلام الواضحة الكاملة الدقيقة الشاملة - كما جاء به رسل الله جميعا - من ناحية أصول العقيدة تحتوي الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلًا، ومعرفة الله سبحانه وتعالى بصفاته .. والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلًا، ومن ثم نفي الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد، وإعلان السلطان والحكم لله وحده "[3]، " فلا يتبعون إلا شرعه ونهجه، ولا يطيعون إلا أمره ونهيه" [4].

ثالثًا : هداية البشر إلى الطريق المستقيم وتزكيتهم وتطهيرهم وتربيتهم وتعليمهم :

من وظائف الرسل الجليلة، هداية الناس إلى الطريق المستقيم ، يقول سيد : "فقد بعث الله الرسل للأقوام للهداية :﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[5] "[6]،

(١) سورة الأنفال : الآية :٣٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٩ بتصرف .
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٦٠.
(٤) المصدر السابق ٤/ ١٨٦٦.
(٥) سورة الرعد : الآية :١٧ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٤٨.

"ولقد مضت الرسالات واحدة إثر واحدة تأخذ بيد البشرية وتمضي بها صعدًا في الطريق على هدى وعلى نور"(١).

" وآية أن ما يتم بالرسالة - عن طريق العقل نفسه - لا يمكن أن يتم بغيرها، فلا يغني العقل البشري عن الرسل، وتاريخ البشرية لم يسجل أن عقلًا مهما كبر قد اهتدى إلى مثل ما اهتدت إليه العقول بالرسالة ، لا في تصور اعتقادي، ولا في خلق نفسي ، ولا في نظام حياة ، ولا في تشريع واحد لهذا النظام"(٢). "فينابيع الهدى في الأرض، تتمثل في ما جاءت به الرسل"، " ولذلك لم يكل الله الناس إلى عقولهم وفطرتهم وحدها لأنها قد تضل وتفسد ، إنما يكلهم إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه ، ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفائها ، ويرد عقولهم إلى صحتها وسلامتها ، وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها"(٣).

" إن إرسال الرسل يوحي بعظمة التفضل الإلهي على الناس، فمن مهمات الرسول- ﷺ - أن يطهر أرواحهم من لوثة الشرك ودنس الجاهلية ، ورجس التصورات التي تثقل الروح الإنساني وتطمره، ويطهرهم من لوثة الشهوات والنزوات فلا ترتكس أرواحهم في الحمأة، ويطهر المجتمع والحياة من الربا والسحت والغش والسلب والنهب، وكلها دنس يلوث الأرواح والمشاعر، ويلطخ المجتمع والحياة ويطهر حياتهم من الظلم والبغي وينشر العدل النظيف الصريح ، .. ويطهرهم من سائر الملوثات التي تلطخ وجه الجاهلية في كل مكان وفي كل زمان "(٤).

رابعا: التبشير والإنذار وإقامة الحجة على الناس :

" من مقتضى عدالة الله ورحمته أن بعث رسلًا إلى عباده، يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان، وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب ، كل ذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، قال

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٨١.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٨١١ بتصرف يسير .
(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٤٤، ١١٤٦ وينظر ٣/ ١٢١٠، ٣/ ١٣٩٥-١٣٩٦.
(٤) المصدر السابق ١/ ١٣٨-١٣٩ بتصرف وينظر أيضًا ٤/ ٢٠٧٠، ٥/ ٢٨٢٩.

سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١)، ولله الحجة البالغة في الأنفس والآفاق ، وقد أعطى الله البشر من العقل ما يتدبرون به دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق، ولكنه - سبحانه- رحمة منه بعباده ، وتقديرًا لغلبة الشهوات على تلك الأداة العظيمة التي أعطاها لهم - أداة العقل - اقتضت رحمته وحكمته أن يرسل إليهم الرسل ﴿ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ يذكرونهم ويبصرونهم ، ويحاولون استنقاذ فطرتهم وتحرير عقولهم من ركام الشهوات ، التي تحجب عنها أو تحجبها عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق " (٢).

" فوظيفة الرسول أنه منذرٌ ومحذرٌ ومبصرٌ ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ (٣) ﴿ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٤).

" فالرسول يرسله الله ليبشر وينذر، وعليها تكون استجابة البشر، ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة " (٥). ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٦) ولكن لا ينتفع بما جاء به الرسل من النذارة والبشارة إلا المؤمنون الذين يفهمون حقيقة ما جاء به، ويدركون ما وراء هذا الذي جاء به الرسول " (٧).

ولقد لخص الله هذه المهمة من مهمات الرسل بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٨)، " فوظيفة النبي - ﷺ - أن يكون ﴿ شَاهِدًا ﴾

(١) سورة النساء :الآية: ١٦٥.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٥.
(٣) سورة الرعد: الآية: ٧.
(٤) سورة الحج : الآية:٤٩.
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٩٣، ٤/ ٢٠٤٨، ٢٤٣١ بتصرف .
(٦) سورة الأعراف : الآية: ١٨٨.
(٧) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١٠.
(٨) سورة الأحزاب : الآية: ٤٥-٤٨.

عليهم، وأن يكون ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ لهم بما ينتظر العاملين من رحمة وغفران وفضل وتكريم، وأن يكون ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ للغافلين بما ينتظر المسيئين من عذاب ونكال، فلا يؤخذوا على غرة، ولا يعذبوا إلا بعد إنذار، ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لا إلى دنيا، ولا إلى مجد، ولا إلى عزة قومية، ولا إلى عصبية جاهلية، ولا إلى مغنم، ولا إلى سلطان أو جاه، ولكن داعيًا إلى الله في طريق واحد يصل إلى الله، ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ فما هو بمبتدع، ولا بمقطوع، ولا بقائل من عنده شيئًا، إنما هو إذن الله له وأمره لا يتعداه، ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ يجلو الظلمات، ويكشف الشبهات، وينير الطريق، نورًا هادئًا هاديًا كالسراج المنير في الظلمات "[1].

- ولقد كانت تربية الأمم وهدايتها من خلال القدوة أكثر نفعا، والرسالة منهج إلهي تعيشه البشرية، وحياة الرسول هي النموذج الواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي، النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به، ومن ثم كانت حياة الرسول -ﷺ- معروضة لأنظار أمته، بمعالمها الرئيسية في الحياة وبأصغر تفصيلاتها وأحداثها ... وحتى خطرات قلبه أحيانا لتطلع عليها الأجيال، وترى فيها قلب ذلك النبي الإنسان "[2]، هذه هي أهم وظائف ومهام الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - إجمالًا.

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٧٢ . وينظر أيضًا ٥/ ٢٩٥٩.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٦٦١ بتصرف يسير .

المطلب الخامس

دلائل النبوة وآيات الأنبياء

" الطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر ، تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات ، وكثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات ، وقرروا ذلك بطرق مضطربة ، والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء ، حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر ، ونحو ذلك ، ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح ، لكن الدليل غير محصور في المعجزات ، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما ، وتمييز بين الصادق والكاذب" [1].

فأهل السُّنَّة والجماعة يثبتون النبوة بدلائل كثيرة منها :

١- القرائن والأحوال التي تدل على صدق النبي - ﷺ - .

٢- نصر الله لأنبيائه وإهلاك أعدائهم في النهاية .

٣- المعجزات وخوارق العادات .

وقد أشار سيد رحمه الله إلى بعض دلائل النبوة، يمكن بيانها إيجازًا فيما يأتي :

أولًا : قرائن الأحوال :

" وذلك أن النبوة إنما يدعيها اصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتفرق بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة، فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟ .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية : ص ١٤٠ وما بعدها .

وما أحسن ما قال الشاعر في وصفه - ﷺ - :

لو لم تكن فيه آيـات مبينة .·. كانت بديهته تأتيك بالخبر [١]

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين، إلا وقد ظهر عليه من الكذب والفجور واستحواذ لشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز " [٢] .

وقد أشار سيد- رحمه الله - إلى أن أحوال الأنبياء من الصدق والزهد والصبر ونحوها من دلائل نبوتهم ، ففي ظلال قوله تعالى عن الرجل المؤمن وهو يخاطب قومه: ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [٣]، يقول سيد:" فالذي يدعو مثل هذه الدعوة ، وهو لا يطلب أجرًا ، ولا يبتغي مغنمًا إنه لصادق، وإلا فما الذي يحمله على هذا العناء إن لم يكن يلبي تكليفًا من الله ؟ ما الذي يدفعه إلى حمل هم الدعوة ؟ ومجابهة الناس بغير ما ألفوا من العقيدة ؟ والتعرض لأذاهم وشرهم واستهزائهم وتنكيلهم وهو لا يجني من ذلك كسبًا ، ولا يطلب منهم أجرًا " [٤] .

- وعند حديثه عن اقتراحات المشركين وطلبهم الآيات من النبي ﷺ يقول: "وبهذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة، وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله - ﷺ - الذي يعرفونه جيدًا بالخبرة الطويلة، ما يدلهم على صدقة وأمانته، وهم كانوا يلقبونه الأمين، ويودعون أماناتهم لديه حتى وهم معه على أشد الخلاف.. وكذلك كان صدقه مستيقنًا كأمانته، فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا - حين أمره ربه بذلك -وسألهم: إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم بنبأ ، أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق .. فلو كانوا يريدون أن يعلموا صدقه لقد كان لهم في ماضيه برهان ؟ ولقد كانوا يعلمون : أنه لصادق، كما قال الله

---

(١) أنشده المبرد في الكامل ص ٩ لحسان ، وهو في البيان والتبيين ١/ ١٥، والروض الأنف ١/ ١٨٧ وعيون الأخبار ١/ ٢٢٤ غير منسوب ، وفي الإصابة ص ٤٦٦٧ لعبد الله بن رواحه ، انظر شرح العقيدة الطحاوية ص١٤١ هامش رقم ١.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٠ - ١٥٠ بتصرف .

(٣) سورة يس : الآية ٢١

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٦٣ .

عنهم: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[١]، فهي الرغبة في الإنكار والإعراض والعناد والاستكبار عن الحق وليس الشك في صدق النبي ﷺ "[٢].

- كما ذكر سيد - رحمه الله - في مقدمة سورة العلق حديث بدء الوحي، وفيه استدلال خديجة رضي الله عنها[٣]،على صدق النبي ﷺ بعد أن تخوف على نفسه بقولها: كلا، أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق "[٤].

ثانيا: نصر الله للأنبياء وإهلاك أعدائهم:

من دلائل النبوة أيضًا: " أن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله ويهلك أعداءهم في نهاية الصراع، كما أخبر-سبحانه- عن إهلاك قوم نوح وعاد وثمود وأهل مدين وقوم لوط وقوم فرعون وغيرهم، ولما ذكر الله قصص إهلاك أعداء الأنبياء في سورة الشعراء قال في آخر كل قصة: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٥]، [٦].

وقد أشار سيد رحمه الله إلى هذه الدلالة في مواطن متفرقة منها:

* في ظلال قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[٧]. يقول سيد: "وهذه الشبهة يعللون بها موقفهم من الوحي، وهو قول مردود، فما كان الله ليدع أحدًا يدعي أن الله أوحى إليه وهو لم يوح إليه شيءٌ، وهو قادر على أن يختم على قلبه فلا ينطق بقرآن كهذا، وأن يكشف الباطل الذي جاء به ويمحوه، وأن يظهر الحق من

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٣.
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٠.
(٣) هي: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، تجتمع مع النبي ﷺ في قصي، تزوجها النبي ﷺ وعمرها ٤٠ سنة ولم يتزوج عليها حتى ماتت ورزق منها أبناءه كلهم إلا إبراهيم، أول من آمن به من النساء، توفيت في السَّنَة العاشرة للبعثة، انظر: الاستيعاب ٤/ ١٧٢ وأسد الغابة ٥/ ٤٣٤
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٦. والحديث في البخاري في كتاب - بدء الوحي ١/ ٤-٥ برقم ٣.
(٥) سورة الشعراء: الآيات ٦٧، ١٠٣، ١٢١، ١٣٩، ١٥٨، ١٧٤، ١٩١٠.
(٦) شرح العقيدة الطحاوية: ص ١٥١.
(٧) سورة الشعراء: الآية ٢٤

ورائه ويبينه.. فهي شبهة لا قوام لها ، ودعوى تخالف المعهود عن علم بالسرائر، وعن قدرته على ما يريد، وعن سننه في إقرار الحق وإزهاق الباطل، وإذن فهذا الوحي حق، وقول محمد - ﷺ- صدق" (١) .

*وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ (٢) . يقول سيد - رحمه الله-: "وهذا تهديد رعيب لمن يفتري على الله في شأن العقيدة ، وهي الجد الذي لا هوادة فيه، يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول - ﷺ - وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذًا شديدًا ، كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ ..

ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمدًا ﷺ صادق فيما أبلغهم ، وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه ، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات، ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق "(٣) ، " فمن دلائل صدق الأنبياء نصر الله لهم، وإهلاك أعدائهم، حيث كانت العاقبة دائما للرسل وأتباعهم" (٤).

ثالثًا : المعجزات وخوارق العادات :

المعجزات : هي الأمور الخارقة للعادة ، المصحوبة بالتحدي(٥)، فهي أخص من مطلق الآيات وعلامات النبوة عند البعض .

وسميت معجزة : لعجز من تقع عندهم عن معارضتها، والهاء فيها للمبالغة (٦).

وقيل: أن المعجزة اسم يعم كل خارق للعادة في اللغة وفي عرف العلماء، وتسمى بالآيات أيضًا (٧).

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٥٤- ٣١٥٥ بتصرف يسير .
(٢) سورة الحاقة : الآية ٤٤ - ٤٧ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٩ .
(٤) ينظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٦٥٦ ، ٤/ ٢٠٣٦، ٢٠٣٧، ٥/ ٢٦٠٨ .
(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي - المكتبة العصرية ط عام ١٤٠٧هـ ، ٤/ ٣ .
(٦) فتح الباري لابن حجر: ٦/ ٥٨١-٥٨٢.
(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١١/ ٣١١.

وقد وقف الناس من قضية المعجزات والخوارق مواقف متباينة، فمنهم من جعلها وحدها هي دليل النبوة وأنكر وقوع خوارق للعادات وكرامات لغير الأنبياء، كما هو الحال عند المعتزلة والظاهرية وبعض الأشاعرة [١] ومنهم من ضيق نطاق الخوارق وأولها أو انكرها، كما فعل بعض أصحاب الأهواء [٢] .

أما سيد -رحمه الله- فله حديث طويل عن المعجزات وخوارق العادات يمكن إجماله فيما يأتي :

١ـ إثباته للمعجزات :

عبر القرآن الكريم عما أيد الله به الأنبياء – عليهم السلام – من أجل إيمان الناس بهم " بالآيات " واصطلح العلماء على تسميتها " بالمعجزات " .

وكلام -سيد - عن المعجزات يدل على أنه يرى أنها تشمل أمرين :

أ – ما كان مصحوبا بالتحدي، مما يطلبه الكفار من أنبيائهم للتدليل على صدقهم.

ب– وما كان خارقًا للعادة ، بدون تحدي ، وهو الآيات التي تأتي بها الأنبياء بإذن الله ، فتنة للناس ، أو عند الحاجة إليها .

حيث يقول: " كانت البشرية جيلًا بعد جيل تطلب خارقة معجزة من الرسول، تدل على أنه حقًا مرسل من الله ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [٣] ، كما طلبت ثمود تلك الخارقة ، فاستجاب الله لعبده صالح وأعطاه هذه الخارقة في صورة ناقة " [٤].

" وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات ، لتصديق الرسل ، وتخويف الناس من عاقبة التكذيب ، وهي الهلاك لمن كذب بها " [٥].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ إِنَّمَآ

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ص١٤٠.
(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٧٧ .
(٣) سورة الشعراء : الآية ١٥٤.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٢.
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧.

أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (١) ، يقول سيد : " إنهم يطلبون خارقة، والخوارق ليست من عمل الرسول ولا اختصاصه، إنما يبعث بها الله معه ، حين يرى بحكمته أنها لازمة " (٢).

وفي تعليقه على تأويل يوسف - عليه السلام - لرؤيا الملك يقول: " والهبة اللدنية التي وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه ، على ما نعهد في معجزات الأنبياء"(٣).

ويأتي كثيرا في حديث سيد - رحمه الله- عن آيات الأنبياء التي أيدهم الله بها تصديقا لهم ، أو إجابة لطلب أو تحدي الناس ، تسميته لها بالمعجزات، وإثباتها للأنبياء - كما سيأتي ذلك مفصلًا بعد قليل - مما يدل على أنه - رحمه الله - يطلق لفظ المعجزة على ما كان خارقًا للعادة من آيات الرسل وبياناتهم التي أيدهم الله بها على سبيل التحدي أو بدونه .

كما يقرر سيد - رحمه الله- أن هذه المعجزات والخوارق التي يأتي بها الرسل ليست من عمل الرسل - عليهم السلام - ولا في مقدورهم ، إنما يبعث بها الله معهم حيث يرى بحكمته أنها لازمة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد " (٤) .

" فالمعجزات تشهد بأن الله وراءها ، وأن قوة الله تؤيدها ، وتؤيد من جاءت على يده " (٥) ، " فكل خارقة جاء بها نبي إنما جاء بها من عند الله " (٦) .

" وقد بين الرسل لقومهم أن الإتيان بالخوارق من شأن الله ، ليفرقوا في مداركهم المبهمة المظلمة بين ذات الله الإلهية وذواتهم البشرية ، وليمحصوا صورة التوحيد المطلق الذي لا يلتبس بمشابهة في ذات ولا صفات، وهي المتاهة التي تاهت فيها الوثنيات كما تاهت فيها التصورات المسيحية عندما تلبست بالوثنيات المختلفة ، وكانت نقطة البدء في المتاهة هي نسبة الخوارق إلى عيسى -عليه السلام- " (٧) .

(١) سورة الرعد : الآية ٧.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٤٨.
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٣ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٤٨ .
(٥) المصدر السابق ١/ ٤٠١ .
(٦) في ظلال القرآن ١ / ٣٩٩ بتصرف يسير .
(٧) المصدر السابق ٤/ ٢٠٩١ بتصرف يسير .

٢ـ تفسير سيد قطب للمعجزات والخوارق :

يقرر سيد- رحمه الله - "أنه ليس هناك جدية آلية في الخلق والإنشاء، ولا في الحركة والحدث والنواميس التي يراها الناس مطردة في الكون - بوجه عام - ليست قوانين آلية أنشاها الله وسلطها، لتعمل بذاتها آليا وحتميا، ولكنها تطرد - على الجملة - لأن قدر الله في شانها يطرد في غير جبرية آلية فيها، وفي غير حتمية على الله سبحانه وتعالى في أطرادها، إنما هي مشيئته وحكمته تجريها هكذا كما أرادها، وقد يجري غيرها في تعلق مشيئته وحكمته به، فيجري قدره بما يشاء، وهكذا تقع المعجزات الخارقة لما يسمى بالقوانين الطبيعية، فالنار قد أودعها الله خاصية حرق الأجسام، كما أودع الأجسام خاصية الاحتراق بالنار، ولكن مشيئته جرت بقدر غير هذا في حادث إبراهيم - عليه السلام - ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[1] والناس يتعاملون مع النواميس الثابتة - في جملتها - وقد شاء الله أن يجعلهم قادرين على إدراك بعض هذه النواميس، والتعامل معها على ثبات نسبي بها، يسمح لهم باستخدام حصيلة تجاربهم في تعاملهم مع سنة ثابتة، وأن تكن لا آلية ولا حتمية ، لا بالقياس إلى الله - سبحانه- ولا بالقياس إلى ذاتها كذلك .

وفي تصور المسلم لا يقوم " السبب " ولا العادة، ولا المألوف من النواميس، حاجزًا بين العبد وإرادة الله به، وبالوجود كله من حوله، في كل حالة، وفي كل لحظة، فالمشيئة الإلهية في تصورها- كما هي في الحقيقة - طليقة من وراء تلك النواميس، ومع هذا فالمسلم يتعامل مع النواميس الثابتة، ويأخذ بالأسباب التي تتلاءم مع هذه النواميس لأنه مأمور أن يأخذ بها - وأخذه بها عبادة وطاعة - ويتعامل مع سنة الله وهو يعلم أن لا تبديل لسنة الله، لا بسبب حتميتها على الله، ولا بسبب جبرية آلية فيها هي ذاتها، ولكن الله أراد ألاَّ يبدلها، وجرى قدره باطرادها - إلا أن يشاء غير ذلك - مع تعلق كل حادث ينشأ بقدر خاص ينشئه، وفي هذا يختلف التصور الإسلامي تمامًا ويتميز عن كل تصور آخر"[2].

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٦٩-٧٠.

(٢) مقومات التصور الإسلامي - سيد قطب - ص٦٣-٦٤ بتصرف يسير .

ويقول أيضا: " فلا عجب من أمر الله، فالعادة حين تجري بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل، فعندما يشاء الله لحكمة يريدها،يقع ما يخالف العادة ، مع وقوعه وفق السُّنَّة الإلهية التي لا نعلم حدودها ، ولا نحكم عليها..والذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لا يعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله -سبحانه- في كتابه...

نعم إن الله – سبحانه – يجري هذا الوجود وفق النواميس التي قدرها له، ولكن هذا شيء والقول بتقييد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شيء آخر! إن الناموس يجري وينفذ بقدر من الله في كل مرة ينفذ فيها، فهو لا يجري ولا ينفذ آليًا، فإذا قدر الله في مرة أن يجري الناموس بصورة أخرى غير التي جرى بها في مرات سابقة كان ما قدره الله ولم يقف الناموس في وجه القدر الجديد، ذلك أن الناموس الذي تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق ، وتحقق الناموس في كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق .."[1].

ويقرر سيد " أن عصر الخوارق لم يمض! فالخوارق تتم في كل لحظة – وفق مشيئة الله الطليقة – ولكن الله يستبدل بأنماط مَن الخوارق أنماطا أخرى ، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها، وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها، ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائما ، و يلابسون آثارها المبدعة " [2] .

" إننا لا نرى أن جريان الأمر على السُّنَّة المألوفة أقل وقعًا ولا دلالة من جريانه على ألسنة الخارقة للمألوف، فالسُّنَّة المألوفة هي في حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر، إن طلوع الشمس وغروبها خارقة – وهي معهودة كل يوم- وإن ولادة كل طفل خارقة -وهي تقع كل لحظة – وإلا فليجرب من شاء أن يجرب! " [3] .

" ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة . . فإن القمر في ذاته آية أكبر! هذا الكوكب بحجمه ، ووضعه ، وشكله ، وطبيعته ، ومنازله ، ودورته ، وآثاره في حياة الأرض ، وقيامه هكذا في الفضاء بغير عمد ، آية كبرى قائمة دائمة توقع

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٩١٢ بتصرف يسير، وينظر أيضًا ٣/ ١٣٨٣، ٤/ ٢١٥٠، ٢٢١١ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٨٩٣.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٩٧٧.

إيقاعها وتلقي ظلالها ، وتقوم أمام الحس شاهدًا على القدرة المبدعة التي يصعب إنكارها إلا عنادًا أو مراءً !" [١].

ويقول أيضًا : " إن الخوارق الحسية قد تدهش القلب البشري في طفولته ، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل - صلوات الله عليهم - قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم ، وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق.

٣ـ الرد على المنحرفين في تفسير الخوارق والمعجزات :

يقول سيد - رحمه الله- عند حديثه عن الطير الأبابيل في سورة الفيل : " وتختلف الروايات في تحديد نوع الطير، وأشكالها، وأحجامها، وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها، كما يروى أن الجدري والحصبة ظهرا في هذا العام في مكة ، ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات ، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عليها ، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى، وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات ، فالطير كل ما يطير .

ثم نقل عن الإمام محمد عبده تفسيره لحادثة الفيل بما سبق وقوله: " وهذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة ، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل ، إن صحت روايته"، وعقب عليه سيد - رحمه الله- بقوله: " ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الأستاذ الإمام - صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم - أو غيرها من الروايات التي تصف الحجارة بأنها كانت تخرق الرؤوس والأجسام ..لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله ، ولا أولى بتفسير الحادث ، فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع ، ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره ، ويستوي عندنا أن تكون السُّنَّة المألوفة للناس المعهودة المكشوفة لعلمهم ، هي التي جرت فأهلكت قومًا أراد الله إهلاكهم ، أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر، فسنة الله ليست فقط هي ما عهده

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٤٢٧ بتصرف يسير .

البشر وعرفوه ، فهذه الخوارق - كما يسمونها- هي من سنة الله ، ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهده وما عرفه البشر .

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها - متى صحت الرواية - أو كان في النصوص وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة، ولم تجر على مألوف الناس و معهودهم " [١].

فأما في هذا الحادث بالذات ، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيرًا أبابيل غير معهودة ، تحمل حجارة غير معهودة ، تفعل بالأجسام فعلًا غير معهود . .لأن جو الملابسات للحادث يتناسق مع كونه على غير المألوف والمعهود ، إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية من تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ ، ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية ، حيث كانت تواجه النزعة الخرافية الشائعة ، وسيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير، والفتنة بالعلم الحديث ، وموجة الشكّ في مقررات الدين ، فقامت هذه المدرسة بمحاولة ردَ الاعتبار للدين ، باعتباره موافق للعقل ، وتنقيته من الخرافات ، لكن ذلك أدى إلى المبالغة في الاحتياط ، والميل إلى جعل المألوف من السُنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله ولهذا شاع في تفسير الإمام و تلاميذه [٢] جميعًا الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف السنن ، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه " المعقول " ، وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات، ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الاتجاه ، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه ، وإغفال الجانب الآخر من التصور القرآني الكامل ، وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن المألوفة منها وغير المألوفة " [٣].

" فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/ ٣٩٧٦ - ٣٩٧٧ بتصرف .

(٢) منهم الشيخ محمد رشيد رضا والشيخ عبد القادر المغربي- رحمهما الله- كما أشار إلى ذلك سيد - رحمه الله - .

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٧٧ - ٣٩٧٨ بتصرف .

إلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة حسب ما اعتاده ورآه ، ولكن المعتاد ليس هو الحكم "[١].

٤ـ موقف سيد قطب من آيات الأنبياء ومعجزاتهم :

آيات الأنبياء هي أدلتهم وبراهين صدقهم كما سماها الله آيات وبراهين[٢]، وقد بعث الله الأنبياء لهداية الناس ، وأيدهم بالبينات كدليل على صدقهم، قال سبحانه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾[٣]. يقول سيد : " فالرسالة واحدة في جوهرها، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها ، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق ، وبعضهم أنزل عليه كتاب "[٤].

وتحدث سيد -رحمه الله - في مواضع كثيرة عن آيات الأنبياء ومعجزاتهم، وقارن بينهما وبين آيات نبينا محمد -ﷺ - ، ورجح أن آية نبينا محمد ﷺ باقية على مر الأيام والسنين، شاهدة شهادة صدق دائم لا يغيب - وسيأتي بيان ذلك في المبحث الخاص بنبوة نبينا محمد - ﷺ - قريبًا .

ويقسم سيد المعجزات إلى قسمين :

١- معجزات حسية : وهي الآيات المتعلقة بالكون والأفاق، وهي كما يقول : " تدهش القلب البشري في طفولته ، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل - صلوات الله عليهم - قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم ، وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق"[٥].

التي كانت تصاحب الرسالات لتصديق الرسل، وتخويف الناس من عاقبة التكذيب، لم يكن يؤمن بها إلا المستعدة قلوبهم للإيمان، أما الجاحدون فقد كذبوا

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢١١ .
(٢) النبوات : لابن تيمية ص٥.
(٣) سورة الحديد : الآية ٢٥.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٩٤.
(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٤٢٧.

بها في زمانهم "[١].

٢- معجزات غير مادية : يقول سيد : " اقتضت التجارب البشرية أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق، لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها ، لا رسالة جيل واحد يراها، ولأنها رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الإنسان جيلًا بعد جيل ، وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته، وبناء على ذلك فقد كانت معجزة الإسلام هي القرآن، معجزة باقية للأجيال إلى يوم القيامة، يخاطب الفكر والقلب والفطرة، ويقيم منهجًا للحياة ، أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلًا واحدًا من الناس، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل"[٢]، وهذا من الفروق بين آية خاتم النبيين وآيات من سبقه - كما سيأتي - .

أما تفاصيل آيات الأنبياء ومعجزاتهم، فقد وقف سيد - رحمه الله- في ظلال الآيات القرآنية التي تتحدث عن معجزات وآيات الأنبياء مثبتًا لها، ويمكن الإشارة إلى بعض معجزات الأنبياء التي تعرض لها سيد-رحمه الله - إجمالًا، حيث يقرر الآتي :

أ- أن الأنبياء بعثوا بما يدل على صدقهم من الآيات والبينات، وبعضهم جاء بالمعجزات والخوارق[٣].

ومن الأنبياء الذين تعرض سيد - رحمه الله- للحديث عن معجزاتهم وآياتهم وخوارقهم :

١- نوح -عليه السلام- وكانت آيته: في تحديه لقومه وهو وحيد، وفي الطوفان [٤] .

٢- صالح -عليه السلام- وكانت معجزته : " الناقة " [٥]

٣- إبراهيم -عليه السلام- وكانت معجزته : خروجه من النار سالما [٦]

---

(١) في ظلال القرآن

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٤٩٤.

(٤) المصدر السابق ٣/ ١٨٧٥ وما بعدها و٦/ ٣٧١٦.

(٥) المصدر السابق ٤/ ١٩٠٨، ٢١٥١، ٥/ ٢٦١٢ .

(٦) المصدر السابق ٤/ ٢٣٨٧.

٤- داود -عليه السلام- وكانت آياته : تسخير الجبال والطير يسبحن معه، وإلانة الحديد له .[١]

٥- سليمان- عليه السلام- وكانت آياته : تسخير الريح والجن، ومعرفة لغات الطير والحشرات والحيوانات .[٢]

٦- يوسف عليه السلام : وكانت آيته : تفسير الرؤيا .[٣]

٧- موسى عليه السلام : وكان أكثر الأنبياء آيات ومنها : العصا، واليد، والبحر، والجراد، والقمل والدم، والضفادع، والجبل، والماء، وغيرها .[٤]

٨- عيسى عليه السلام : ومن آياته : خلقه من غير أب، وكلامه في المهد، وإحياء الموتى، وإبراء المرضى، والإخبار عن بعض المغيبات .[٥]

ب - أن آيات ومعجزات الأنبياء كانت متناسقة مع العصر الذي جاءوا فيه، فآيات يوسف-عليه السلام- كانت متناسقة مع جو العصر الذي يعيشه من الاهتمام بالرؤيا وتأويلها[٦]، وآيات موسى -عليه السلام- كانت متناسقة مع جو السحر الذي كان منتشرًا في عصره[٧] ، وآيات عيسى- عليه السلام- كانت متناسقة مع العصر الذي جاء فيه وطبيعة مولده[٨] .

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣٩٠، ٥/ ٢٨٩٧، ٣٠١٧ .
(٢) المصدر السابق ٤ / ٢٣٩١، ٥/ ٢٦٣٦، ٢٨٩٨ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٣ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٧٢-٧٣، ٢/ ٨٠٠، ٨٦٩، ٣/ ١٣٤٧، ١٣٥٦، ١٣٥٨، ٤/ ٢٢٥٢، ٢٣٣٢، ٢٣٤٠، ٥/ ٢٥٩٠.
(٥) المصدر السابق ١/ ٢٨٢، ٣٩٥، ٣٩٩، ٤/ ٢٣٠٤، ٢٣٠٧، ٢٣٠٨ .
(٦) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٣.
(٧) المصدر السابق ٤/ ٢٣٤٠ .
(٨) المصدر السابق ١/ ٣٩٩ .

المطلب السادس

التفاضل بين الأنبياء والرسل

وفي هذا المطلب أجمل بعض القضايا المتعلقة بالأنبياء والرسل والتفاضل بين إفراد هذا الموكب الكريم – عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين– وذلك فيما يأتي :

أولًا : أول الأنبياء وأول الرسل :

دلت النصوص الصحيحة على أن آدم –عليه السلام– هبط إلى الأرض موحدًا، وأنه عاش مع بنيه على التوحيد " فهو نبيٌّ مكلمٌ " كما جاء في الحديث [١]، وهذا على اعتبار أن النبي من بعث في قوم موافقين، فآدم بعث بشريعة وعلمها أبناءه لأنه لم يكن قبله شرك ولا انحراف عن التوحيد .

أما أول الرسل فالراجح والصواب أنه نوح –عليه السلام– حيث دلت النصوص على أن الانحراف وقع بعد آدم بعشرة قرون[٢]، وأن الناس وقعوا في الشرك والوثنية، فبعث الله إليهم أول رسله نوحًا– عليه السلام – " باعتبار أن الرسول من بعث إلى قوم مخالفين " [٣].

– وقد ذكر البعض أن أول الرسل هو إدريس –عليه السلام – [٤]، لكن الراجح عند الجمهور هو أنه نوح –عليه السلام – [٥].

أما سيد – رحمه الله– فكان موافقًا للجمهور حيث يرى أن أول الرسل بعد –آدم عليه السلام – هو نوح – عليه السلام – حيث صرح بذلك في مواطن متعددة .

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد ٥/ ٢٦٥ وابن حبان في صحيحة ١٤/ ٦٩ والحاكم في المستدرك ٢٦٢ . وقال على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني، لنظر : مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، المكتب الإسلامي – بيروت – ط٣ عام ١٤٠٥، ٣/ ١٥٩٩.

(٢) تفسير الطبري ١/ ١٩٤، والأثر رواه الحاكم ٢/ ٥٤٦، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال صحح على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وله شاهد حسن من حديث قتادة بسند صحيح .

(٣) فتح الباري ١١/ ٤٣٤ .

(٤) النبوات لابن تيمية ص ٢٥٥ ، وشرح الطحاوية ص ١٥٥

(٥) فتح الباري ١/ ١٥.

يقول سيد : "هبط آدم إلى الأرض مسلمًا لله متبعًا هداه، وما من شك أنه علم بنيه الإسلام جيلًا بعد جيل، وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض، حيث لم تكن معها عقيدة أخرى"(١).

" فالإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يدي آدم -عليه السلام- أبي البشر الأول ، ثم على يدي نوح -عليه السلام- أبي البشر الثاني ، ثم بعد ذلك على يدي كل رسول"(٢) .

ويقول: " ونوح -عليه السلام- كان أول هؤلاء الرسل بعد آدم -عليه السلام- وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض وممارسته لهذه الحياة، ولعله كان معلمًا لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد .. واتخذوا لهم أصنامًا آلهة ... فأرسل الله إليهم نوحًا يردهم إلى التوحيد ، ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود، والكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس -عليه السلام- سابقًا لنوح، ولكن ما ورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة المسلم ، لشبهة التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب "(٣)، "ولا نملك نحن تحديد زمان إدريس -عليه السلام- ولكن الأرجح أنه سابق على إبراهيم -عليه السلام- وليس من أنبياء بني إسرائيل، فلم يرد ذكره في كتبهم، والقرآن الكريم يصفه بأنه كان صديقًا نبيًا ويسجل له أن الله رفعه مكانًا عليًا ، فأعلى قدره . .

وهناك رأي نذكره لمجرد الاستئناس به ولا نقرره أو ننفيه ، ويقول به بعض الباحثين في الآثار المصرية ، وهو أن إدريس تعريب لكلمة " أوزريس " المصرية القديمة، كما أن يحيى تعريب لكلمة "يوحنا" وكلمة اليسع تعريب لكلمة "إليشع" ، وأنه هو الذي صيغت حوله أساطير كثيرة، فهم يعتقدون أنه صعد إلى السماء وصار له فيها عرش عظيم ، وكل من وزنت أعماله بعد الموت فوجدت حسناته ترجح سيئاته فإنه يلحق " بأوزريس " الذي جعلوه إلهًا لهم، وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده إلى السماء .

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٨٢.
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٣-١٩٤٤.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧١٠.

وعلى أية حال فنحن نكتفي بما جاء عنه في القرآن الكريم، ونرجح أنه سابق على أنبياء بني إسرائيل "[١].

وقد صرح سيد- رحمه الله - في مواضع كثيرة بأن أول موكب الرسل هو نوح -عليه السلام- وان آخرهم محمد - ﷺ - .[٢]

ثانيًا : أولو العزم من الرسل :

الأنبياء - كما سبق- هم صفوة الله من خلقه ، والرسل هم الصفوة من الأنبياء، ونص الكثير من أهل العلم على أن أفضل المرسلين هم : أولوا العزم منهم ، وهم الذين خصوا بالذكر مجتمعين في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾[٣] وفي قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[٤].

وأختص نبينا - ﷺ - عن غيره من الأنبياء والرسل، فنال بذلك التفضيل المطلق على العالمين من الجنة والناس والملائكة المقربين "[٥].

يقول سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ﴾[٦] : " ومناسبة ما سطر في كتاب الله ، وما سبقت به مشيئته ، ليكون هو الناموس الباقي والمنهج المطرد ، يشير إلى ميثاق الله مع النبيين عامة ، والنبي- ﷺ - وأولي العزم من الرسل خاصة ، في حمل أمانة هذا المنهج ، والاستقامة عليه ، وتبليغه للناس ، والقيام عليه في الأمم التي أرسلوا إليها..إنه ميثاق واحد مطرد من لدن نوح -عليه السلام- إلى خاتم النبيين محمد-ﷺ، وقد

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٣١٣، وينظر أيضًا ٤/ ٢٣٩٢.
(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٣/ ١٨٧٠، ١١٤٣ ، ٥/ ٢٨٢٩، ٣١٨٥، ٦/ ٣٧٠٩ .
(٣) سورة الأحزاب : الآية ٧ .
(٤) سورة الشورى: الآية ١٣ .
(٥) ينظر : لوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٤٩- ٥٠ ، ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٥ ، والفرقان لابن تيمية ص ١٠ .
(٦) سورة الأحزاب : الآية ٧ .

عم النص أولًا ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ﴾ ، ثم خصص صاحب القرآن الكريم ، وصاحب الدعوة العامة إلى العالمين ﴿ وَمِنكَ ﴾ ، ثم عاد إلى أولي العزم من الرسل ، وهم أصحاب أكبر الرسالات- قبل الرسالة الأخيرة -﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ﴾[١].

ويقول أيضًا: " وقد كان لإبراهيم - عليه السلام - أكبر قسط في إقرار هذه الكلمة في الأرض -كلمة التوحيد - وإبلاغها إلى الأجيال من بعده ، عن طريق ذريته وعقبه ، ولقد قام بها من بنيه رسل كان منهم ثلاثة من أولي العزم: موسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل- عليهم صلوات الله وسلامه " [٢].

ثالثًا : التفاضل بين الرسل :

لا يمنع اتفاق الأنبياء في الدعوة من كونهم متفاضلين في الدرجات ، فهناك نصوص صريحة في تفضيل بعض الأنبياء على بعض ، وبعض الرسل على بعض .

يقول سيد - رحمه الله - في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[٣] : " فالعلم المطلق لله ... وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق فضل الله بعض النبيين على بعض ، وهو تفضيل يعلم الله أسبابه " [٤].

أما مظاهر التفضيل فقد تحدث عنها سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[٥]. بقوله: " هذه الآية تلخص قصة الرسل والرسالات - كما أنها أفردت جماعة الرسل وميزتها من بين الناس - فهي تقرر أن الله فضل بعض الرسل على بعض ، وتذكر بعض أمارات التفضيل

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٢٩ - ٢٨٣٠ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٣١٨٤ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٥٥ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٤ .
(٥) سورة البقرة : الآية ٢٥٣ .

ومظاهره والتفضيل هنا قد يتعلق :

* بالمحيط المقدر للرسول والذي تشمله دعوته ونشاطه ، كأن يكون رسول قبيلة ، أو رسول أمة ، أو رسول جيل ، أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال .

* كذلك يتعلق بالمزايا التي يوهبها لشخصه أو لأمته .

* كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية .

وقد ذكر النص هنا مثالين في موسى وعيسى - عليهما السلام - وأشار إشارة عامة إلى من سواهما : ﴿ مِنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾، وحين يذكر تكليم الله لأحد من الرسل ينصرف الذهن إلى موسى - عليه السلام - ومن ثم لم يذكره باسمه ، وذكر عيسى بن مريم - عليه السلام - وهكذا يرد اسمه منسوبًا إلى أمه في أغلب المواضع القرآنية ، والحكمة في ذلك - الرد على الأساطير الشائعة حول عيسى - عليه السلام - وبنوته لله - سبحانه - وازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت... وغيرها من الأساطير ... ولم يذكر النص هنا محمدًا - ﷺ - لأن الخطاب موجه إليه ، كما جاء في الآية السابقة في السياق ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ﴾...الخ ، فالسياق سياق إخبار له عن غيره .

وحين ننظر إلى مقامات الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من أية ناحية نجد محمدًا - ﷺ - في القمة العليا ، وسواءً نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها ، أو من ناحية محيطها وامتدادها ، فإن النتيجة لا تتغير" [1]، وسيأتي الحديث عن تفاصيل أفضلية الرسول - ﷺ - قريبا.

هذه ما يتعلق بالتفاضل بين الأنبياء ، أما وجه الجمع بين هذه النصوص ، وبين قوله - ﷺ -: "لا تفاضلوا بين أنبياء الله " [2]، وقوله - ﷺ - " لا تخيروني على موسى

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٢ - ٢٨٣ بتصرف يسير .

(٢) رواه : البخاري في كتاب الأنبياء ٣/ ١٢٥٤ برقم ٣٢٣٣ ، ومسلم : كتاب الفضائل برقم ٢٣٧٣ .

فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشًا بساق العرش، فلا أدري هل آفاق قبلي أو كان ممن استثني"[١]، وقوله ﷺ : " لا يقولن أحدكم أني خير من يونس بن متى " [٢] وفي لفظ " ما ينبغي – لا ينبغي – لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " [٣].

فقد ذكر بعض العلماء خمسة من أجوبة عما ورد من النهي عن التفضيل بين الأنبياء مع ثبوته في الكتاب والسُّنَّة :

الأول : أنه– ﷺ – قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم ، فلما علم أخبر به .

الثاني : أنه قال ذلك أدبًا وتواضعًا .

الثالث : أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص المفضول .

الرابع : أن النهي عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة والفتنة كما هو مشهور في سبب الحديث .

الخامس : أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة ، فلا تفاضل فيها ، وإنما التفاضل بخصائص وفضائل أخرى [٤] .

(١) رواه البخاري : كتاب الخصومات ٤/ ١٤٧٠برقم ٢٤١١ ، ومسلم : كتاب فضائل موسى ٤/ ١٤٧١برقم ٢٣٧٣ .

(٢) رواه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ٣/ ١٢٥٤برقم ٣٢٣١ .

(٣) رواه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣٤١٦ ، ٣٦٣٠ ، ومسلم : كتاب الفضائل باب ذكر موسى برقم ٢٣٧٧ .

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/ ١٠٨-١٠٩ ، وفتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٤٦، ٤٥٢ ، ٥٢٠-٥٢١ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٨- ١٦٤ ، والوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا – المكتب الإسلامي – بيروت – ط٩، ١٣٩٩هـ ص ٢٠٤-٢٠٨.

المطلب السابع

وقفة مع كلام سيد قطب عن موسى ـ عليه السلام ـ

يكثر الكلام حول طعن سيد - رحمه الله- في نبي الله موسى - عليه السلام -، حيث أورد د/ ربيع المدخلي تحت عنوان" أدب سيد مع رسول الله وكليمه موسى -عليه السلام -" [١]، كلامًا لسيد - رحمه الله-في كتابه " التصوير الفني في القرآن الكريم " وعلق عليه بأن سيدًا - رحمه الله- نسى الآيات التي تبين إكرام الله لموسى أو تناساها لينسجم ذلك مع سخريته بهذا النبي الكريم ، والتشنيع والذم والتحقير له [٢].

ولابد من إيضاح بعض القضايا حتى تستبين لنا حقيقة الأمر وذلك من خلال الوقفات الآتية :

الوقفة الأولى : لا شك أن الذي يقرأ ما كتبه سيد - رحمه الله- عن موسى -عليه السلام - في كتابه " التصوير الفني في القرآن الكريم " يرى أن سيدًا - رحمه الله- ، أخطأ في عبارات ولا شك .

ولكن الذين نقلوا كلام سيد - رحمه الله- في التصوير الفني ، وقيموه من خلاله غفلوا أو تغافلوا عن حقائق كان الواجب النظر فيها وهي كما يلي :

١ ـ الحقيقة الأولى :

أن كتاب " التصوير الفني " ألفه سيد عام (١٩٤٥م) في بداية تحوله نحو الإسلام، بعد مرحلة الضياع والانحراف الفكري، وكان ينطلق في هذه المرحلة " الإسلاميات الفنية " من منطلق أدبي نقدي فني، وليس من منطلق ديني في تعامله مع النصوص القرآنية، حيث صرح سيد - نفسه- بذلك في مقدمة كتابه " مشاهد

---

(١) أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب . د/ ربيع المدخلي ص١٩-٢٣، والحد الفاصل ص١٢٣-١٢٥، ونظرات في كتاب التصور الفني ص٢٧-٣٠.

(٢) ينظر كلامه في : أضواء إسلامية ص٢٥، نظرات من كتاب التصوير الفني، هوامش الصفحات ٢٧-٣٠، والحد الفاصل ص١٢٥.

القيامة " وهو الكتاب الثاني في مشروع سيد الذي أعلن عنه بعنوان : "مكتبة القرآن الجديدة " ويعتبر مكملًا لكتاب " التصوير الفني " حيث وضح سيد : أن هدفه من هذا المشروع هدف فني بياني أدبي جمالي، وأنه ينظر في أسلوب القرآن بعين الناقد الأدبي، ويتدبره بحاسته الأدبية النقدية الذوقية، ويختم كلامه بقوله : " وهدفي هنا فني خالص محض، لا أتأثر فيه إلا بحاسة الناقد الفني المستقل، فإذا التقت في النهاية قداسة الفن بقداسة الدين، فتلك نتيجة لم أقصد إليها ولم أتأثر بها "[١]، وفي خاتمة "مشاهد القيامة" يسوق كلامًا قريبًا من هذا يوضح فيه أن بحثه في القرآن في تلك الفترة بحثًا فنيًا محضًا بعيدًا عن قضية العقيدة .[٢]

وعندما نسوق مثل هذا الكلام ليس القصد التبرير لخطأ سيد - رحمه الله- فهو خطأ بلا شك، لكننا نسوقه لنعرف طبيعة المرحلة التي ألف فيها الكتاب الذي جاء فيه هذا الكلام، فهي مرحلة كان كلامه فيها منطلق من الفن والأدب لا من البحث الديني .

٢ـ الحقيقة الثانية :

بما أن كتاب " التصور الفني " كان في بداية تحول سيد - رحمه الله- نحو الدراسات الإسلامية بهدف فني نقدي، وإن له كتبًا أخرى ألفها في مرحلته الإسلامية الأخيرة، فإنه ينشأ سؤال مهم وهو: ما موقف سيد قطب فيما يتعلق بنبي الله موسى -عليه السلام- في كتاباته التي كتبها في مرحلته الإسلامية ؟ .

والجواب : حتى يتبين لنا حقيقة موقف سيد - رحمه الله- النهائي في كتبه الإسلامية نستعرض كلامه حول الفقرات التي ذكرها في التصوير الفني، مع كلامه في الظلال، ونقارن بينهما لنعرف هل هما متفقان ؟ أم مختلفان ؟ وفيما يلي مقارنة بين كلامه في "التصوير الفني " وكلامه في " الظلال "حول ما يتعلق بموسى -عليه السلام- .

أولا : حادثة قتل موسى -عليه السلام- للقبطي :

أ- يقول سيد في " التصور الفني " : " .. لنأخذ موسى إنه نموذج للزعيم المندفع

(١) ينظر: مقدمة مشاهد القيامة ص ٧-١٢ . والتصور الفني ص١٩٣ .
(٢) ينظر: خاتمة " مشاهد القيامة " ص٢٦٦-٢٧٢.

العصبي المزاج، فها هو ذا قد ربى في قصر فرعون، وتحت سمعه وبصره، وأصبح فتىً قويًا ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾[1]، وهنا يبدو الانفعال العصبي واضحًا، وسرعان ما تذهب هذه الدفعة العصبية، فيثوب إلى نفسه شأن العصبيين ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾[2]، وهو تعبير مصور لهيئة معروفة: هيئة المتفزع المتلفت المتوقع للشر في كل حركة، وتلك سمة العصبيين أيضًا ، ومع هذا، ومع أنه قد وعد بأنه لن يكون ظهيرًا للمجرمين، فلننظر ما يصنع، إنه ينظر، ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ﴾ مرة أخرى على رجل آخر ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ ولكنه يهم بالرجل الأخر كما هم بالأمس، وينسيه الاندفاع استغفاره وندمه وخوفه وترقبه، لولا أن يذكره من يهم به بفعلته، فيتذكر ويخشى ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾[3]، وحينئذ ينصح له بالرحيل رجل جاء من أقصى المدينة يسعى، فيرحل عنها كما علمنا "[4].

ب - كلام سيد - رحمه الله - حول الحادثة في ظلال القرآن الكريم :

استعرض سيد - رحمه الله - الآيات التي تتحدث عن قصة موسى - عليه السلام - في سورة القصص، وعندما وصل إلى الآيات التي تتحدث عن قتل موسى - عليه السلام - للقبطي، ذكر كلامًا طويلا ننقل هنا موضع الشاهد فقط .

ففي ظلال قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى

(١) سوره القصص : الآية: ١٥.
(٢) سورة القصص : الآية ١٥ - ١٨ .
(٣) سورة القصص : الآية: ١٨-١٩.
(٤) التصور الفني في القرآن، سيد قطب ص١٦٤-١٦٥.

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، يقول سيد : " وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية، والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي، وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين... وسياق الحوادث يلهم أن موسى - عليه السلام - اعتزل القصر ، ولم تسترح نفسه للحياة في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاةً مجتباةً كنفس -موسى عليه السلام- وخاصة وهو يرى كيف يسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع ،... والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يشير بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم .

ولما دخل المدينة وجد رجلين يقتتلان، أحدهما قبطي .. والأخر إسرائيلي .. فاستغاث الإسرائيلي بموسى مستنجدًا، ولعله عرف أن موسى من بني إسرائيل وأنه ناقم على الملك ومنتصر لقومه المضطهدين، ولم يعد متصلًا بالقصر، وهذا هو الأنسب لمن في مقام موسى - عليه السلام - فإنه بعيد الاحتمال أن تطيق نفسه البقاء في مستنقع الشر والفساد .

فوكز موسى -عليه السلام - القبطي وكزة واحدة فقتله، مما يشير بقوة موسى وفتوته، ويصور كذلك انفعاله وغضبه، ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به .

ويبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي ، ولم يعمد لأنه ندم على فعلته، وعزاها للشيطان وغوايته، فقد كانت من الغضب ، والغضب شيطان ، أو نفخ من الشيطان ...

ثم يستطرد في فزع مما دفعه إليه الغضب ، ويعترف بظلمه لنفسه.. ويتوجه إلى ربه ، طالبًا مغفرته وعفوه ..واستجاب الله إلى ضراعته ، وحساسيته ، واستغفاره، ...وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف وحسه المتوفز في حرارة توجهه إلى ربه ، أن ربه غفر له، والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء فور الدعاء ..وعند ذلك يقطع على نفسه عهدًا ، ألا يقف في صف المجرمين ظهيرًا ومعينًا، وهي براءة من الجريمة وأهلها في كل صورة من صورها، حتى ولو كانت اندفاعًا تحت تأثير

(١) سورة القصص : الآية ١٤.

الغيظ ، ومرارة الظلم والبغي، وهذه الإرتعاشة العنيفة ، وقبلها الاندفاع العنيف، تصور لنا شخصية موسى - عليه السلام - شخصية انفعالية ، حارة الوجدان ، قوية الاندفاع، وهي سمة بارزة فيه تظهر في مواضع أخرى كثيرة ...

ومر يوم وأصبح في المدينة خائفًا من انكشاف أمره ، يترقب الافتضاح والأذى، ولفظ " يترقب" يصور هيئة القلق الذي يتلفت ويتوجس ، ويتوقع الشر في كل لحظة .. . وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك، والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ،...

وإذا بصاحبه الإسرائيلي مشتبك مع قبطي آخر، وهو يستصرخ موسى لينصره، كما فعل بالأمس، ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخايل لموسى .. وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه، ثم توجسه من الأذى المتوقع، فإذا هو ينفعل على هذا الذي يستصرخه ، ويصفه بالغواية والضلال ...فاشتباكاته لا تثمر في هذا الوقت إلا الضرر لبني إسرائيل .

وانفعلت نفسه بالغيظ من القبطي ، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس، ولهذا الاندفاع دلالته على تلك السمة الانفعالية التي أشرنا إليها، ولكن له دلالته من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى - عليه السلام - بالغيظ من الظلم ، والنقمة على البغي ، والضيق بالأذى الواقع على بني إسرائيل، والتوفز لرد العدوان الطاغي ، الطويل الأمد ، الذي يحتفر في القلب البشري مسارب من الغيظ وأخاديد ...

ولقد طال الظلم ببني إسرائيل ، فضاقت به نفس موسى -عليه السلام -حتى رأيناه يندفع في المرة الأولى ويندم ، ثم يندفع في المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله ، ولذلك لم يتخل الله عنه ، فالله يعلم أن للطاقة البشرية حدًا للاحتمال، فلم يهول في وصف الفعلة التي فعلها موسى ، كما أنه لا يبررها، ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية، وهو المختار ليكون رسول الله ، المصنوع على عين الله، أو لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان، والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاها .. كما كف الله المسلمين في مكة عن

الاشتباك حتى جاء الأوان ... وبعد أن نصحه الرجل المؤمن بالخروج ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية، التوفز والتلفت، ونلمح معها التوجه المباشر بالطلب إلى الله والتطلع إلى حمايته ورعايته، والالتجاء إلى حماه في المخافة، وترقب الأمن .

وانتهى به السفر إلى ماء مدين .. وإذا به يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة ، السليمة الفطرة ، كنفس موسى - عليه السلام - رجال يسقون دون النساء، فتقدم وسأل المرأتين فأطلعتاه على السبب، فثارت نخوة موسى - عليه السلام - وفطرته السليمة فسقى لهما ، مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله وبقوته أيضًا، ولعلها قوة نفسية، فإنها يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [(١)]، ونسمع من خلال التعبير رفرفة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن ، والركن الركين، والظل الظليل" [(٢)].

* وفي ظلال قوله تعالى لموسى ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾[(٣)]، يقول -سيد - : " وذلك حين كبر وشب في قصر فرعون ، ثم نزل المدينة يومًا فوجد فيها رجلين يقتتلان أحدهما إسرائيلي والآخر مصري ، فاستغاثه الإسرائيلي فوكز المصري بيده فخر صريعًا، ولم يكن ينوي قتله إنها كان ينوي دفعه، فامتلأت نفسه بالغم على هذه الفعلة وهو المصنوع على عين الله منذ نشأته، وتحرج ضميره وتأثم من اندفاعه . . فربه يذكره هنا بنعمته عليه " [(٤)].

ثانيًا : موقف النداء في الصحراء والتكليف بالنبوة :

أ- كلام - سيد- في "التصوير الفني" يقول : " فلندعه هنا لنلتقي به في فترة ثانية من حياته بعد عشر سنوات، فلعله قد هدأ وصار رجلًا هادئ الطبع حليم النفس، كلا ! فها هو ينادى من جانب الطور الأيمن، أن ألقِ عصاك، فألقاها فإذا هي حية

---

(١) سورة القصص : الآية ٢٤.
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٨١-٢٦٨٦ بتصرف .
(٣) سورة طه : الآية ٤٠.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٥ .

تسعى، وما يكاد يراها حتى يثب جريًا ولا يعقب ولا يلوي، إنه الفتى العصبي نفسه ولو أنه قد صار رجلًا، فغيره كان يخاف نعم، ولكن لعله كان يبتعد منها، ويقف ليتأمل هذه العجيبة " (١).

ب- كلام سيد - رحمه الله- في الظلال : تحدث سيد قبل ذكر الحادثة عن تدبير الله لموسى - عليه السلام - وعنايته به رضيعًا، وطفلًا، وفي القصر، وبعد قتله القبطي، وفي خروجه من مصر إلى مدين، وفي عمله عند الشيخ وزواجه، وكل ذلك إعدادًا له لتحمل تكاليف المهمة المنتدب لها، فلما استكملت نفس موسى - عليه السلام - تجاربها قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدةً به إلى مسقط رأسه .

وهكذا ندرك كيف صنع موسى على عين الله،وكيف أعدته القدرة لتلقي التكليف، فلنتبع خطى موسى تنقلها يد القدرة الكبرى ، في طريقه إلى هذا التكليف، في طريقه، وهو يبحث لأهله عن جذوة من نار يصطلون بها، إذا به يتلقى النداء المباشر من الله، .. ووقف موسى في أكرم موقف يلقاه إنسان﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾(٢) ،.. وألقى موسى عصاه إطاعة لأمر مولاه، ولكن ماذا ؟ إنها لم تعد عصاه التي صاحبها طويلًا ، ويعرفها يقينًا، إنها حية تدب في سرعة، وتتحرك في خفة ، وتتلوى كصغار الحيات وهي حية كبرى ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾، " إنها المفاجأة التي لم يستعد لها ، مع الطبيعة الانفعالية ، التي تأخذها الوهلة الأولى ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ ولم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها، وليتأمل هذه العجيبة الضخمة ، وهذه هي سمة الانفعاليين البارزة تتجلى في موعدها، ثم يستمع إلى ربه الأعلى﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴾، وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه ، ومن ترعاه عين الله؟ .

إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعًا على هذه النفس ، ويتعاورانها في جميع مراحل حياتها، إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى نهايتها، وإن هذا الانفعال الدائم المقصود في

---

(١) التصور الفني في القرآن : ص١٦٥ .
(٢) سورة القصص : الآية ٣٠-٣١.

تلك النفس ، مقدر في هذه الحياة، لأنه الصفحة المقابلة لتبلد بني إسرائيل ، ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل، وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق "[١].

* وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾[٢]، يقول سيد : " والظاهر من حكاية قوله -عليه السلام- أن خوفه ليس من مجرد التكذيب ، ولكن من حصوله في وقت يضيق فيه صدره ولا ينطلق لسانه فلا يملك أن يبين، وأن يناقش هذا التكذيب ويفنده إذ كانت بلسانه حبسة هي التي قال عنها ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾[٣]،ومن شأن هذه الحبسة أن تنشئ حالة من ضيق الصدر، تنشأ من عدم القدرة على تصريف الانفعال بالكلام، وتزداد كلما زاد الانفعال ، فيزداد الصدر ضيقًا وهكذا، وهي حالة معروفة، فمن هنا خشي موسى أن تقع له وهو في موقف المواجهة بالرسالة لظالم جبار كفرعون، فطلب من ربه إعانته بأخيه هارون ، وإشراكه معه في الرسالة إتقاءً للتقصير في أداء التكليف ، لا نكوصًا ولا اعتذارًا عن التكليف، فهارون أفصح لسانًا ومن ثم هو أهدأ انفعالًا، فإذا أدركت موسى حبسة أو ضيق، نهض هارون بالجدل والمحاجة والبيان فهو الاحتياط للدعوة، حتى لا تبدو ضعيفة قاصرة .. وهذا هو الذي يليق بموسى - عليه السلام - الذي صنعه الله على عينه واصطنعه لنفسه "[٤]

* و في ظلال الآيات التي تتحدث عن الحادثة في سورة طه، يقول سيد - رحمه الله-: " إن القلب ليجفُ ، وإن الكيان ليرتجف، وهو يتصور مجرد تصور ذلك المشهد.. موسى فريد في تلك الفلاة، والليل دامس ، والظلام شامل ، والصمت مخيم ، وهو ذاهب يلتمس النار التي آنسها من جانب الطور، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء ...﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ فيا للتكريم ! ياللتكريم أن يكون الله بذاته هو الذي يختار عبدًا من العبيد .. وبعد أن يلخص له ما يوحى في ثلاثة

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٩١-٢٦٩٢ بتصرف .
(٢) سورة الشعراء : الآية : ١٠-١٣.
(٣) سورة طه : الآية : ٢٧-٢٨.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٨٥-٢٥٩٠ بتصرف .

أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة، وهي أسس رسالة الله الواحدة ، .. ولا بد أن يكون موسى قد نسي نفسه ونسي ما جاء من أجله ، ليتبع ذلك الصوت العلوي الذي ناداه، وليسمع التوجيه القدسي الذي يتلقاه، وبينما هو مستغرق فيما هو فيه ، ليس في كيانه ذرة واحدة تتلفت إلى سواه، إذا هو يتلقى سؤالًا لا يحتاج منه إلى جواب ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ فأجاب: ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ فيأتيه الأمر: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ (١).

ووقعت المعجزة الخارقة ... فدهش لها موسى وخاف .. ثم اطمأن والتقط الحية، فإذا هي تعود سيرتها الأولى ! عصا .

ثم تحدث سيد – رحمه الله– عن حوار موسى مع ربه بكلام قريب مما سبق في سورة الشعراء، حول مراحل رعاية الله لموسى – عليه السلام – من ولادته إلى لحظته، ووقف عند قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ قائلًا: " وما من شرح يمكن أن يضيف شيئًا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ وكيف يصف لسان بشري خلقًا يصنع على عين الله ؟ إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويتملاه، إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية، فكيف بمن يصنع صنعًا على عين الله ؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ خالصًا مستخلصًا ممحصًا لي ولرسالتي ودعوتي، وليس بك شيء من هذه الدنيا ولا لهذه الدنيا، إنما أنت للمهمة التي صنعتك على عيني لها، واصطنعتك لتؤديها" (٢).

ثالثًا :موقف مواعدة الله لموسى ـ عليه السلام ـ وعبادة قومه للعجل في غيابه:

أ- كلام –سيد– في التصوير الفني ، يقول عن قصة السحرة : " ثم لندعه فترة أخرى، لنرى ماذا يصنع الزمن في أعصابه، لقد انتصر على السحرة، وقد استخلص

(١) سورة طه : الآية :٢٠-٢١.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٠-٢٣٣٥ بتصرف .

بني إسرائيل، وعبر بهم البحر، ثم ذهب إلى ميعاد ربه على الطور، وإنه لنبي، ولكن ها هو ذا يسأل ربه سؤالا عجيبا) قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي (ثم حدث ما لا تحتمله أية أعصاب إنسانية ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] عودة العصبي في سرعة واندفاع!

ثم ها هو ذا يعود، فيجد قومه قد اتخذوا لهم عجلًا إلها، وفي يديه الألواح التي أوحاها الله إليه، فما يتريث وما يني ﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ﴾ وإنه ليمضي منفعلًا يشد رأس أخيه ولحيته ولا يسمع له قولًا ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[2]، وحين يعلم أن "السامري" هو الذي فعل الفعلة، يلتفت إليه مغضبًا ويسأله مستنكرًا، حتى إذا علم سر العجل ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾[3]، هكذا في حنق ظاهر وحركة متوترة "[4].

ب- كلامه عن الحادثة في الظلال :

عرض سيد - رحمه الله- وقفات كثيرة في ظلال الآيات التي تتحدث عن هذه الفترة من قصة موسى - عليه السلام - وهي الفترة من انتصاره على السحرة وخروجه ببني إسرائيل من مصر، وحتى عبادة قومه للعجل أثناء غيابه عنهم، وسأحاول تلخيص كلامه والاقتصار على موضع الشاهد منه:

* يقول بعد قصته مع السحرة وتآمر فرعون وملأه: "ويرفع الستار في السياق القرآني على مشهد النبي موسى - عليه السلام - مع قومه ، يحدثهم بقلب النبي ولغته ، ومعرفته بحقيقة ربه، وبسنته وقدره ، ويوصيهم بالصبر والاستعانة بالله و يلوح

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤٣.
(٢) سورة الأعراف :الآية : ١٥٠.
(٣) سورة طه : الآية ٩٧.
(٤) التصوير الفني في القرآن ص١٦٥-١٦٦.

لهم عن رجائه في ربه أن يهلك عدوهم ، ويستخلفهم في الأرض، إنها رؤية " النبي " لحقيقة الألوهية وإشراقها في قلبه، ولحقيقة الواقع الكوني والقوى التي تعمل فيه، ولحقيقة السُّنَّة الإلهية ..ورؤية "النبي" لحقائق الوجود الكبرى ، ويتبرم قومه ويمضي النبي الكريم على نهجه، يذكرهم بالله، ويعلق رجاءهم به، ويلوح لهم بالأمل .. إنه ينظر بقلب النبي فيرى سنة الله ، تجري وفق وعده ، للصابرين ، وللجاحدين"(١) .

ويتحقق وعد الله لموسى - عليه السلام - فيهلك فرعون وجنوده في البحر، ويجاوز ببني إسرائيل، قال سبحانه : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾(٢).

" إنه أمر غريب أن يطلبوا إلى نبيهم رسول رب العالمين أن يتخذ لهم آلهة ! ولو أنهم اتخذوا آلهة لكان الأمر أقل غرابه .

ويغضب موسى - عليه السلام - غضبة رسول رب العالمين ، لرب العالمين - يغضب لربه - سبحانه - ويغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه ! فيقول قولته التي تليق بهذا الطلب العجيب : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾، على إطلاقه دون تحديد لمعنى الجهل، ..ثم ترتفع نغمة الغيرة في كلمات موسى - عليه السلام - على ربه والغضب له - سبحانه - والتعجب من نسيان قومه لنعمة الله عليهم - وهي حاضرة ظاهرة .

ثم يأتي مشهد تهيؤ موسى - عليه السلام - للقاء ربه العظيم، واستعداده للموقف الهائل بين يديه في هذه الحياة الدنيا، ليتلقى عنه، وكانت فترة التهيئة أربعين ليلة، روض فيها موسى نفسه على اللقاء الموعود، وينعزل فيها عن شواغل الأرض ليستغرق في هواتف السماء، ويعتكف فيها عن الخلق ليستغرق فيها في الخالق الجليل، وتصفو روحه وتشف وتستضيء، وتتقوى عزيمته على مواجهة الموقف المرتقب وحمل الرسالة الموعودة.

ثم يأتي المشهد الفذ الذي اختص الله به نبيه موسى - عليه السلام - مشهد الخطاب

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٥-١٣٥٦ بتصرف .
(٢) سورة الأعراف : الآية ١٣٨.

المباشر بين الجليل - سبحانه - وعبد من عباده ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ﴾(١)، " إنها الوهلة المذهلة وموسى يتلقى كلمات ربه، وروحه تتشوف وتستشرف وتشتاق إلى ما يشوق ! فينسى من هو، وينسى ما هو، ويطلب ما لا يكون لبشر في هذه الأرض، وما لا يطيقه بشر في هذه الأرض، يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة الحب ورغبة الشهود . . حتى تنبهه الكلمة الحاسمة الجازمة ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ ثم يترفق به الرب العظيم الجليل، فيعلمه لماذا لن يراه، إنه لا يطيق،﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي ﴾والجبل أمكن وأثبت، ومع تمكنه وثباته أقل تأثرًا واستجابة من الكيان البشري، ومع ذلك فماذا ؟ ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا ﴾ .

فكيف كان هذا التجلي؟ نحن لا نملك أن نصفه، ولا نملك أن ندركه، ولا نملك أن نستشرفه إلا بتلك اللطيفة التي تصلنا بالله، حين تشف أرواحنا وتصفو.. وأدركت موسى رهبة الموقف، وسرت في كيانه البشري الضعيف، ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ ﴾،﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ ﴾ وثاب إلى نفسه، وأدرك مدى طاقته، واستشعر أنه تجاوز المدى في سؤاله ﴿ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾تنزهت وتعاليت عن أن ترى بالأبصار وتدرك ﴿ تُبۡتُ إِلَيۡكَ ﴾ عن تجاوزي للمدى في سؤالك،﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ والرسل دائما هم أول المؤمنين بعظمة ربهم وجلاله، وبما ينزله عليهم من كلماته.

وأدركت موسى رحمة الله مرة أخرى، فإذا هو يتلقى البشرى بالاصطفاء على الناس، في زمانه بالرسالة، واصطفائه وتفرده - عليه السلام - بكلامه سبحانه وتعالى .. وأعطاه الألواح وفيها من كل شيء موعظة وتفصيلًا، وأمره أن يأخذها بقوة وعزم، و يأمر قومه بذلك "(٢) .

وبينما كان موسى - عليه السلام - في حضرة ربه، في ذلك الموقف الفريد، الذي تستشرفه البصائر وتقصر عنه الأبصار، وتدركه الأرواح وتحار فيه الأفكار، كان قومه من بعده يرتكسون وينتكسون، ويتخذون لهم عجلا جسدًا له خوار يعبدونه

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤٣.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٦٥-١٣٧٠ بتصرف.

من دون الله !... كل ذلك وموسى - عليه السلام - بين يدي ربه، في مناجاة وكلام، لا يدري ما أحدثوا بعده إلا أن ينبئه ربه " [١] " وينبئه ربه بما كان خلفه ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [٢]، و عاد موسى غضبان أسفًا يوبخ قومه، ويؤنب أخاه، عاد ليجدهم عاكفين على عجل من ذهب، فراح يسألهم في حزن وغضب ويعتذرون بعذر عجيب يكشف عن نفسياتهم وما فيها من بلادة وتفاهة، وخلل في التفكير، .. فالتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب، يأخذ بشعر رأسه ولحيته في انفعال وثورة " [٣] .

" وحق لموسى عليه السلام أن يغضب فالمفاجأة قاسية، والنقلة بعيدة، وهي حركة تدل على شدة الانفعال، فهذه الألواح هي التي كانت تحمل كلمات ربه، وهو لا يلقيها إلا وقد أفقده الغضب زمام نفسه، وكذلك أخذه برأس أخيه يجره إليه، وأخوه هو هارون العبد الصالح الطيب"[٤].

"فأما هارون فيستجيش في نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليسكن من غضبه ، ويكشف له عن طبيعة موقفه " [٥] فتهدأ ثائرة موسى - عليه السلام - أمام هذا البيان، ويتجه بغضبه وانفعاله إلى السامري صاحب الفتنة.. يسأله عن السبب، ويسمع جوابه وتملصه، فيعلن موسى -عليه السلام- طرده من جماعة بني إسرائيل، ويواجهه بعنف في أمر إلهه الذي صنعه بيده، ليرى قومه بالدليل المادي أنه ليس إلها ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [٦]، ..وفي حنق وعنف أمر أن يُهوى على عجل الذهب، فيُحرق ويُنسف ويُلقى في الماء، والعنف إحدى سمات موسى - عليه السلام - وهو هنا غضبه لله ولدين الله، حيث يستحب

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٣-١٣٧٤ بتصرف .
(٢) سورة طه " الآية ٨٥.
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٦-٢٣٤٨ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٣٧٤ بتصرف .
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٣٧٤ ، ٤/ ٢٣٤٨ بتصرف .
(٦) سورة طه : الآية ٩٧.

العنف وتحسن الشدة "[١] .

رابعًا :قصته ـ عليه السلام ـ مع العبد الصالح :

أ- كلام سيد - رحمه الله- في " التصوير الفني، " يقول: " فلندعه سنوات أخرى ، لقد ذهب قومه في التيه، ونحسبه قد صار كهلا حينما افترق عنهم، ولقي الرجل الذي طلب إليه أن يصحبه ليعلمه مما آتاه الله علمًا، ونحن نعلم أنه لم يستطع أن يصبر حتى ينبئه بسر ما يصنع مرةً ومرةً ومرةً فافترقا، تلك شخصية موحدة بارزة، ونموذج إنساني واضح في كل مرحلة من مراحل القصة "[٢].

ب- كلام سيد - رحمه الله- في الظلال : يقول : " وهذه الحلقة من سيرة موسى -عليه السلام- إنما ذكرت في موضع واحد من القرآن[٣]، والقرآن الكريم لم يحدد المكان، ولا التاريخ، وهل كانت في مصر ؟ أم بعد خروجه منها ؟ أم في التيه ؟ وكذا لا يذكر القرآن شيئًا عن العبد الصالح، من هو؟ ما اسمه؟ هل هو نبي أو رسول؟ أم عالم؟ أم ولي؟ ... ويلتقي موسى بالعبد الصالح ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[٤]، بهذا الأدب اللائق بنبي ، يستفهم ولا يجزم ، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم .

ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشري الواضح، إنما هو جانب من العلم اللدني بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذي أراده ، ومن ثم لا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبيًا رسولًا، لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلي ، وبالأحكام الظاهرة ، ولا بد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة، وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار ...وينبه الرجل الصالح موسى -عليه السلام- ويعزم على الصبر والطاعة ويستعين بالله، ويذكر له شرط صحبته ألا يسأله حتى يحدثه، ويرضى موسى . . ويقفا في المشهد الأول ، يخرق الرجل السفينة، - وهو عمل في ظاهره شر- وينسى موسى ما قاله وما قال له صاحبه أمام

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٤٨-٢٣٤٩ بتصرف، وينظر ٣/ ١٣٧٤-١٣٧٦.
(٢) التصوير الفني في القرآن : ص١٦٦.
(٣) سورة الكهف : الآية ٦٠-٨٢.
(٤) سورة الكهف : الآية ٦٦.

هذا التصرف العجيب الذي لا مبرر له في نظر المنطق العقلي، فالإنسان قد يتصور المعنى الكلي المجرد، ولكنه يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى، ولذا فموسى يندفع مستنكرًا .

نعم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية ، كما يظهر من تصرفاته في كل أدوار حياته، منذ أن وكز الرجل المصري الذي رآه يقتتل مع الإسرائيلي فقتله، ثم أناب إلى ربه مستغفرًا معتذرًا حتى إذا كان اليوم الثاني ورأى الإسرائيلي يقتتل مع مصري آخر ، هم بالآخر مرة أخرى.

نعم إن طبيعة موسى هي هذه الطبيعة، ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ولم يستطع الوفاء بوعده الذي قطعه أمام غرابتها، ولكن الطبيعة البشرية كلها تلتقي في أنها تجد للتجربة العملية وقعًا وطعمًا غير التصور النظري، ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذاقتها وجربتها .

وبعد استنكاره يذكره العبد الصالح في صبر ولطف بما كان قد قاله منذ البداية .. ويعتذر موسى بنسيانه .. ويقبل الرجل اعتذاره .

ويأتي المشهد الثاني : قتل نفس عمدًا، وهي فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده ، ..فليس ناسيًا في هذه المرة ولا غافلًا، ولكنه قاصد أن ينكر هذا النكر الذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأول له أسبابا ..

ويرده العبد الصالح إلى شرطه الأول ووعده، ويرجع موسى فيقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصة .

ويأتي المشهد الثالث : أهل قرية بخلاء، والرجل الصالح يقيم لهم جدارًا خوفًا من أن يسقط، فيشعر موسى بالتناقض في الموقف، ويسأل، وكانت هي الفاصلة، ولم يعد له بعدها من عذر ، وينتهي السياق ببيان حقيقة الأمر في المواقف الثلاثة، وما فيها من مفاجآت وعجائب .[1]

هذه النقولات الطويلة من الظلال التي تعمدت نقلها للمقارنة بينها وبين ما

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٧٨-٢٢٨١ بتصرف .

جاء في " التصوير الفني " تبين لنا بوضوح أن حديث سيد - رحمه الله- عن نبي الله موسى - عليه السلام - اختلف في الظلال عنه في التصوير فكلامه في التصوير جاء مقتضبًا موجزًا تبدو فيه الكلمات القاسية في وصفه لموسى - عليه السلام - .

أما في الظلال فقد استرسل في الحديث عن موسى - عليه السلام - في مراحل حياته، وخاصة المواقف التي أخذت عليه في " التصوير الفني " .

ومع بقاء بعض الألفاظ التي تصف موسى بالاندفاع والغضب وسرعة الانفعال والعصبية في بعض المواقف، إلا أننا نلمس من خلال السياق التي جاءت فيه، أنه لم يكن القصد منها الاستهزاء والسخرية والذم والتحقير لموسى - عليه السلام - كما يقوله البعض، فسيد - رحمه الله- كما لاحظنا من النقولات السابقة يتحدث في كل المواقف المذكورة عن موسى، مادحًا لنفس موسى - عليه السلام - المصطفاة المجتباة التي لا تستروح العيش في الأوضاع الآسنة، ويصفه بأنه أحسن مع الله فأحسن إليه وأن غضبه وانفعاله في حادثة قتل القبطي تدل على غضبه وغيظه من الظلم الذي طال ببني إسرائيل، والتوفز لرد العدوان ، ويكثر سيد من ترديد عبارة " وهو المصنوع على عين الله " ، ويصور غضب موسى - عليه السلام - على قومه في طلبهم آلهة بعد خروجهم من البحر، بأنه غضب لربه وألوهيته التي يجهلها قومه .

أما موقف النداء وطلبه رؤية الله، فإن كلام سيد - رحمه الله- يظهر فيه التعظيم والتبجيل والمدح والثناء لموسى - عليه السلام - وبيان إكرام الله له وتفرده بكلامه ويعلل سؤاله رؤية الله بالشوق والحب لربه - سبحانه وتعالى -.

كما يمدح موسى - عليه السلام - في غضبه على قومه بشأن العجل، ويصور تصرفه مع الألواح ومع هارون ومع السامري بأنه: " غضب لله ولدينه، حيث يستحب العنف وتحسن الشدة في مثل هذه المواقف " .

أما في قصته مع العبد الصالح فيظهر فيها ثناؤه على موسى، ويعلل عدم التزامه بوعده بالإضافة إلى شخصية موسى - عليه السلام - الاندفاعية، بأن الموقف في كل مره يستدعي الإنكار، فنفس موسى لا تطيق وهي المصنوعة على عين الله أن ترى منكرًا أمامها لا مبرر له .

ومما سبق نستطيع أن نخلص إلى الآتي :

أولًا : أن عبارات سيد- رحمه الله- في الحديث عن نبي الله موسى - عليه السلام - اختلفت في الظلال عنها في التصوير الفني مع أنها في المواقف نفسها ، مما يدل على أن كلامه السابق كان في مرحلة لها خصائصها وفي كتب كان لها أهدافها - كما سبق -.

ثانيًا : مع وجود بعض العبارات في نصوص الظلال يصف فيها موسى -عليه السلام - بالانفعال والعصبية والاندفاع والغضب ، إلا أن السياق الذي جاءت فيه هذه الألفاظ يدل على أنها لم تأتِ على سبيل السخرية والذم ، بل السياق يدل على المدح، بالإضافة إلى توضيح سيد - رحمه الله- في أكثر من موضع عند ذكر هذه الألفاظ للسبب وراء هذا الاندفاع والانفعال ، ومن الأسباب التي ذكرها :

١ - أن الله - سبحانه وتعالى - أراد أن تكون شخصية موسى -عليه السلام - شخصية انفعالية حادة في طبيعتها لتكون الصفحة المقابلة لتبلد بني إسرائيل ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل ، وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق "[1].

٢- أن الغضب والاندفاع وسرعة الانفعال من موسى - عليه السلام - في المواقف المختلفة كان غضبًا لله وغيرة على ألوهيته- سبحانه - من تصرفات قومه الجاهلين بربهم ، كما في طلبهم آلهة وفي اتخاذهم العجل في غيبته ، وهي مواقف كما يقول سيد - رحمه الله- " يستحب فيها العنف وتحسن عندها الشدة " [2].

٣- أن نفس موسى - عليه السلام - كانت نفسًا أبيةً ترفض الظلم ، وتندفع في وجه المنكر، كما حدث في قصة قتله للقبطي ، وفي إنكاره على العبد الصالح ما رآه منه من أعمال هي في ظاهرها مخالفات ومنكرات" [3].

ثالثا : مما يدل على تعظيم سيد - رحمه الله- لموسى -عليه السلام - ما جاء عنه في مواضع كثيرة من الظلال وغيره من مدحٍ وثناءٍ على هذا النبي العظيم يمكن أن ننقل عبارات منها:

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦٩٢ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٣٦٩ ، ٤/ ٢٣٤٩ .

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٣٣٥ ، ٥/ ٢٦٨١- ٢٦٨٦ .

* يصفه كثيرًا بأنه رسول كريم ، أجرى الله على يديه خوارق كثيرة " [١].

* يصفه بأنه زعيم ومنقذ ورحمة من الله لبني إسرائيل، من حياة الذل والعبودية [٢] .

* يصفه بالمعلم والمربي المشفق على قومه ، فرغم سفاهتهم وانحرافهم ، فقد تحمل -عليه السلام- الرذالات والانحرافات والنتوءات التي صدرت من قومه ، حرصًا على هدايتهم [٣] .

* يذكر تفضيل موسى -عليه السلام- وانفراده بالتكليم من بين الرسل [٤] .

* يصف موسى -عليه السلام- بأنه كان مخلصًا استخلصه الله له ومحضه لدعوته وكان رسولًا نبيًا [٥]

* يعرض صفحات من أخلاق موسى- عليه السلام- والمتمثلة في قوة إيمانه بربه، وثقته بوعده ، والالتجاء إليه -سبحانه -في كل وقت ، ومفاصلته للعصاة والفاسقين ، ويكرر دائمًا في التعقيب على كثير من المواقف بان هذا " أدب النبي ، الذي يليق بمن صنع على عين الله واستخلصه الله لنفسه " [٦].

* كثيرا ما يعقب على بعض مواقف موسى- عليه السلام- بقوله: " كيف وهو الذي صنع على عين الله " ويقف في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾[٧]، قائلًا: " وما من شرح يمكن أن يضيف شيئًا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق الذي يلقيه التعبير القرآني العجيب ... وكيف يصف لسان بشري ، خلقًا يصنع على عين الله ؟ إن قصارى أي بشري أن يتأمله ويتملاه .. إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية، فكيف بمن يصنع صنعًا على عين الله ؟ إنه بسبب من هذا أطاق موسى أن يتلقى ذلك العنصر العلوي الذي تلقاه " [٨].

(١) المصدر السابق ١/ ٧٢- ٧٣ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٧٧ ، ٢/ ٨٦٧ ، ٣/ ١٣٣٢، ١٣٦٥ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٧٨ ، ٢/ ٨٦٩، ٨٧١ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٢٨٢ ، ٣/ ١٣٦٨، ١٣٧٠ ، ٤/ ٢٣١٣ .
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٣١٣ .
(٦) في ظلال القرآن ٢/ ٧٨١، ٣/ ١٣٥٥ ، ٤/ ٢٣٣٢ .
(٧) سورة طه : الآية ٤١ .
(٨) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٣٥ ، وينظر أيضًا ٤/ ٢٣٣٤ .

المبحث الثاني

نبوة نبينا محمد ﷺ وما يتعلق بها

تقدم معنا أن الإيمان بجميع الأنبياء أصل من أصول الإيمان التي لا يكون العبد مؤمنًا حتى يؤمن بها جميعًا، وأن الإيمان بهم إجمالًا فيما أجمل، وتفصيلًا فيما فصل، ويخص نبينا محمد - ﷺ - بوجوب الإيمان به على التفصيل، لما له - فداه أبي وأمي - من فضائل وخصائص ميزه الله بها عمن سواه من الأنبياء والمرسلين فضلًا عن سائر البشر، ويرشد إلى هذا المعنى ما ورد في دعائه - ﷺ - في صلاة التهجد وفيه: " .. ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق "[1] .

فقد ذكر ﷺ النبيين، وذكر نفسه بعد ذلك خاصة، ويدل ذلك على أنه ﷺ فاقهم بأوصاف مختلفة [2].

لذا كان من المناسب أن يفرد خاتم النبيين وأفضلهم على الإطلاق ﷺ بمبحث مستقل، وذلك في المطالب الآتية :

المطلب الأول: حاجة العلم إلى بعثته ﷺ وآثارها في البشرية .

المطلب الثاني : أدلة نبوته ﷺ .

المطلب الثالث : خصائصه ﷺ .

---

(١) رواه : البخاري في التهجد ١/ ٣٧٧ برقم ١٠٦٩ ومسلم في صلاة المسافرين ١/ ٤٤٨ برقم ٧٦٩ .
(٢) فتح الباري : ٣/ ٤ .

المطلب الأول

حاجة العالم لبعثة خاتم المرسلين - ﷺ - وآثارها في البشرية

الفرع الأول: حاجة العالم لبعثة خاتم المرسلين محمد - ﷺ -:

في ظلال قوله تعالى ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾[1]، يقول سيد - رحمه الله - : " لقد كانت الأرض في حاجه إلى رسالة جديدة، كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة، ومنهج جديد، وحركة جديدة، وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعًا سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة، وإلا على يد رسول هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ مطهرة من الشرك والكفر ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ والكتاب يطلق على الموضوع، كما يقال كتاب الطهارة، وكتاب الصلاة، وكتاب القدر، وكتاب القيامة، وهذه الصحف المطهرة - وهي هذا القرآن - فيها كتب قيمة، أي موضوعات وحقائق قيمة .

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها، وجاء هذا الرسول في وقته، وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثًا لا تصلح الأرض إلا به، فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة والى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذي كتبه الرجل المسلم " السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي " بعنوان : " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" وهو أوضح وأخصر ما قرأته في موضوعه :

(١) سورة البينة: الآية ١-٣.

يقول: " وكان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي ، وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح، وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن، والمصابيح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب، فضلًا عن البيوت، فضلًا عن البلاد ، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فرارًا بدينهم من الفتن، وضنًا بأنفسهم، أو رغبة إلى الدعة والسكون، وفرارًا من تكاليف الحياة وحدها، أو فشلًا في كفاح الدين والسياسة، والروح والمادة، ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم، وأكل أموال الناس بالباطل ...

" وأصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المجرمين والمنافقين، حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة، والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام، وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة، وأفلست في معنوياتها، ونضب معين حياتها، لا تملك مشروعًا صافيًا من الدين السماوي، ولا نظامًا ثابتًا من الحكم البشري" (١).

" هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حال البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية، وقد أشار القرآن إلى مظاهر هذا الكفر الذي شمل أهل الكتاب في مواضع شتى :

* من ذلك قوله تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾(٢)، وقوله تعالى عن اليهود ﴿ وَقَالَتِ

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للندوي

(٢) سورة التوبة : الآية ٣٠.

﴿ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[١] وقوله تعالى عن النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[٢] و﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[٣] وقوله تعالى عن المشركين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[٤]، وكان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض .." وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة، ولا حكومة قدسية على أساس العدل والرحمة، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء "[٥].

ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفًا مطهرة فيها كتب قيمة، وما كان الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين "[٦].

ويتحدث سيد - رحمه الله- في مواضع كثيرة عن حالة العالم عمومًا والعرب خصوصًا قبل بعثة النبي - ﷺ - مصورًا رجس الجاهلية ، وأهمية بعثة الرسول -ﷺ - لتطهير العالم من هذا الرجس.

فيذكر كلام جعفر بين أبي طالب[٧] - رضي الله عنه - للنجاشي[٨] - وهو يصف حالهم

(١) سورة المائدة : الآية ٦٤.
(٢) سورة المائدة : الآية ٧٢.
(٣) سورة المائدة : الآية ٧٣.
(٤) سورة الكافرون : الآية ١-٦.
(٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للندوي .
(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٤٨- ٣٩٥٠ .
(٧) هو : جعفر بن أبي طالب ، بن عم الرسول ﷺ ،أسلم قديمًا وهاجر إلى الحبشة ،وقدم عام خيبر واستشهد في غزوة مؤتة ، انظر : سير أعلام النبلاء ١/ ٢٠٦.
(٨) هو : ملك الحبشة اصحمه بن أبجر ، اسلم في عهد النبي ﷺ وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه ، توفي قبل فتح مكة وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب ، انظر : الإصابة لابن حجر ١/ ١١٧ وسير أعلام النبلاء ١/ ٤٢٨.

في الجاهلية: أيها الملك ، كنا قومًا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ونسيُ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف "[١].

ويستعرض -سيد- أيضًا رجس الجاهلية في باب العلاقات الجنسية ، ويورد حديث عائشة -رضي الله عنها- وهي تصور أنواع الاتصال بين الجنسين في الجاهلية [٢] ، والذي يظهر الصورة الهابطة الحيوانية المزرية التي تدل على هبوط التصور الإنساني وبهيميته ، وهي لا تحتاج إلى تعليق، ويكفي تصور الرجل وهو يرسل امرأته إلى "فلان " لتأتي له منه بولدٍ نجيب، تمامًا كما يرسل ناقته أو فرسه أو بهيمته إلى الفحل النجيب ...ويكفي تصور الرجال - ما دون العشرة ! - يدخلون إلى المرأة مجتمعين- " كلهم يصيبها ! ".. ثم تختار هي أحدهم لتلحق به ولدها! .

أما البغاء - وهو الصورة الرابعة - فهو البغاء ! يزيد عليه إلحاق نتاجه برجل من البغاة ! وليس في ذلك معرة ! إنه الوحل الذي كانوا غارقين فيه إلى الأذان .

ولم يكن هذا الوحل في العلاقات الجنسية إلا طرفًا من النظرة الهابطة إلى المرأة في الجاهلية، والمتمثلة في : أكل حقوقها ، وحرمانها من الميراث ، وعضلها بعد الطلاق أو وفاة الزوج ، والتعامل معها كالمتاع الذي يورث ، وتحريم بعض المأكولات عليها ، والزواج بغير عدد محدد ووأد البنات أحياء وغيرها ...

واستعرض- سيد- أيضًا أصل الرجس في الجاهلية وهو الشرك والوثنية الهابطة الساذجة في اتخاذ الأصنام ، على مختلف المستويات ، الفرد والبيت والقبيلة والمدينة، وعبادة الجن والملائكة والكواكب واعتقاد أن الملائكة بنات الله ، واتخاذ الشفعاء والوسطاء وغير ذلك من الرجس الذي كان منتشرًا في أوساط الجاهلية .

كما استعرض كذلك ما كان عليه الجاهليون من إراقة الدماء وكثرة الحروب لأسباب تافهة ، وفراغ حياتهم من الاهتمامات الكبيرة التي تشغلهم عن السفاسف "[٣].

---

(١) الحديث : رواه أحمد ١/ ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٥/ ٢٩٠ ، وبن هشام في السيرة ٢/ ٢٠٦ وما بعدها وصححه الألباني في صحيح السيرة النبوية - المكتبة الإسلامية عمان ط ١ عام ١٤٢١ هـ ص ١٦٤ وما بعدها .

(٢) رواه : البخاري في كتاب النكاح باب لا نكاح إلا بولي ٥/ ١٩٧٠ برقم ٤٨٣٤ .

(٣) ينظر: في ظلال القرآن ١/ ٧٠٥-٥١١ وينظر أيضًا ٣/ ١١٨٣ ، ٦/ ٣٩٩٠ .

وأما وضع أهل الكتاب فكان أكثر انحرافًا وضلالًا [١].

الفرع الثاني : أثر بعثه ﷺ على البشرية :

أما أثر بعثته ﷺ فتبدو واضحة في تطهير البشرية وتنقيتها ، فالله- سبحانه - بعث محمدًا - ﷺ - " ليطهر الناس ويرفعهم وينقيهم، يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم، ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم ، يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته، ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم" [٢].

" أما العرب فقد جاءهم هذا القرآن والدنيا لا تحس بهم ، وإن أحست اعتبرتهم على هامش الحياة، وهو الذي جعل لهم دورهم الأكبر في تاريخ هذه البشرية، وهو الذي واجهوا به الدنيا فعرفتهم ودانت لهم طوال الفترة التي استمسكوا فيها بالدين ، فلما أن تخلوا عنه أنكرتهم الأرض ، واستصغرتهم الدنيا، وقذفت بهم في ذيل القافلة هناك ، بعد أن كانوا قادة الموكب المرموقين " [٣].

" أما آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشرية كلها فقد بدأت منذ اللحظة الأولى، بدأت في تحويل خط التاريخ ، منذ أن بدأت في تحويل خط الضمير الإنساني ، منذ أن تحددت الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه، إنها ليست الأرض وليس الهوى ، إنما هي السماء والوحي الإلهي .... ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة - الإسلام- في كنف الله ورعايته ، يحسون يد الله تنقل خطاهم في الطريق ،...

ولقد ظلت آثار هذه الفترة تعمل في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٧٩ ، ١٦٣٤- ١٦٤٢ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٥٠٧ .

(٣) المصدر السابق ٥/ ٣١٩١ بتصرف يسير ، وينظر ٢/ ٦٨٥ - ٦٨٦ .

لقد ولد الإنسان من جديد .... لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط ، وكما لم يتحول من بعد أيضًا ، وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق، وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان ولا الأحداث، وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة، ولم يجيء بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعًا ، مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية، ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض! وتبينت خطوطه ومعالمه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[1] ، إنه الحادث الفذ في تلك اللحظة الفريدة، الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد، والذي كان فرقانًا في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل "[2].

(١) سورة الأنفال : الآية ٤٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٧ - ٣٩٣٨ بتصرف ، وينظر أيضًا ١/ ١٣٧- ١٣٩ .

المطلب الثاني

أدلة نبوة نبينا محمد ﷺ

أشار سيد - رحمه الله- في معرض حديثه عن نبوة نبينا محمد - ﷺ - في مواضع متفرقة إلى بعض أدلة نبوته - ﷺ - ، وقد سبق الإشارة إلى أدلة نبوة الأنبياء عمومًا في المبحث السابق ، وسنفرد هنا الأدلة الخاصة بنبوة محمد - ﷺ - وهي :

أولًا : البشارات في الكتب السابقة :

ذكر القرآن الكريم في مواضع عديدة أن الكتب القديمة فيها بشارات نبوة نبينا- ﷺ - ، وأنه ذكر باسمه وبصفاته ومن ذلك :

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[1] .

يقول سيد - رحمه الله-: " فقد وردت صفة الرسول الذي ينزل عليه القرآن ، كما وردت أصول العقيدة التي جاء بها في كتب الأولين ، ومن ثم كان علماء بني إسرائيل يتوقعون هذه الرسالة ، وينتظرون هذا الرسول ، ويحسون أن زمانه قد أظلهم، ويحدث بعضهم بعضًا بهذا كما ورد على لسان سلمان الفارسي [2] ، ولسان عبد الله بن سلام [3] - رضي الله عنهما - والأخبار في هذا ثابتة كذلك بيقين "[4].

٢- قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٩٦- ١٩٧ .

(٢) هو : سلمان أبن الإسلام ، أبو عبد الله الفارسي ، صحب رسول الله - ﷺ - وخدمه وحدث عنه عمر طويلًا وولي المدائن وكان متواضعًا مصدق بعطائه توفى في المدائن سنة ٣٦ هـ ، انظر : سير أعلام النبلاء ١/ ٥٠٥ والإصابة ٤/ ٢٢٣ .

(٣) هو : عبد الله بن سلام الإسرائيلي ، أبو يوسف حليف الخزرج قيل اسه الحصين فسماه رسول الله - ﷺ- عبد الله ، مشهور له أحاديث وفضل مات بالمدينة سنة ٤٣هـ انظر التهذيب ١/ ٤٢٢ .

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٧ ، وينظر ١/ ٨٤ .

وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾[1]، يقول سيد - رحمه الله-: " وردت روايات شتى فيما هو المقصود بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾، وفي عائد هذه الضمائر في: "رَبِّه" وفي "يَتْلُوهُ" وفي "مِنْهُ"..وأرجحها كما يبدو لي هو أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ هو رسول الله - ﷺ - وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به وأن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أي ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته وهو هذا القرآن الذي يشهد بذاته أنه وحي من الله لا يقدر عليه بشر﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ ﴾ أي من قبل هذا الشاهد وهو القرآن﴿ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ يشهد كذلك بصدق النبي ﷺ سواء بما تضمنه من البشارة به، أو بموافقة أصله لما جاء به محمد ﷺ من بعده ، ويكون المعنى الكلي للآية : فهذا النبي الذي تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه، حيث يجد في نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه، وحيث يتبعه أو يتبع يقينه هذا شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الرباني، وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله ، هو كتاب موسى الذي جاء إمامًا لقيادة بني إسرائيل ورحمة من الله تنزلت عليهم، وهو يصدق رسول الله ﷺ بما تضمنه من التبشير به ، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الإعتقادية التي يقوم عليها دين الله كله . .

يقول : أفمن كان هذا شأنه يكون موضعًا للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التي تناوئه من شتى فئات المشركين؟ إنه لأمر مستنكر إذن في مواجهة هذه الشواهد "[2].

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[3]، يقول سيد - رحمه الله- : " وإنه لنبأ عظيم ، يشهد بأن بني إسرائيل قد جاءهم الخبر اليقين بالنبي الأمي ، على يدي نبيهم موسى

---

(١) سورة هود : الآية ١٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦٤- ١٨٦٥ بتصرف يسير .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .

ونبيهم عيسى- عليهما السلام - منذ أمد بعيد ، جاءهم الخبر اليقين ببعثه ، وبصفاته، وبمنهج رسالته ، وبخصائص ملته ، وبذلك البلاغ المبكر لبني إسرائيل- على يد نبيهم موسى -عليه السلام - كشف الله -سبحانه- عن مستقبل دينه ، وعن حامل رايته، وعن أتباعه ، وعن مستقر رحمته، فلم يبق عذر لأتباع سائر الديانات السابقة، بعد ذلك البلاغ المبكر بالخبر اليقين : وهذا الخبر اليقين من رب العالمين لموسى -عليه السلام- وهو والسبعون المختارون من قومه في ميقات ربه - يكشف كذلك عن مدى جريمة بني إسرائيل في" استقبالهم لهذا النبي الأمي وللدين الذي جاء به" [١].

٤- قوله تعالى عن عيسى -عليه السلام- ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[٢]، يقول سيد - رحمه الله-: " وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها، فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن .

وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾[٣]، وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة ، التي كانوا يتواصون بكتمها !.

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلهم زمانه ، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية، ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم، فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ، كرهوا هذا وحاربوه " [٤] .

"وقد سئل رسول الله ﷺ عن نفسه فقال : " أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٨ بتصرف يسير .
(٢) سورة الصف : الآية ٦ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٧ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٥٧ .

الشام ". [١]. [٢].

ثانيًا : قرائن أحواله – ﷺ – :

اشرنا فيما سبق عند الحديث عن دلائل نبوة الأنبياء عموما إلى أن أحوالهم – عليهم السلام– من الأمور التي يستدل بها على صدق نبوتهم، ونذكر هنا بعض النصوص الخاصة بنبينا – ﷺ – ومنها :

١– في ظلال قوله تعالى:﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾[٣] يقول سيد –رحمه الله– : "أما الرسول الذي حمله إليكم فهو﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ عرفتموه حق المعرفة عمرًا طويلًا، فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون، وتذهبون في أمره المذاهب، وهو ﴿ صَاحِبُكُمْ ﴾ الذي لا تجهلون، وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين .

ولقد قالوا عن النبي الكريم الذي يعرفونه حق المعرفة ، ويعرفون رجاحة عقله، وصدقه وأمانته وتثبته ..." [٤].

٢– في ظلال الآيات التي تتحدث عن اقتراحات المشركين وطلبهم الآيات من الرسول – ﷺ – يقول سيد – رحمه الله– : " ومن مثل هذه الاقتراحات يتبين التعنت كما تتبين الجهالة، وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله ﷺ الذي يعرفونه جيدًا بالخبرة الطويلة ما يدلهم على صدقة وأمانته وهم كانوا يلقبونه الأمين ، ويودعون لديه أماناتهم حتى وهم معه على أشد الخلاف، وقد هاجر ﷺ وترك ابن عمه عليًا – رضي الله عنه – يرد إلى قريش ودائعهم التي كانت ما تزال عنده، وهم معه على الخلاف الذي يدبرون معه قتله ! وكذلك كان صدقه عندهم مستيقنًا كأمانته، فإنه لما دعاهم أول مرة دعوة جماعية جهرية على الصفا – حين أمره ربه بذلك – وسألهم: إن كانوا يصدقونه لو أنبأهم بنبأ ، أجابوه كلهم بأنه عندهم مصدق" [٥]، فلو كانوا يريدون

(١) رواه : الحاكم ٨/ ٢٢٨ ، والبيهقي في دلائل النبوة ١/ ٢٠ وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٥٤٥ وصحيح السيرة النبوية ص ١٦ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٦٥ وينظر أيضًا : ٤/ ٢٠٦٥ الهامش ٢ .
(٣) سورة التكوير : الآية ٢٢ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٤٢ .
(٥) ينظر : في ظلال القرآن ٥/ ٢٦١٩ .

أن يعلموا صدقه لقد كان لهم في ماضيه برهان، ولقد كانوا يعلمون : إنه لصادق ، وسيأتي في سياق السورة خبر الله الصادق لنبيه أنهم لا يكذبونه ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1] فهي الرغبة في الإنكار والإعراض، وهو العناد والاستكبار عن الحق، وليس أنهم يشكون في صدقه ﷺ "[2] "فالمشركون لم يكونوا يشكون في صدق محمد ﷺ فلقد عرفوه صادقًا أمينًا ، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة في حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة، وحتى الذين كانوا يتزعمون معارضته لم يكونوا يشكون في صدق رسالته، وفي أن هذا القرآن ليس من كلام البشر ، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله .

ومع ذلك - كانوا يرفضون إظهار التصديق ، و الدخول في دينه لا شكًا في صدقه ، ولكن لأن في دعوته خطر على نفوذهم ومكانتهم ،...

وقد أورد سيد - رحمه الله- روايات عديدة من السيرة ، توضح أن المشركين والمعاندين لرسول الله - ﷺ - كانوا على يقين بصدق نبوته ﷺ ، وتحدثهم فيما بينهم بذلك ، واعترافهم بان الذي حملهم على الكفر به هو الحسد والكبر "[3].

" فإذا كان محمد ﷺ كما يعلمون عنه قبل البعثة أنه الصادق الأمين الذي لا يكذب ولا يخون ، فكيف يكذب على الله ، وينسب إليه قولًا لم يقله "[4].

وبقرائن الأحوال أيضًا استدلت خديجة - رضي الله عنها - على صدق نبوته ﷺ بقولها : " والله لا يخزيك الله أبدًا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرئ الضيف ، وتعين على نوائب الحق "[5].

كما يلفت القرآن الكريم أنظار المشركين إلى حياة النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه ، فقد لبث فيهم عمرًا كاملًا من قبل إرساله - أربعين سنة - فلم يحدثهم بشيء من هذا القرآن ، لأنه لم يكن يملكه ، ولم يكن قد أوحي إليه به ، ولو كان في استطاعته

(١) سورة الأنعام : الآية ٣٣ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٤٠ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٧٤ - ١٠٧٧ بتصرف ، وأيضًا ٥/ ٣٠٠٨ - ٣٠٠٩ .
(٤) المصدر السابق ٥/ ٢٥٥١ بتصرف يسير .
(٥) سبق تخريجه ص٨٦٧ ، وانظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٦ .

عمل مثل هذا أو أجزاء منه ، فلماذا تأخر عمرًا كاملًا؟ ألا إنه الوحي"[١].

ثالثا : شهادة الله ـ تعالى – لنبيه ﷺ بالنبوة :

شهادة الله – سبحانه – لنبيه ﷺ بالنبوة دليل شرعي عقلي ،جاء به الشرع وأيده العقل، قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[٢] يقول سيد – رحمه الله–: " فإذا أنكر أهل الكتاب هذه الرسالة الأخيرة ، وهي جارية على سنة الله في إرسال الرسل، مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وهم يعترفون بالرسل قبل محمد – ﷺ– فإذا أنكروا رسالتك – يا محمد – فلا عليك منهم فلينكروا ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

وفي هذه الشهادة من الله.. ثم من ملائكته ومنهم من حملها إلى رسوله..إسقاط لكل ما يقوله أهل الكتاب، فمن هم والله يشهد ؟ والملائكة تشهد ؟ وشهادة الله وحدها فيها الكفاية ؟![٣]. وفي ظلال قوله تعالى:﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[٤] . يقول سيد – رحمه الله–: "ويختتم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة، وقد بدأها بإثبات الرسالة، فيلتقي البدء والختام، ويشهد الله مكتفيًا بشهادته، وهو الذي عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب"[٥].

رابعًا : القرآن الكريم .

يعتبر سيد قطب – رحمه الله– القرآن الكريم أقوى حجة وأظهر برهان على صدق نبوة رسولنا محمد – ﷺ – حيث يذكر في ظلال الآيات التي تتحدث عن طلب المشركين للآيات الدالة على صدق نبوته – ﷺ– غفلة المشركين عن الآية

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧١ بتصرف .
(٢) سورة النساء : الآية ١٦٦ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨١٢بتصرف يسير ، وينظر أيضًا ٢/ ١٠٤٥٦
(٤) سورة الرعد : الآية ٤٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٦٥ .

الخارقة الدالة على صدق نبوته - ﷺ- وهي هذا القرآن . ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[١].

يقول سيد - رحمه الله- : " وهؤلاء العمي الذين لا يرون آيات الله في الكون ، ولا يكفيهم هذا القرآن ، فإذا هم يطلبون آية ... أما القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله، فلا تقلق ولا تطلب خوارق لتؤمن ، وهذا القرآن بين أيديها، هذا القرآن العميق التأثير ، حتى لتكاد تسير به الجبال وتقطع به الأرض ، ويكلم به الموتى لما فيه من سلطان وقوة ودفعة وحيوية ، قال سبحانه : ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا ﴾[٢] أي أن هذا القرآن عجيب فلو كان من شان قرآن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى لكان في هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ما تتم معه هذه الخوارق والمعجزات لكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء " [٣] ، وبالتالي " فإن الذين يطلبون الآيات والخوارق المادية، ويتعنتون في اقتراحاتهم الدالة على طفولتهم العقلية، ويعلقوا إيمانهم بالرسول ﷺ عليها يغفلون عن الخارقة الباقية في القرآن ، وهم يعجزون عن الإتيان بمثله في نظمه ومعناه ومنهجه ، ولكنهم لا يلمسون هذا الإعجاز بحواسهم فيطلبون ما تدركه الحواس" [٤].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ ﴾[٥]، يقول سيد - رحمه الله- : والراجح- كما يبدو لي- هو أن المقصود بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾هو رسول الله - ﷺ - وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به وأن المقصود بقوله تعالى : ﴿ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ ﴾ أي ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته، وهو هذا القرآن، الذي يشهد بذاته أنه وحي من الله لا يقدر عليه بشر ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ ﴾أي من قبل هذا الشاهد وهو القرآن، ﴿ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾

(١) سورة الرعد : الآية ٢٣ .
(٢) سورة الرعد : الآية ٣١ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٥٩، ٢٠٦١ بتصرف .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٥٠ بتصرف يسير .
(٥) سورة هود : الآية ١٧ .

يشهد كذلك بصدق النبي ﷺ"[١]، " فالسياق يذكر أن هذا القرآن الذي يشهد للنبي ﷺ بأنه على بينة من ربه ، وأنه مرسل من عنده "[٢]، واقتراح المشركين برهانًا على أن رسول الله ﷺ مرسل من الله في صور مختلفة كلها تبين مدى التعنت والجهالة، وإلا فقد كان لهم من خلق رسول الله ﷺ الذي يعرفونه ما يدل على صدقة وأمانته ...

ثم لقد كان لهم في القرآن ذاته برهان أصدق من هذه البراهين المادية التي يطلبون، فإن هذا القرآن شاهد بذاته، بتعبيره ثم بمحتوى هذا التعبير على أنه من عند الله وهم كانوا يحسون ذلك ويعرفونه "[٣] فالقران إذا هو المعجزة الخالدة الدالة على نبوة محمد ﷺ، وسيأتي بيان لأنواع الإعجاز في القرآن الكريم عند الحديث عن معجزاته ﷺ إن شاء الله .

خامسًا : معجزاته وآياته ـ ﷺ ـ :

من دلائل صدق نبوته ﷺ والأنبياء قبله كذلك ما يؤيدهم الله به من المعجزات والآيات الخارقة، وقد سبق معنا أن المعجزات والخوارق على نوعين :

حسية مادية : وهي ما يكون من الآيات الكونية ، ومعنوية : كالقران الكريم :

والذي يظهر من خلال جمع كلام سيد - رحمه الله- حول موضوع المعجزات والخوارق أنه يرى أن هناك فرقا بين المعجزة والخارقة، فالمعجزة ما كانت على سبيل التحدي، لإثبات نبوة النبيﷺ بينما الخارقة ما وقع من غير تحدٍ، وإنما لابتلاء الناس وفتنتهم أو كنوع من رحمة الله وعنايته بالنبيﷺ وأصحابه وقت الشدائد ومن هذا المنطلق يرى سيد - رحمه الله- أن معجزة النبي ﷺ التي أيده الله بها وقام بها التحدي هي القرآن الكريم، وهو معجزة تناسب كون الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ رسالة خاتمة للرسالات باقية إلى قيام الساعة، ولم يجعل معجزته في خارقة مادية تنتهي بانتهاء من يشاهدها، وهذا هو الفارق بين معجزته ﷺ ومعجزات الأنبياء قبله .

ويؤيد هذا الرأي بنصوص قرآنية منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦٤ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٨٦٣ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ١٠٤٠ بتصرف يسير .

إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [١] " فالأنبياء كلهم طولب بالآيات والخوارق، وكلهم تمنى لو يأتي الله بخارقة يذعن لها المكذبون، ولكن ما من آية إلا بإذن الله ، في الوقت الذي يريده الله " [٢].

" ومن خلال قصص الأنبياء وخاصة قصة موسى - عليه السلام - والذي كانت آياته وخوارقه المادية أكثر من غيره، يظهر لنا صدق قول الله تعالى وتقريره بان الآيات والخوارق لا تهدي قلبًا لم يتأهل للإيمان " [٣]، " فقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات لتصديق الرسل، وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهي الهلاك بالعذاب ولكن لم يؤمن بهذه الخوارق إلا المستعدة قلوبهم للإيمان، أما الجاحدون فقد كذبوا بها، ومن هنا جاءت الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بهذه الخوارق "[٤]، " والسبب في ذلك أن الأولين الذين جاءتهم الخوارق المادية وكذبوا حق عليهم الهلاك، وأمة محمد - ﷺ - لم يقدر عليها الهلاك، لذلك لم يرسل الله نبيه - ﷺ - بالخوارق المادية " [٥]. " فالله سبحانه لم يشأ أن يجعل مع هذه الرسالة الأخيرة آية قاهرة، لقد جعل آيتها القرآن، منهاج حياة كاملة معجزًا في كل ناحية "[٦]. "لقد شاء الله أن يجعل هذا القرآن هو معجزة هذه الرسالة ولم يشأ أن ينزل آية قاهرة مادية تلوي الأعناق وتخضعها وتضطرها إلى التسليم ، ذلك أن هذه الرسالة الأخيرة رسالة مفتوحة للأمم كلها ، وللأجيال كلها، وليست رسالة مغلقة على أهل زمان أو أهل مكان، فناسب أن تكون معجزتها مفتوحة كذلك للبعيد والقريب، لكل أمة ولكل جيل . والخوارق القاهرة لا تلوي إلا أعناق من يشاهدونها، ثم تبقى بعد ذلك قصة تروى ، لا واقعًا يشهد، فأما القرآن فها هو ذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنًا كتاب مفتوح ومنهج مرسوم ، يستمد منه أهل هذا الزمان ما يقوم حياتهم لو

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٥٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٩٩ .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٣١٩٣ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ .
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٦ بتصرف يسير .
(٦) المصدر السابق ٥/ ٢٥٨٤ .

هدوا إلى اتخاذه إمامهم ويلبي حاجاتهم كاملة، ويقودهم بعدها إلى عالم أفضل ، وأفق أعلى ، ومصير أمثل، وسيجد فيه من بعدنا كثيرًا مما لم نجده نحن، ذلك أنه يعطي كل طالب بقدر حاجته، ويبقى رصيده لا ينفد ، بل يتجدد، ولكن لم يكونوا يفطنون إلى هذه الحكمة الكبرى، فكانوا يعرضون عما يتنزل عليهم من هذا القرآن العظيم حينًا بعد حين "[١] . " فالقرآن معجزة مفتوحة للأجيال ، وليست كالخوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل "[٢] .

وبناءً على ما سبق فإن سيد قطب - رحمه الله- يرى أن القرآن هو معجزة النبي ﷺ الخارقة الباقية المتحدى بها، وأما الآيات والخوارق التي حصلت للنبي ﷺ فإنما كانت إكراما له وأصحابه أو فتنة للناس، ومن هنا يمكن أن نستعرض موقف سيد قطب - رحمه الله- من المعجزات والآيات النبوية فيما يأتي :

١ ـ القرآن الكريم :

يعتبر سيد قطب - رحمه الله- القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الخالدة المطلقة، والتي وقع بها التحدي ولا يزال، وقد سبق بيان أن القرآن من أعظم دلائل نبوة النبي ﷺ، وهنا نتعرض لإعجاز القرآن وأوجه الإعجاز فيه عند سيد قطب - رحمه الله- وذلك كما يلي :

أ- القرآن الكريم معجزة هذا الدين الخالدة :

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾[٣] . يقول سيد - رحمه الله- : "فكل الآيات التي يحتويها هذا الكتاب العظيم المعجز لا تكفيهم، .. وهم يقترحون خارقة كخوارق الرسل في الأمم قبلهم ، غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية، وطبيعة معجزتها، فهي ليست معجزة وقتية تنتهي بمشاهدة جيل ، إنما هي المعجزة الدائمة التي تخاطب القلب والعقل في جيل بعد جيل "[٤].

"لقد كانوا يطلبون آية خارقة ، كالخوارق المادية التي صاحبت الرسالات السابقة،

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٨٥ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٣٧٠ .
(٣) سورة يونس : الآية ٢٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧٢ .

ولا يقنعون بآية القرآن الباقية ، التي تخاطب الإدراك البشري الراشد ، وتعلن عهد الرشد الإنساني ، وتحترم هذا الرشد فتخاطبه هذا الخطاب الراقي، والتي لا تنتهي بانتهاء الجيل الذي يرى الخارقة المادية، بل تظل باقية تواجه الإدراك البشري بإعجازها إلى يوم القيامة .

كانوا يطلبون خارقة ، ولا يفطنون إلى سنة الله في أخذ المكذبين بالدعوة بعد مجيء الخارقة ، وإهلاكهم في الدنيا، ولا يدركون حكمة الله في عدم مجيئهم بهذه الخارقة وهو يعلم أنهم سيجحدون بها بعد وقوعها - كما وقع في الأقوام قبلهم - فيحق عليهم الهلاك ، بينما يريد الله أن يمهلهم ليؤمن منهم من يؤمن " [١]، " ومعجزة القرآن البارزة تكمن في أنه نزل لمواجهة واقع معين في حياة أمة معينة، في فترة من فترات التاريخ محددة، وخاض بهذه الأمة معركة كبرى حولت تاريخها وتاريخ البشرية كلها معها، ولكنه - مع هذا - يعايش ويواجه ويملك أن يوجه الحياة الحاضرة، وكأنما هو يتنزل اللحظة لمواجهة الجماعة المسلمة في شؤونها الجارية، وفي صراعها الراهن مع الجاهلية من حولها، وفي معركتها كذلك في داخل النفس، وفي عالم الضمير، بنفس الحيوية، ونفس الواقعية التي له هناك يومذاك "[٢] .

ب- التحدي بالقرآن الكريم :

وقع التحدي للمشركين بالقرآن الكريم على عدة صور :

الأولى : التحدي بأن يأتوا بمثله :

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾[٤]، حيث يرى سيد - رحمه الله- أن المشركين تلقوا هذا التحدي بالعجز، ووقفوا تجاهه

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٧٩ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٤٨ .
(٣) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .
(٤) سورة الطور : الآية ٣٣-٣٤ .

صاغرين، ولذلك راحوا يطلبون الخوارق المادية هروبًا من التحدي "[١].

الثانية : التحدي بعشر سور من القرآن :

وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٢] " وهي نفس المقولة التي رددوها مرارًا : إن هذا القرآن مفترى، فتحدّهم إذن أن يفتروا عشر سورٍ كسوره ، وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الافتراء " [٣] .

الثالثة : التحدي بسورة واحدة :

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٥] ففي هاتين الآيتين يتحدى الله المكذبين أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن الكريم وليدعوا من يستطيعون جمعهم، وليدعوا من يشهد لهم بهذا – من دون الله – فالله قد شهد لعبده بالصدق في دعواه، وقد ثبت هذا التحدي، وثبت العجز عنه، وما يزال ثابتًا ولن يزال، فقد ظل التحدي قائما في حياة الرسول- ﷺ- وبعدها ، وما يزال قائمًا إلى يومنا هذا، وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها ، وما يزال القرآن يتميز من كل كلام يقوله البشر تميزًا واضحًا وقاطعًا، وسيظل أبدًا تصديقًا لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾[٦]، والتحدي هنا عجيب ، والجزم بعدم إمكانه أعجب ، ولو كان في الطاقة تكذيبه ما توانوا عنه لحظة، وما من شك أن تقرير القرآن الكريم أنهم لن يفعلوا ، وتحقق هذا كما قرره هو بذاته معجزة لا سبيل إلى المماراة فيها، ولقد كان المجال أمامهم مفتوحًا ، فلو أنهم جاءوا

(١) ينظر : في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٥٠، ٦/ ٣٣٩٩ .
(٢) سورة هود : الآية ١٣ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦١ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٢٣ .
(٥) سورة يونس : الآية ٣٨ .
(٦) سورة القرة : الآية ٢٤ .

بما ينقض هذا التقرير القاطع لانهارت حجية القرآن ولكن هذا لم يقع ولن يقع كذلك فالخطاب للناس جميعًا ، ولو أنه كان في مواجهة جيل من أجيال الناس وهذه وحدها كلمة الفصل التاريخية "[١] .

ج- مراحل التحدي ورأي سيد قطب فيها:

ذكر سيد - رحمة الله- :" أن المفسرين القدامى يقولون إن التحدي بالقرآن كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سورٍ ، ثم بسورةٍ واحدةٍ .

بينما ترتيب آيات التحدي في سور القرآن ليس كذلك ، ففي سورة البقرة كان التحدي بسورة ، وكذا في سورة يونس ، وفي سورة هود كان التحدي بعشر سور، وفي سورة الإسراء والطور كان التحدي بالقران كله .

ويرى سيد أن الترتيب الذي قال به المفسرون القدامى ليس عليه دليل ، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدي فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدي فيها بعشر سور .

وحقيقة أن ترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور، فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول ، إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبته، وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود، والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز .

ولقد حاول- السيد رشيد رضا - في تفسير المنار أن يجد لهذا العدد "عشر سور" علة ، فأجهد نفسه طويلًا - رحمة الله عليه - ليقول : إن المقصود بالتحدي هنا هو القصص القرآني ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التي كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرًا، فتحداهم بعشر ، لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظرًا لتفرق القصص وتعدد أساليبه، واحتياج المتحدي إلى عشر سور كالتي ورد فيها ليتمكن من المحاكاة إن كان سيحاكى "[٢].

---

(١) ينظر في ظلال القرآن ١/ ٤٨، ٣/ ١٧٨٤-١٧٨٥ بتصرف .

(٢) تفسير المنار : ١٢/ ٢٩-٣٠ .

ونحسب - والله أعلم - أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد، وأن التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة، فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن، أو ائتوا بسورة، أو بعشر سور، دون ترتيب زمني، لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن ، كله أو بعضه أو سورة منه على السواء ، فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره ، والعجز كان عن النوع لا عن المقدار، وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة ، ولا يلزم ترتيب ، إنما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة ، فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التي لم يذكرها لنا القرآن "[1].

د- أوجه التحدي بالقرآن الكريم :

تحدث سيد - رحمه الله- عن إعجاز القرآن الكريم ، وأوجه هذه الإعجاز في مواطن متفرقة من كتبة وخاصة " التصوير الفني " و" الظلال " أما " التصوير الفني " فكان حديثة مقتصرًا على الإعجاز البياني للقرآن الكريم وما يتفرع عنه ، أما حديثة في "الظلال " فقد تحدث عن أنواع كثيرة من الإعجاز في القرآن الكريم، وفي وقفات مطولة ، يصعب نقلها كلها ، ولذا فسأحاول تلخيص كلامه عن إعجاز القرآن الكريم وأوجه هذه الإعجاز في ما يلي :

١ ـ إعجاز القرآن الكريم إعجاز مطلق وشامل :

يقرر سيد - رحمه الله-في مواضع كثيرة أن إعجاز القرآن الكريم إعجاز مطلق، وأنه دليل على أنه كلام الله تعالى ، وعلى صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ ، فيقول : " إن هذا القرآن الذي لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه ، من أي جانب من الجوانب شاء الناس المعجزة ،في أي زمان وفي أي مكان ، لا يستثنى من ذلك من كان من الناس ومن يكون إلي آخر الزمان"[2].

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦١-١٨٦٢ بتصرف يسير.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٢١ .

ويقول : " إن في هذا القرآن سرًا خاصًا ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئًا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصرًا ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس...هذا العنصر يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود ؟ .

ذلك سر مودع في كل نص قرآني ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء ، ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله :

* في التصور الكامل الصحيح الذي ينشئه في الحس والقلب والعقل، لحقيقة وجود الله – سبحانه – وحقيقة الوجود الكوني و الإنساني .

* وفي الطريقة التي يتبعها القرآن لبناء هذا التصور الكامل الصحيح في الإدراك البشري .

* وفي الشمول والتوازن والتناسق بين توجيهاته كلها ، والاستواء على أفق واحد فيها كلها، مما لا يعهد إطلاقًا في أعمال البشر .

فهذه الظواهر المدركة..وأمثالها..مع ذلك السر الخافي الذي لا سبيل إلى إنكاره، يسبغ على هذا الكتاب سمة الإعجاز المطلق في جميع العصور،وهي مسألة لا يماري فيها إنسان يحترم حسه ، ويحترم نفسه ويحترم الحقيقة التي تطالعه بقوة وعمق ووضوح، حيثما واجه هذا القرآن بقلب سليم" [1] .

" وقد ثبت هذا التحدي، وثبت العجز عنه ، وما يزال ثابتًا ولن يزال، والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان، وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية الإنسانية، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذي جاء به هذا القرآن ،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٩ بتصرف يسير .

يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات في يسر ومرونة..كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد، أو مجموعة العقول في جيل واحد أو في جميع الأجيال، ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الأصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه . .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها . .

والذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم بصر بالأداء الفني، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب، والذين زاولوا التفكير الاجتماعي والقانوني والنفسي، والإنساني بصفة عامة، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعي في هذا الكتاب أيضًا "[1].

" ومن ثم يبقى النص بعد ذلك مفتوحًا للأجيال، وكلما اتسع علم البشر أدركوا شيئًا من معناه الضخم المتجدد على توالي الأجيال، وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول، على توالي الأزمان!"[2].

٢ـ أنواع الإعجاز في القرآن الكريم :

كان حديث سيد - رحمه الله- عن الإعجاز في تفسيره الحروف المقطعة في فواتح السور، وفي تفسيره لآيات التحدي في سورة البقرة ويونس وهود والإسراء والطور، وفي وقفته أمام الآيات التي تبين موضوع القرآن الكريم وسماته وخصائصه الدالة على مصدره .

وكانت أكثر وقفاته في الظلال عن الإعجاز في تفسيره لآية التحدي في سورة يونس، تحدث فيها عن الإعجاز البياني والموضوعي والإعجاز في التأثير والأداء .

وكان سيد - رحمه الله- يريد أن يستدل بإعجاز القرآن الكريم على مصدره الرباني، وأن يتوصل به إلى أن القرآن الكريم كلام الله، فلم يكن حديثه عن

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٨٥ .
(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٦٥٧ .

الإعجاز من أجل الإعجاز أو من أجل عرض أساليب البيان أو فنون البلاغة في القرآن الكريم كما فعل بعض من كتب عن الإعجاز[١].

ومن أنواع الإعجاز التي تحدث عنها سيد قطب - رحمه الله - ما يأتي:

أولًا : الإعجاز البياني :

تحدث سيد - رحمه الله- عن الإعجاز البياني في القرآن الكريم وما يتفرع عنه من إعجاز في الأداء والتعبير والعرض والتأثير والتصوير في مواطن متعددة يمكن إيجازها فيما يلي :

١ - الإعجاز في الأداء والتعبير :

يقول - رحمه الله- : " إن هذا القرآن الذي لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه، من أي جانب من الجوانب شاء الناس المعجزة في أي زمان وفي أي مكان.. لا يستثنى من ذلك من كان من الناس ومن يكون إلى آخر الزمان!

فهذا جانبه التعبيري، ولعله كان بالقياس إلى العرب في جاهليتهم أظهر جوانبه - بالنسبة لما كانوا يحفلون به من الأداء البياني ، ويتفاخرون به في أسواقهم ! - ها هو ذا كان وما يزال إلى اليوم معجزًا لا يتطاول إليه أحد من البشر، تحداهم الله به وما يزال هذا التحدي قائمًا، والذين يزاولون فن التعبير من البشر، ويدركون مدى الطاقة البشرية فيه ، هم أعرف الناس بأن هذا الأداء القرآني معجز..سواء كانوا يؤمنون بهذا الدين عقيدة أو لا يؤمنون.. فالتحدي في هذا الجانب قائم على أسس موضوعية يستوي أمامها المؤمنون والجاحدون..وكما كان كبراء قريش يجدون من هذا القرآن - في جاهليتهم - ما لا قبل لهم بدفعه عن أنفسهم - وهم جاحدون كارهون - كذلك يجد اليوم وغدًا كل جاهلي جاحد كاره ما وجد الجاهليون الأولون ! ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد "[٢].

---

(١) المنهج الحركي في ظلال القرآن ، د/ صلاح الخالدي ص٣٧١ . وينظر :في ظلال القرآن ١/ ٣٨، ٤٩، ٢ / ٨٢١ - ٨٢٢، ١١١٢ - ١١١٣ . .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢١ .

ويقول: " فهذا القرآن الكريم بخصائصه الموضوعية والتعبيرية ، بهذا الكمال في تناسقه ، لا يمكن أن يكون مفترى... والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفني والتناسق فيها ، يدركون أن هذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان....

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ، ولكنه الإعجاز المطلق الذي يلمسه الخبراء في هذا وفي النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها . .

والذين زاولوا فن التعبير، والذين لهم بصر بالأداء الفني ، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز في هذا الجانب "[1].

وقد عرض سيد - رحمه الله- مزايا الأداء القرآني ومنها :

أ- دقة التناسق بين العبارة والمدلول :

يقول سيد :" إن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول وأدق تعبير ، وأجمله وأحياه أيضًا ! مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو، ومع جمال التعبير دقة الدلالة في آنٍ واحد ، بحيث لا يغني لفظ عن لفظ في موضعه ، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال، ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد ، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلًا، لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية في هذا المجال، ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعًا "[2].

ب- تنوع مدلولات النص القرآني :

يقول سيد: " وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى في الأداء القرآني..هي أن النص الواحد يحوي مدلولات متنوعة متناسقة في النص، وكل مدلول منها يستوفي حظه من البيان والوضوح دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات، وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذي يناسبها، بحيث يستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، ويبدو في كل مرة أصيلًا في الموضع الذي استشهد به فيه، وكأنما هو

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٨٥ - ١٧٨٦ بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٧ ، وينظر أيضًا ٦/ ٣٩٦٤ .

مصوغ ابتداءً لهذا المجال ولهذا الموضع ! وهي ظاهرة قرآنية بارزة لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها "[١].

ج- استحضار المشاهد واستحيائها :

يقول سيد : " وللأداء القرآني طابع بارز كذلك في القدرة على استحضار المشاهد، والتعبير المواجه كما لو كان المشهد حاضرًا بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر ، ولا يملك الأداء البشري تقليدها ، لأنه يبدو في هذه الحالة مضطربا غير مستقيم مع أسلوب الكتابة ! وإلا فكيف يمكن للأداء البشري أن يعبر على طريقة الأداء القرآني في مثل هذه المواضع :

* ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيًا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[٢] .

" وإلى هنا هي قصة تحكى، ثم يعقبها مباشرة خطاب موجه في مشهد ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ ثم يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾[٣].

* ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ إلى هنا أمر يوجه ورسول يتلقى ، ثم فجأة نجد الرسول يسأل القوم: ﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ ﴾وإذا به يعود للتلقي في شان هذا الذي سأل عنه قومه – وأجابوه ! ﴿ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴾[٤] وكذلك في الالتفاتات المتكررة في مثل هذه الآيات :

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٨٧ ، وقد أشار سيد إلى أمثلة من ذلك في مقدمة سورة يونس ، انظر ٣/ ١٧٤٥ وما بعدها .

(٢) سورة يونس : الآية ٩٠ .

(٣) سورة يونس : الآية ٩١-٩٢ .

(٤) سورة الأنعام : الآية ١٩ .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾[1]، وأمثالها كثير في القرآن كله، وهو أسلوب متميز تمامًا من الأسلوب البشري، وإلا فمن شاء أن يباري ، فليحاول أن يعبر على هذا النحو ، ثم ليأت بكلام مفهوم مستقيم، فضلًا على أن يكون له هذا الجمال الرائع ، وهذا الإيقاع المؤثر ، وهذا التناسق الكامل ! هذه بعض جوانب الإعجاز في الأداء نلم بها سريعًا "[2].

٢ـ الإعجاز في التصوير:

وهو فرع من فروع الإعجاز البياني في القرآن الكريم ، ويقصد به : طريقة القرآن الكريم المعجز في التعبير عن المعاني المجردة ، والأوصاف المعنوية، والحالات النفسية، والنماذج والحوادث والقصص والمشاهد ، بصورة حية شاخصة متحركة " [3].

وهذه النوع من الإعجاز البياني هو الذي بني عليه -سيد - نظرية التصوير الفني في القرآن الكريم .

وقد عرض نماذج كثيرة من هذا اللون من ألوان الإعجاز البياني في القرآن الكريم تأخذ منها نموذجًا واحد فقط :

في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٨- ١٣٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٧- ١٧٨٨ .
(٣) ينظر : التصوير الفني في القرآن ص ٣٤-٣٥ بتصرف .

يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[١]، يقول - رحمه الله-: " إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط، الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طباق الجو ، من حي وميت ويابس ورطب .

ولكن أين هذا الذي نقوله نحن - بأسلوبنا البشري المعهود - من ذلك النسق القرآني العجيب؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد ، من ذلك التصوير العميق الموحي؟ .

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وعالم الغيب وعالم الشهود ، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح ، ووراء حدود هذا الكون المشهود..وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد، وهو يرتاد - أو يحاول أن يرتاد - أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل، البعيدة الآماد والآفاق والأغوار.. مفاتحها كلها عند الله، لا يعلمها إلا هو.. ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر، المكشوفة كلها لعلم الله، ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض، لا يحصيها عد ، وعين الله على كل ورقة تسقط، هنا وهنا وهناك ، ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله، ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض ، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط..

إنها جولة تدير الرؤوس ، وتذهل العقول، جولة في آماد من الزمان ، وآفاق من المكان ، وأغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول.. جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف، يعيا بتصور آمادها الخيال.. وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات..ألا إنه الإعجاز!. الناطق بمصدر هذا القرآن "[٢]. " ومن ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال..في هذا التعبير القصير.. من ؟ إلا الله ! "[٣].

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١١١-١١١٢ وينظر٢/ ١٧٩٠-١٧٩٢ .

(٣) المصدر السابق ٢/ ١١١٣ وينظر أمثلة أخرى في التصوير الفني في القرآن : ص ٣٦-٦١ ومشاهد القيامة كاملا .

٣ـ الإعجاز الموضوعي :

موضوع القرآن الكريم دليل على أنه من عند الله، والإعجاز الموضوعي فيه شاهد على مصدره، ولم يقف سيد - رحمه الله- عند الإعجاز في الأداء والتصوير بل عرض أيضًا للإعجاز في الموضوع الذي يعرضه السياق القرآني، والقران معجز بأدائه ومعجز بمضمونه [١].

وقد تحدث -سيد- عن الإعجاز الموضوعي في مواضع متعددة من الظلال، كان أشملها وأوفاها حديثه في ظلال آية التحدي في سورة يونس، فبعد أن ذكر جوانب من الإعجاز في الأداء قال : " ويبقى الإعجاز الموضوعي، والطابع الرباني المتميز من الطابع البشري فيه .

إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها، فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة، وقلبها الشاعر مرة، وحسها المتوفز مرة، ولكنه يخاطبها جملة ، ويخاطبها من أقصر طريق، ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها، وينشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها ، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق ، وبهذا الشمول ، وبهذه الدقة وهذا الوضوح ، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضًا! " [٢] .

وقد عرض سيد - رحمه الله- وهو يتحدث عن الإعجاز الموضوعي عدة مزايا لمنهج القرآن الكريم في عرض موضوعاته ، نقلها من كتابه " مقومات التصور الإسلامي " وهي :

أ- انه يعرض الحقيقة - كما هي في عالم الواقع - في الأسلوب الذي يكشف كل زواياها وكل جوانبها وكل ارتباطاتها، وكل مقتضياتها..وهو- مع هذا الشمول- لا يعقد الحقيقة ، ولا يلفها بالضباب! بل يخاطب بها الكينونة البشرية في كل مستوياتها، ولا يملك الأداء البشري هذا، فكل كاتب يخاطب مستوى معينًا، ولا يكاد غيره يفهم عنه ...

---

(١) المنهج الحركي في ظلال القرآن : د/ صلاح الخالدي ص ٣٠٠، وفي ظلال القرآن ٣/ ١٦٤٠، ١٧١٢، ٦/ ٣٤١٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٨ .

ب- أنه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات " العلمية"والتأملات " الفلسفية " والومضات " الفنية " جميعًا، فهو لا يفرد كل جانب من جوانب " الكل" الجميل المتناسق بحديث مستقل كما تصنع أساليب الأداء البشرية، إنما يعرض هذه الجوانب في سياق موصول، يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، وتتصل فيه حقائق الكون والحياة والإنسان بحقيقة الألوهية، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة، وحياة الناس في الأرض بحياة الملأ الأعلى، في أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده ...

ج- أنه يحافظ على إعطاء كل جانب من جوانب الحقيقة- المتماسكة والمتناسقة – في الكل المتناسق مساحته التي تساوي وزنه الحقيقي في ميزان الله – وهو الميزان- ومن الأمثلة على هذا التناسق في عرض حقيقة الألوهية والى جانبها قضية العبودية وما يلحق بها من قضايا الوجود الكوني والإنساني بحيث يبدو التناسق والتوازن، فتنال كل حقيقة منها نصيبها المتناسق مع عالم الواقع، فلا تطغى حقيقة على غيرها ولا تهمل ولا تضيع معالم بعض الحقائق في المشهد الكلي الذي تعرض فيه الحقائق

د- أنه يمتاز بالحيوية الدافقة المؤثرة الموحية – مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم وهي تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعًا وروعة وجمالًا ، لا يتسامى إليها المنهج البشري في العرض ولا في الأسلوب البشري في التعبير، ثم هي في الوقت ذاته تعرض في دقة عجيبة ، وتحديد حاسم، ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال ، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة .

هـ- أنه يقدم الحقائق- أحيانًا- في مجالات لا يخطر للفكر البشري عادة أن يلم بها لأنها ليست من طبيعة ما يفكر فيه عادة أو يلتفت إليه على هذا النحو ، ومن هذا القبيل ما جاء في سورة الأنعام في تصوير حقيقة العلم الإلهي ومجالاته ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾[١]الآية. فهذه المطارح المترامية، الخفية والظاهرة ، ليست مما يتوجه الفكر البشري إلى ارتيادها على هذا

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

النحو، وهو في معرض تصوير شمول العلم، مهما أراد تصوير هذا الشمول، ولو أن فكرًا بشريًا هو الذي يريد تصوير شمول العلم لاتجه اتجاهات أخرى تناسب اهتمامات الإنسان وطبيعة تصوراته .

ننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر فليس عليه طابع البشر "[١].

وبعد أن يعرض سيد- رحمه الله- لظلال الآية في كلام أدبي طويل لا يسع المجال هنا لذكره، يذكر أيضًا مثالًا آخر وهو قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾[٢] قائلا : "ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة ، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء ، والحركات، والأحجام، والأشكال ، والصور ، والمعاني ، والهيئات ، لا يصمد لها الخيال!، ولو أن أهل الأرض جميعًا وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة ، مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين! " [٣].

و- أن طريقة الاستدلال في هذا القرآن تقوم على الاستدلال بأشياء وأحداث مثيرة صغيرة في ظاهرها وهي ذات حقيقة ضخمة تناسب الموضوع الضخم الذي يستدل بها عليه.. بحيث يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكررة ، قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود ، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصورًا كاملًا ، ويجعل منها منهجًا للنظر والتفكير، وحياة للأرواح والمشاعر ومن الأمثلة لذلك الاستدلال بالآيات المعروضة على البشر في أنفسهم وفي زرعهم وفي الماء الذي يشربون وفي النار التي يوقدون وهي أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات الحياة " [٤]. وغيرها

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٨-١٧٩٠ بتصرف .

(٢) سورة سبا : الآية ٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٩٢، وينظر أيضًا ٢/ ١١١٢-١١١٣ .

(٤) ينظر الآيات ٥٨ -٧٣ من سورة الواقعة .

من المشاهدات لينشئ بها عقيدة في نفوس المخاطبين "[١].

" ثم يبقى وراء ذلك مادة القرآن وموضوعه، وما تتسع صفحات عابرة - في ظلال القرآن - للحديث عن مادة هذا القرآن وموضوعه، فالقول لا ينتهي والمجال لا يحد! وماذا الذي يمكن أن يقال في صفحات؟!

* منهج هذا القرآن العجيب في مخاطبة الكينونة البشرية بحقائق الوجود، بحيث يواجهها بجملتها، دون أن يدع جانبًا منها لا يخاطبه، أو نافذة لا يدخل منها، ولا يدع هاتفًا فيها لا يلبيه.

* منهج هذا القرآن العجيب وهو يتناول قضايا الوجود،وتعامل الفطرة معها.

* منهج هذا القرآن العجيب وهو يأخذ بيد الفطرة الإنسانية خطوة خطوة، في رفق وحيوية، ووضوح إلى القمة السامقة.

* منهج هذا القرآن العجيب، وهو يلمس الفطرة الإنسانية، من حيث لا يحتسب أحدٌ، فإذا بها تنتفض وتستجيب، ذلك المنهج ؟.. أم المادة ذاتها التي يعرضها القرآن في هذا المنهج..

إن الذي يكتب هذه الكلمات قضى - ولله الحمد والمنة - في الصحبة الواعية الدارسة لهذا الكتاب خمسة وعشرين عامًا، يجول في جنبات الحقائق الموضوعية لهذا الكتاب، في حقول المعرفة الإنسانية - ما طرقته معارف البشر وما لم تطرقه - ويقرأ في الوقت ذاته ما يحاوله البشر من بعض هذه الجوانب.. ويرى.. يرى ذلك الفيض الغامر المنفسح الواسع في هذا القرآن، وإلى جانبه تلك البحيرات المنعزلة، وتلك النقر الصغيرة ..وتلك المستنقعات الآسنة أيضًا "[٢].

٤ـ الإعجاز في التأثير :

وهو من وجوه الإعجاز التي أشار إليها سيد - رحمه الله- وعرض صورًا منها،

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٩٢-١٧٩٤ بتصرف.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢١-١٤٢٣ بتصرف.

يقول : " إن الأداء القرآني يمتاز ويتميز من الأداء البشري ، إن له سلطانًا عجيبًا على القلـوب ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أحيانًا أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفا " [١]. ومن النماذج والصور التي عرضها سيد - رحمه الله- لتأثير القرآن في البشر :

أ- تأثير القرآن في النجاشي -رضي الله عنه- وفي أصحابه عندما تلا عليهم جعفر ابن أبي طالب -رضي الله عنه- سورة مريم، فقاموا تفيض أعينهم من الدمع[٢].

ب- تأثر وفد النصارى الذين قدموا إلى النبي-ﷺ-فسمعوا القرآن، وبكوا وآمنوا[٣].

ج- تأثر المشركين بالقرآن ومن ذلك عدة حوادث متفرقة رواها أصحاب السير[٤].

د- تأثر امرأة يوغسلافيه سمعت- سيد قطب- وهو يخطب على ظهر السفينة، ويقرأ القرآن [٥].

هـ- تأثر سيد نفسه، مع بعض رفاقه عندما سمعوا سورة النجم [٦] .

ويبين -سيد - سبب هذا النوع من الإعجاز القرآني -الإعجاز في التاثير -فيقول : " إن في هذا القرآن سرًا خاصًا ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً ، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن ، يشعر أن هنالك شيئًا ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير ، وأن هنالك عنصرًا ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القـرآن، يـدركه بعض الناس واضحًا ويدركه بعض الناس غامضًا ، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الـذي ينسكب في الحس ، يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٨٦ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٩٦٥ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٩٦٥ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٨٢٢، ١٠٧٤-١٠٧٦ .
(٥) المصدر السابق ٢/ ٨٢١، ١٧٨٦ .
(٦) المصدر السابق ٦/ ٣٤٢٠-٣٤٢١ .

المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهي هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود ؟! ذلك سر مودع في كل نص قرآني ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء ، ثم يأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير"[١] .

" إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن، وتشي بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن ، كلما تفتح القلب ، وصفا الحس ، وارتفع الإدراك ، وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة، وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحًا كلما اتسعت ثقافة الإنسان"[٢] .

" ويبقى وراء ذلك السر المعجز في هذا الكتاب الفريد، ذلك السلطان الذي له على الفطرة، متى خُلي بينها وبينه لحظة ! وحتى الذين رانت على قلوبهم الحجب ، وثقل فوقها الركام ، تنتفض قلوبهم أحيانًا وتململ تحت وطأة هذا السلطان وهم يستمعون إلى هذا القرآن ...

ولقد كان كبراء قريش يقولون لأتباعهم الذين يستخفونهم- ويقولون لأنفسهم في الحقيقة -: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[٣] لما كانوا يجدونه هم في نفوسهم من مس هذا القرآن وإيقاعه الذي لا يقاوم ! وما يزال كبراء اليوم يحاولون أن يصرفوا القلوب عن هذا القرآن بما ينزلونه لهم من مكاتيب! غير أن هذا القرآن يظل - مع ذلك كله - غلابًا.. وما إن تعرض الآية منه أو الآيات في ثنايا قول البشر، حتى تتميز وتنفرد بإيقاعها ، وتستولي على الحس الداخلي للسامعين ،وتنحي ما عداها من قول البشر المحير الذي تعب فيه القائلون.

ثانيًا : الإعجاز التشريعي :

أشار سيد - رحمه الله- إلى الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم في ظلال آية

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٣٩٩ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٨٠٥ وينظر أيضًا " التصوير الفني في القرآن " ص ١١-٢٣ .

(٣) سورة فصلت : الآية ٢٦ .

الدين في سورة البقرة حيث قال: " وإن الإنسان ليقف في عجب وفي إعجاب أمام التعبير التشريعي في القرآن - حيث تتجلى الدقة العجيبة في الصياغة القانونية حتى ما يبدل لفظ بلفظ ، ولا تقدم فقرة عن موضعها أو تؤخر، وحيث لا تطغى هذه الدقة المطلقة في الصياغة القانونية على جمال التعبير وطلاوته، وحيث يربط التشريع بالوجدان الديني ربطًا لطيف المدخل عميق الإيحاء قوي التأثير، دون الإخلال بترابط النص من ناحية الدلالة القانونية، وحيث يلحظ كل المؤثرات المحتملة في موقف طرفي التعاقد وموقف الشهود والكتاب ، فينفي هذه المؤثرات كلها ويحتاط لكل احتمال من احتمالاتها، بحيث لا ينتقل من نقطة إلى نقطة إلا وقد استوفى النقطة التشريعية بحيث لا يعود إليها إلا حيث يقع ارتباط بينها وبين نقطة جديدة يقتضي الإشارة إلى الرابطة بينهما . . .

إن الإعجاز في صياغة آيات التشريع هنا لهو الإعجاز في صياغة آيات الإيحاء والتوجيه، بل هو أوضح وأقوى، لأن الغرض هنا دقيق يحرفه لفظ واحد ، ولا ينوب فيه لفظ عن لفظ، ولولا الإعجاز ما حقق الدقة التشريعية المطلقة والجمال الفني المطلق على هذا النحو الفريد .

وذلك كله فوق سبق التشريع الإسلامي بهذه المبادئ للتشريع المدني والتجاري بحوالي عشرة قرون كما يعترف الفقهاء المحدثون ! "[1] .

وبعد أن استعرض سيد - رحمه الله- عظمة التشريع الإسلامي في مسالة الدين وما يتعلق به، قارن بين عظمة وإعجاز القرآن في التشريعات والنظم وبين ما سواه من قوانين وتشريعات ومناهج بشرية، لا تثمر إلا الشقاء والعنت[2] .

ثالثًا : الإعجاز الحركي :

ويقصد به: الإعجاز في مهمة القرآن الدعوية وطبيعته الحركية، وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى هذا النوع من الإعجاز في مواضع من الظلال منها :

حديثه عن بيان القرآن الكريم لطبيعة المعركة المستمرة بين المسلمين وأعدائهم،

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٣٤ .
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٣٥-٣٣٨ .

على اختلاف الزمان والمكان، حيث بين القرآن الكريم بياناً شاملًا شافيًا وافيًا معجزًا، سواءً طبيعة هذه المعركة أو أهدافهم منها، أو اتفاق جميع فئاتهم على تحقيقها، أو أسلحتهم المختلفة فيها ."[١].

ففي مقدمة تفسير الجزء الثاني من سورة البقرة يقول سيد - رحمه الله- : " ابتداء من هذا الجزء - نجد التركيز على إعداد الجماعة المسلمة لحمل الأمانة الكبرى - أمانة العقيدة، وأمانة الخلافة في الأرض باسم هذه العقيدة، .. وإعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمة المستخلفة وشخصيتها المستقلة بقبلتها وشرائعها ومنهجها الشامل المتميز، وقبل ذلك بتصورها الخاص للوجود والحياة وعلاقتها بربها ووظيفتها في الأرض وما تقتضيه هذه الوظيفة من تكاليف في النفس والمال والشعور والسلوك " [٢].

" ومن خلال مراجعة نصوص القرآن في هذا الشأن ندرك طبيعة المعركة التي كان يخوضها القرآن وطبيعة الغاية التي كان يستهدفها في بناء الأمة المسلمة، وهي معركة ضخمة مع الدسائس والفتن والألاعيب والبلبلة والتلبيس والكذب، ومع الضعف البشري، ومداخل الفتنة ومسارب الغواية في النفس البشرية على السواء، وهي كذلك معركة للبناء والتوجيه وإنشاء التصور الصحيح الذي يمكن أن تقوم عليه الأمة المستخلفة في الأرض، والتي تتولى القيادة الرشيدة للبشرية جميعًا .

أما الإعجاز القرآني فيتجلى في أن هذه التوجيهات، وهذه الأسس التي جاء بها القرآن لكي ينشئ الجماعة المسلمة الأولى، هي هي ما تزال التوجيهات والأسس الضرورية لقيام الجماعة المسلمة في كل زمان ومكان، وأن المعركة التي خاضها القرآن ضد أعدائها هي ذاتها المعركة التي يمكن أن يخوضها في كل زمان ومكان، لا بل إن أعداءها التقليدين الذين كان يواجههم القرآن ويواجه دسائسهم وكيدهم ومكرهم، هم هم، ووسائلهم هي هي، تتغير أشكالها بتغير الملابسات وتبقى حقيقتها وطبيعتها، وتحتاج الأمة المسلمة في كفاحها وتوقيها إلى توجيهات هذا القرآن حاجة الجماعة المسلمة الأولى، كما تحتاج في بناء تصورها الصحيح، وإدراك

(١) المنهج الحركي في ظلال القرآن، د/ صلاح الخالدي : ص ٣٨٣-٣٨٤ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٢٣ بتصرف يسير .

obeikandl.com

موقفها من الكون والناس إلى ذات النصوص وذات التوجيهات، ونجد فيها معالم طريقها واضحة، كما لا تجدها في أي مصدر آخر من مصادر المعرفة والتوجيه .

ويظل القرآن الكريم كتاب هذه الأمة العامل في حياتها، وقائدها الحقيقي في طريقها الواقعي، ودستورها الشامل الكامل، الذي تستمد منه منهج الحياة، ونظام المجتمع، وقواعد التعامل الدولي والسلوك الأخلاقي والعملي، وهذا هو الإعجاز"[1].

وفي مقدمة تفسيره لسورة النساء يوضح سيد - رحمه الله- إن هذه السورة تمثل جانبًا من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع الإسلامي، وفي حماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع، ونماذج من المجتمع الذي انبثق من خلال نصوص هذا القرآن، ونشأ من خلال المنهج الرباني .

حيث نلمح من منهج القرآن طريقة تعامله مع الجاهلية ورواسبها في النفس والمجتمع، وصراعها مع الحق، وكيف يرتقي هذا المنهج بالإنسان والحياة إلى القمة السامقة، وما هي الملامح التي يتوخى المنهج الإسلامي إنشاءها وتثبيتها في المجتمع المسلم بعد تطهيره من رواسب الجاهلية، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية التي تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها في الواقع الاجتماعي .

حيث نجد بيان حقيقة الربوبية ووحدانيتها، وحقيقة الإنسان وأصله وعلاقته بغيره، ونجد التشريعات العملية لتحقيق البناء التكاملي للجماعة المسلمة، وتنظيم العلاقات المختلفة بين أفرادها، وحماية المجتمع من الفاحشة والوقاية منها، ونجد التشريعات الخاصة بالقيادة والطاعة والولاء والبراء والجهاد بأنواعه، وعلاقة الجماعة المسلمة بغيرها سلمًا وحربًا ، والحرب المشبوبة عليها وعلى عقيدتها وقيادتها من المنافقين وأهل الكتاب والمشركين عموما، حيث نجد المنهج الرباني الذي يأخذ بالجماعة المسلمة السائرة بين الأشواك الخبيثة، والأحابيل الماكرة، يقودها ويوجهها ويحذرها ويكشف لها طبيعة أعدائها، وطبيعة المعركة التي تخوضها، وطبيعة الأرض التي تدور فيها المعركة وزواياها وجوانبها الخبيثة [2].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٢٤ .

(٢) ينظر : المصدر السابق : ١/ ٥٥٤-٥٦٦ بتصرف .

وبعد استعراض سيد - رحمه الله- لما سبق يقول : " ومن علامات الإعجاز في القرآن الكريم ، أن هذه النصوص التي نزلت لتواجه معركة معينة، ما تزال هي بذاتها تصور طبيعة المعركة الدائمة المتجددة بين الجماعة المسلمة في كل مكان، وعلى توالي الأجيال، وبين أعدائها التقليدين الذين ما يزالون هم هم، وما تزال حوافزهم هي هي في أصلها، وإن اختلفت أشكالها وظواهرها وأسبابها القريبة، وما تزال أهدافهم هي هي في طبيعتها وإن اختلفت أدواتها ووسائلها، وما تزال زلزلة العقيدة وزعزعة الصف، والتشكيك في القيادة الربانية، هي الأهداف التي تصوب إليها طلقاتهم الماكرة، للوصول من ورائها إلى الاستيلاء على مقاليد الجماعة المسلمة، والتصرف في مقاديرها، واستغلال أرضها وجهدها وغلاتها وقواها وطاقاتها، كما كانت يهود تستغل الأوس والخزرج في المدينة قبل أن يعزهم الله ويجمعهم بالإسلام ، وبالقيادة المسلمة ، وبالمنهج الرباني " (١).

رابعًا : الإعجاز العلمي :

ويقصد به: " مطابقة ما توصلت إليه الكشوف العلمية من حقائق ونظريات في الكون والآفاق والأنفس لما أشار إليه القرآن من الحقائق التي لم تكن معروفة للسابقين" (٢).

وقد انقسم العلماء إزاء هذا النوع إلى مؤيد ومعارض، ولكل منهما وجهة النظر التي انطلق منها، وأدلته في التأييد والمعارضة، (٣).

موقف سيد قطب من الإعجاز العلمي :

أشار سيد - رحمه الله- في مواضع متعددة من " الظلال " و "المقومات " إلى موقفه مما يتعلق بقضية الإعجاز العلمي في القرآن عند حديثه عن بعض القضايا الكونية، وباستقراء كلامه حول الموضوع يمكن إيجاز موقفه في القضايا الآتية :

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٦٦ .

(٢) علم الإعجاز القرآني : د/ خليل رجب الكبيسي، مركز عبادي، صنعاء، ط ١ عام ١٤٢٢هـ، ص ١٨١ وما بعدها .

(٣) ينظر ذلك بالتفصيل في : المصدر السابق : ص ١٨١-١٨٧ .

أولًا : موقف الناس من النظريات العلمية وعلاقتها بالقرآن :

أشار سيد- رحمه الله- إلى : "أنه وجدت في هذا العصر فتنة بالنظريات والبحوث والكشوف العلمية، جعلت بعض المهزومين أمام فتوحات العلم الحديث يحاولون أن يلتمسوا الموافقات بين النصوص القرآنية التي تشير إلى بعض الحقائق الكونية، وبين النظريات والكشوف العلمية الحديثة، ليتخذوا منها سندًا لهذا القرآن ولهذا الدين ! وهو اتجاه خاطئ وخطر كذلك من الناحية الإعتقادية، فوق خطئه من الناحية المنهجية " [١] ." كما حاول بعض الطاعنين في القرآن الكريم أن يلتمسوا مخالفاته لهذه العلوم ، وكلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله " [٢] .

ثانيًا : طبيعة القرآن ووظيفته ومجاله وعلاقة ذلك بالعلوم العصرية :

* أما طبيعة القرآن فيحددها سيد - رحمه الله- في أنه: " منهج هداية للضمير وللعقل البشري معا، ليستقيما على منهج واضح ثابت مستقر في القواعد الكلية الأساسية، ثم هو منهج هداية كذلك لنظام الحياة البشرية كيً يصبح واقع الحياة متناسقًا مع استقامة الضمير والعقل، بحيث يسمح هذا الواقع للضمير والعقل أن يسلكا طريقهما في سلام واستقامة إلى ما يحبه ويرضاه، وعندما يستقيم نظام الحياة بكل جوانبه، ويستقيمً الضمير والعقل، فان للإدراك البشري حينئذ أن يبحث في سنن الكون وينتفع بها ليحقق الخلافة في الأرض، فالحقائق العلمية الكونية متروكة تفاصيلها للإدراك البشري، وبحوثه وتجاربه ولم يتكفل المنهج القرآني ببيان تفصيلاتها له، وبناءً على ذلك فالقران لم ينزل إذن ليكون كتاب علوم فلكية، أو طبيعية، أو بيولوجية، أو فسيولوجية، أو طبية، والحقائق التي وردت فيه عن مثل هذه المسائل إنما وردت في صورة الإشارات الكلية، في معرض الهداية الإعتقادية، ولتصحيح الانحرافات والأضاليل والأوهام والتخبطات الإعتقادية، التي أحاطت بهذه المسائل ، وبالقدر الذي يكفي لتصحيح العقيدة، فلا ينبغي إخراج

(١) مقومات التصور الإسلامي : ص٣٢٦ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٨١ .

المنهج القرآني عن طبيعته في هذا الصدد " [١].

*أما وظيفته ومجاله فيقول- سيد -: " إن مجال القرآن هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية، وإن وظيفته أن ينشئ تصورًا عامًا للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظامًا للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ومنها العقلية ، التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل - بالبحث العلمي - في الحدود المتاحة للإنسان - وبالتجريب والتطبيق ، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال ، إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته : تصوره واعتقاده ، ومشاعره و مفهوماته ، وسلوكه وأعماله ، وروابطه وعلاقاته، أما العلوم المادية ، والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه ، فهي موكولة إلى عقل الإنسان وتجاربه وكشوفه وفروضه ونظرياته ، بما أنها أساس خلافته في الأرض ، وبما أنه مهيأ لها بطبيعة تكوينه ...

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن ، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه ، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها، كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه!.

إن القرآن الكريم كتاب كامل في موضوعه ، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها..لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها، والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان، والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره، كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه، وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور في التفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط ، يتركه القرآن يبحث ويجرب ، ويخطئ ويصيب ، في مجال العلم والبحث والتجريب " [٢].

---

(١) مقومات التصور الإسلامي : ص ٣٢٧-٣٢٨ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٨١-١٨٢ بتصرف يسير، وينظر أيضًا ٤/ ١٨٥٨ .

ثالثا: الموقف من النظريات والحقائق العلمية:

يوضح سيد – رحمه الله– الموقف الذي ينبغي أن يكون نحو النظريات والحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم، والذي يقوم على أمرين:

الأمر الأول :عدم تعليق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن بفروض العقل البشري ونظرياته :

حيث يرى– سيد– أنه لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن عن الكون في طريقه لإنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه، لا يجوز تعليقها بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما يسميه "حقائق علمية " مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره"[(١)].

" وليس لنا أيضًا أن نلتمس للنصوص القرآنية مصداقًا من النظريات التي تسمى " العلمية " حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق "[(٢)].

ويعلل سيد – رحمه الله– ذلك بما يلي:

١– أن النصوص القرآنية قطعية الدلالة، ومطلقة الدلالة كذلك، ونهائية في تقرير الحقيقة التي تقررها، ومن ثم لا يجوز أن يستشهد على صدقها بقول آخر إلا من جنسها، ومن مستواها من حيث قطعية الدلالة ونهائيتها المطلقة، وقول البشر ومنه كل ما يقررونه سواءً من الحقائق العلمية أو النظريات ليس من جنس تلك النصوص، ولا هو من مستواها حتى يستشهد به على صدقها، وفي هذا يتجلى الخطاء الاعتقادي، والخطاء المنهجي معًا في الاستشهاد بتقريرات البشر " العلمية" على صحة أو صدق النصوص القرآنية .

فالنصوص القرآنية صحيحة وصادقة بذاتها لا بشهادة من خارجها عليها، والمؤمن بها لا يجوز أن تدركه الهزيمة أمام علم البشر، فيشهد به على صدقها وصحتها "[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٨٢ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٤/ ١٨٥٧ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي : ص ٣٢٦، و في ظلال القرآن ١/ ١٨٢ .

٢- أن ما تعارف عليه البشر على أنه " نظريات علمية " أو " حقائق علمية " كلاهما ليس قطعي الدلالة ولا مطلق الدلالة، فهو علمٌ ظنيٌ في أحسن الأحوال .

فأما " النظريات العلمية " فمعروف عند العلماء المحدثين أنفسهم أنها ليست سوى " فروض راجحة " فروض علمية لتفسير ظاهرة، أو ظواهر كونية، وتظل النظرية قائمة ومعتبرة إلى أن يوجد فرض علمي آخر يفسر تلك الظاهرة - أو الظواهر- تفسيرًا أوضح أو أصح، أو يفسر عددًا أكبر من الظواهر تفسيرًا متناسقًا، وهي عرضه دائما للتبدل والتغير والتعديل والإلغاء، فأين يذهب النص القرآني إذا نحن فسرناه بإحدى تلك النظريات وعلقناه بها ؟ أين يذهب عندما يظهر خطأ تلك النظرية، أو عندما تعدل في بعض أجزائها، أو عندما يضاف إليها جديد ؟ .

إننا سنضطر أن نحمله ونجري به وراء نظرية أخرى لعلها تتوافق معه ! وهكذا لا نكف عن حمله والجري به، فالنظريات العلمية لا تكاد تستقر، وهو عناء أغنانا الله عنه، فلا ينبغي أن نتكبده، وأن نعرض قول الله لمثله !

أما " الحقائق العلمية" فهي كما يقرر العلماء المحدثون كذلك، مجرد احتمالات راجحة وليست قطعية الدلالة، ولا مطلقة الدلالة - إنها حقائق ظنية - بما أنها احتمالات راجحة، وطبيعة المنهج العلمي التجريبي لا تسمح بغير هذا، فالإنسان هو الذي يقوم بالتجربة ومن ثم فهو لا يعتمد على نتائج إحصائية، وإنما يعتمد على نتائج قياسية يجري تجاربه على ما تناولته هذه التجارب، لأن كل أجزاء المادة ليست في يده، ولا تحت سلطانه البشري، وليست جميع الظروف خاضعة لسلطانه، بالإضافة إلى أن عمره - لا الفردي ولكن الإنساني - محدود كذلك، فلا يملك إجراء التجربة على كل أجزاء المادة، ولا يحيط بجميع الظروف والعوامل، وبالتالي فهو مضطر إلى أن يتخذ البرهان القياسي لا الإحصائي، ومن المسلم به أن البرهان القياسي برهان ظني لا قطعي، ومقيد الدلالة كذلك، بالإضافة إلى عامل " النسبية" الذي يتدخل في الموقف فيجعل كل حقيقة يصل إليها البشر حقيقة " نسبية" لا مطلقة، فالحقائق القطعية المطلقة لا يملكها إلا الله -سبحانه وتعالى- بحكم ألوهيته المهيمنة على الكون، وبحكم علمه المحيط غير المقيد بالزمان والمكان، وبحكم أنه

- سبحانه - هو الأول والأخر والظاهر والباطن، وهي الصفات اللازمة لعلم الحقيقة القطعية المطلقة، وهي الحقيقة التي يقص منها في كتابه ما يشاء، ومن ثم لا تحتاج إلى برهان خارج عنها ولا يستشهد على صدقها وصحتها بشيء من الحقائق الظنية النسبية المقيدة، لا من الناحية الإعتقادية وحدها ولكن كذلك من الناحية المنهجية العملية " [١] .

٣- "أن كل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة - أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا - تحتوي أولاً على خطأ منهجي أساسي ، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم .

الأول : هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع ، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم ،أو الاستدلال له من العلم ، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ، ونهائي في حقائقه ، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس ، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق ، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته ، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة " [٢].

" وتلمسُّ موافقات من النظريات " العلمية" للنصوص القرآنية هو هزيمة لجدية الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة ما فيه ، وأنه من لدن حكيم خبير، هزيمة ناشئة من الفتنة "بالعلم " وإعطائه أكثر من مجاله ومداه... فلينتبه إلى دبيب الهزيمة في نفسه من يحسب أنه بتطبيق القرآن على " العلم " يخدم القرآن ويخدم العقيدة ويثبت الإيمان! إن الإيمان الذي ينتظر كلمة العلم البشري المتقلبة ليثبت لهو إيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه! إن القرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء. أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن ، وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته ، ويصل إلى النتائج التي يصل إليها

(١) مقومات التصور الإسلامي : ص ٣٢٦-٣٢٧ بتصرف ، وينظر: في ظلال القرآن ١/ ١٨٢، ٢/ ١١١٥، ٤/ ١٨٥٨ .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٨٢ .

بتجاربه" [١].

والثاني : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته ، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق - بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية - مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي ، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته ، نواميسه التي تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة!

والثالث : هي التأويل المستمر- مع التمحل والتكلف- لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر ، وكل يوم يجد فيها جديد ، وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن ، كما أنه يحتوي على خطأ منهجي كما أسلفنا " [٢].

الأمر الثاني : الانتفاع بما يثبت من الحقائق العلمية :

مع أن سيد - رحمه الله- يقرر أنه لا يجوز تعليق الحقائق القرآنية بالنظريات والفروض والحقائق العلمية البشرية وعدم تلمس موافقات لنصوص القرآن الكريم من النظريات العلمية ، باعتبارها غير قطعية الدلالة ، وما يترتب عليها من سوء فهم لطبيعة القرآن الكريم ووظيفته وحصول الهزيمة أمام فتنة العلم مما يؤدي إلى التكلف في تأويل نصوص القرآن الكريم جريًا وراء النظريات والفروض التي لا تستقر أبدًا، إلا أنه يقرر أن ذلك المنهج في التعامل مع النظريات والحقائق العلمية لا يمنع من الانتفاع بما يثبت من " الحقائق العلمية " وليست " النظريات العلمية " في توسيع مدى الرؤية البشرية لدلالات بعض النصوص القرآنية " [٣].

يقول سيد - رحمه الله-: " وهذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات - ومن حقائق - عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن.. كلا ! إن هذا ليس هو

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٥٨ .
(٢) المصدر السابق ١/ ١٨٢-١٨٣ .
(٣) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٨ .

الذي عنينا بذلك البيان ، ولقد قال الله سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1]، ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله ، وأن نوسع بها يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصوراتنا " [2].

ويسأل سيد - رحمه الله- سؤالًا : كيف يمكن الانتفاع بها كشفه العلم من نظريات وحقائق دون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة ؟ .

يرى سيد - رحمه الله- أن الجواب يتضح من خلال المثال ، حيث ضرب أمثلة للانتفاع الجائز والمأمون بالكشوف العلمية ، وأمثلة لما لا يجوز ولا يصح علميًا ، ومن هذه الأمثلة :

*يقول القرآن الكريم مثلًا: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [3] و﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [4] و ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [5]... الخ، ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون.. الأرض بهيئتها هذه وببعد الشمس عنها هذا البعد ، وبعد القمر عنها هذا البعد ، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها، وبسرعة حركتها هذه وبميل محورها هذا ، وبتكوين سطحها هذا.. وبآلاف من الخصائص.. هي التي تصلح للحياة وتوائمها.. فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة.. هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ وتعميقه في تصورنا.. فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه ، وتوسع مدى الرؤية البشرية لدلالة هذه النصوص" [6].

---

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٨٣ .
(٣) سورة الفرقان : الآية ٢ .
(٤) سورة الرعد : الآية ٨ .
(٥) سورة الحجر : الآية ٢١ .
(٦) في ظلال القرآن ١/ ١٨٣ ، ومقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٨ .

* كذلك حين يقول الله - تعالى -: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) فإنه يجوز لنا أن ننتفع بالكشوف العلمية المستحدثة ، فيما تكشف عنه من الدقة الباهرة والتعقيد المدهش في أجهزة السمع والبصر، وفي الإدراك العقلي للإنسان، لتوسيع مدى الرؤية البشرية لحقيقة ما أمتن الله - سبحانه - به عليهم في الأجهزة التي لا يقاس إليها شيء مما صنعة البشر من الأجهزة " (٢)،هذا جائز ومطلوب .

ولكن الذي لا يجوز ولا يصح علميًا هذه الأمثلة الأخرى :

*يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (٣)، ثم توجد نظرية النشوء والارتقاء لـ "والاس دارون " تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة ، وأن هذه الخلية نشأت في الماء ، وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان.. فنحمل نحن هذا النص القرآني ونلهث وراء النظرية لنقول : هذا هو الذي عناه القرآن!! لا ..إن هذه النظرية أولا ليست نهائية ، فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائيًا ، وقد ظهر فيها من النقص المبني على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر ما يكاد يبطلها ، وهي معرضة غدًا للنقض والبطلان.. بينما الحقيقة القرآنية نهائية ، وليس من الضروري أن يكون هذا معناها ، فهي تثبت فقط أصل نشأة الإنسان، وكفى " (٤).

*وكذلك قوله-سبحانه-: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾(٥)، فإنه لا يجوز أن نحمل هذا النص على نظرية أن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها ، فهذه ليست سوى نظرية، أي مجرد فرض ظني، وليست نهائية في موضوعها . بل إن هناك الآن نظريات أخرى تعادلها وترجح

(١) سورة النحل : الآية ٧٨ .
(٢) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٩ .
(٣) سورة السجدة : الآية ٨ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ١٨٣ .
(٥) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

عليها "[١].

* وكذلك قوله- سبحانه- ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾[٢]، فإنه لا يجوز لنا أن نحمل هذا النص على نظرية السديم، فالسديم ليس إلا مجرد نظرية، ومثلها سائر النظريات الأخرى عن نشأة هذا الكون التي لم يشهدها أحد من البشر ولا من غيرهم من خلق الله ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾[٣]. "ومع هذا قد يكون الكلام صحيحًا لأنه اقرب ما يكون إلى المدلول الذي تقرره الحقيقة القرآنية في الآية" [٤].

" ولعل هذه الأمثلة أن توضح المنهج الصحيح المأمون في التعامل مع الإشارات القرآنية والنظريات والحقائق العلمية البشرية، في توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها، دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق وتصديق، وفرق بين هذا وذاك، وفي هذا القدر كفاية "[٥].

وهنالك أمثلة أخرى ذكرها سيد - رحمه الله- في مواطن متفرقة على ما يصح وما لا يصح النظريات والحقائق العلمية، يمكننا هنا الإشارة إليها من باب إتمام الفائدة ومنها :

أ- نماذج من النظريات والحقائق التي يصح الاستفادة منها في بيان مدلول النصوص القرآنية :

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾[٦]، حيث ذكر سيد - رحمه الله- بعض الآثار التي تدل على اخراج ذرية آدم من صلبه على هيئة الذر وإشهادهم، ثم يعلق سيد على ذلك بقوله : " لقد عرض القرآن الكريم هذا المشهد الرائع الباهر العجيب الفريد، لتلك الحقيقة الهائلة في أعماق الفطـرة والوجود، قبل قرابة أربعة عشر قرنًا من الزمان، حيث لم

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٩، و في ظلال القرآن ١/ ١٨٣، ١٨٤ .
(٢) سورة فصلت : الآية ١١ .
(٣) سورة الكهف : الآية ٥١ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٤، و مقومات التصور الإسلامي ص ٥٥ مع الهامش .
(٥) في ظلال القرآن ١/ ١٨٤، و مقومات التصور الإسلامي ص ٣٢٩ .
(٦) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام! ثم يهتدي البشر بعد قرون إلى طرف من هذه الحقائق، فإذا " العلم " يقرر أن الناسلات ، وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل " الإنسان " وتكمن فيها خصائص الأفراد وهم بعد خلايا في الأصلاب تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر، وتكمن فيها خصائصهم كلها ولا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب كلمة لو قيلت للناس يوم ذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال وصدق الله العظيم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(١) "(٢).

٢-قوله تعالى ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾(٣) . يقول سيد - رحمه الله -: " وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسرًا على الالتفات إلى ما كشف حديثًا عن كروية الأرض، ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان ، لأنها نظريات تخطئ وتصيب ، وتثبت اليوم وتبطل غدًا، والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته ،ولا يستمدها من موافقةٍ أو مخالفةٍ لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل!.

مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرني قسرًا على النظر في موضوع كروية الأرض، فهو يصور حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهارًا، وكلما تحركت الأرض غمر الليل السطح الذي كان عليه النهار وهكذا في حركة دائبة، واللفظ القرآني يرسم الشكل، ويحدد الوضع ، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيرًا أدق من أي تفسير آخر "(٤).

---

(١) سورة فصلت : الآية ٥٣ .
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٩٢-١٣٩٣ .
(٣) سورة الزمر : الآية ٥ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٣٨ .

٣-قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١]، يقول سيد- رحمه الله- :" وفيها تقرير حقيقة خطيرة، يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرًا عظيمًا، ويمجدون " دارون " لاهتدائه إليها! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول .

وهي حقيقة تثير الانتباه حقًا، وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا ، ولا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن، فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله، لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له، وأقصى ما يقال هنا كذلك: إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات " [٢] .

٤- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾ [٣]، حيث نقل سيد - رحمه الله- عن بعض علماء الجيولوجيا ما يتعلق بوضع الجبال وفائدتها في تثبيت الأرض"[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [٥]، حيث ذكر سيد - رحمه الله- ما أثبته العلم الحديث من احتواء جسم الإنسان على العناصر التي تحتويها الأرض جميعًا، إلا أنه يجب ألا يؤخذ على أنه التفسير الحتمي للآية، فقد يكون ما تعنيه وقد يكون شيئًا آخر."[٦].

---

(١) سورة الأنبياء :الآية ٣٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٧٦ .
(٣) سورة فصلت : الآية ١٠ .
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٣١١٢ وما بعدها، ٤/ ٢٣٧٦ .
(٥) سورة الرحمن :الآية ١٤ .
(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٥١ .

ب-نماذج من النظريات والحقائق التي يرى سيد- رحمه الله-أنه لا يصح تفسير القرآن بها :

١- حملهم قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ ﴾ [١] ،على نقص أطراف الأرض عند القطبين، وانبعاجها على خط الاستواء، حيث يرى-سيد - أن هذا هراء، وأن السياق القرآني يحدد مدلول العبارات بأنه بيان لعمل يد الله فيما حولهم ، فهي تأتي الأمم القوية الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد، فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها، وتحصرها في رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وامتداد " [٢] .

٢- تفسير بعضهم قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ [٣] بأن الرياح تحمل اللقاح من شجرة إلى شجرة، حيث يرى سيد - رحمه الله- أن السياق هنا يشير إلى أنها لواقح بالماء دون سواه ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وليس هناك ذكر ولو من بعيد للإنبات حتى يكون هناك ظل في المشهد للنبات، والتعبير القرآني دقيق في رسم ظلال المشاهد من قريب ومن بعيد يدرك ذلك من يعيش في ظلاله ناجيًا من الشوائب والإيحاءات الغريبة " [٤].

اكتفي بهذه الأمثلة التي نبه بها سيد -رحمه الله- على المنهج المأمون في التعامل مع الحقائق العلمية والنظريات، وفيها كفاية .

والخلاصة في موقف سيد ـ رحمه الله ـ من الإعجاز العلمي :

١- أنه يجب الإيمان بصدق ما جاء به القرآن ابتداء سواءً وافق ما توصلت إليه النظريات والحقائق العلمية أم لا .

٢- لا يصح أن نحمل النصوص القرآنية المستيقنة على النظريات والحقائق التي تتغير على سبيل القطع والجزم بأن هذه النظريات والحقائق هي ما تعنيه النصوص .

---

(١) سورة الرعد : الآية ٤١ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٦٥ مع الهامش ١ .
(٣) سورة الحجر : الآية ٢٢ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٣٤ مع الهامش ١ .

٣-جواز الاستفادة من الكشوف العلمية في تفسير نصوص القرآن وتوسيع مدلولاتها المجملة في تصوراتنا، دون القطع بأنها كل ما تعنيه النصوص، بل على أن يكون هذا بعض ما تشير إليه، وهذا ما أشار إليه سيد - رحمه الله- في بعض الأمثلة كما سبق .

٤- استعلاء سيد - رحمه الله- بدينه، واعتزازه بالقران، وحديثه عنه حديث المؤمن الذي لا يحتاج على دينه دليل من سواه .

خامسًا : شبهة القول بالإعجاز بالصرفة وموقف سيد ـ رحمه الله ـ منه:

الإعجاز بالصرفة يعني : " أن العرب إنما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله، لأن الله -سبحانه- صرفهم عن ذلك، وأمسك بهم أن يقوموا له، ولو قاموا لقالوا مثل ما قال، ولعارضوه قولًا ونظمًا وبلاغةً لأنه من جنس كلامهم، فكان هذا الصرف خارقًا للعادة وبه وقع الإعجاز"(١).

أما سيد قطب - رحمه الله- فهو مع إجماع العلماء في بطلان القول بالصرفة، حيث يقول : " فتحداهم مرة ومرة...ولكنهم لم يأتوا بعشر سور، ولا بسورة مفردة ! ولم يحاولوا هذه المحاولة أصلًا، إلا ما قيل من محاولة بعض المتنبئين بعد محمد ﷺ وليس هذا من الجد في شيء، ولا يجوز أن يحسب له في هذا المجال حساب، أما الرأي القائل بصرفهم عن المحاولة فليس له وزن يقام ! " (٢).

ب - آيات النبيﷺ الكونية :

في سياق الحديث عن آيات نبينا ﷺ يثبت سيد - رحمه الله- وقوع آيات كونية لنبينا ﷺ على نحو ما وقع لمن سبقه من الأنبياء، إلا أنه يرى أن النصوص القرآنية تدل بمفهومها على أن النبي ﷺ لم يرسل بالخوارق المادية التي جاءت مع الرسل قبله، لسببين :

(١) أول من قال بهذا القول هو : أبو إسحاق إبراهيم من سيار النظام ، المعتزلي، شيخ الجاحظ ، المتوفى سنة بضع وعشرين ومائتين، وهو قول مخالف لإجماع العلماء قديمًا وحديثًا، وقد ورد عليه أهل العلم قديمًا وحديثًا، ينظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٤٢ ، والإتقان للسيوطي ٢/ ١١٨، والإعجاز القرآني . أ .د/ خليل الكبيسي ص ١٧٥ وما بعدها .

(٢) التصوير الفني في القرآن : ص ١٤-١٥ .

الأول : تكذيب الأولين بها،كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[١].يقول سيد - رحمه الله-:"ومفهوم النص القرآني ومدلوله أن النبي ﷺ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله.. فقد اقتضت حكمة الله منع الآيات- أي الخوارق - لما كان من تكذيب الأولين بها " [٢].

ويقول : " والخوارق التي سبقت على أيدي الأنبياء قبل رسالة محمد ﷺ امتنعت في هذه الرسالة لأن الأولين الذين جاءتهم كذبوا بها ولم يهتدوا فحق عليهم الهلاك، والهلاك لم يقدر على أمة محمد ﷺ لذلك لم يرسله بالخوارق المادية ، وما كانت الخوارق إلا تخويفًا للأمم الخالية مما يحل بها من الهلاك إذا كذبت بعد مجيئها " [٣] .

" وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول ﷺ كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته، وأنه ليس إلا بشرًا رسولًا ، وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾" [٤]، [٥] .

الثاني : أن التجارب البشرية في تكذيب الأمم بالخوارق المادية بعد طلبها وهلاكهم بعد ذلك، هذه التجارب اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق ، لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها لا رسالة جيل واحد يراها، ولأنها

(١) سورة الإسراء : الآية ٥٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٦-٣٤٢٧ بتصرف يسير .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢٣٦-٢٢٣٧ بتصرف .
(٤) سورة الإسراء : الآيات ٨٨-٩٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٧ .

رسالة الرشد البشري تخاطب مدارك الإنسان جيلًا بعد جيل وتحترم إدراكه الذي تتميز به بشريته والذي من أجله كرمه الله على كثير من خلقه " (١) .

" إن الخوارق الحسية ، قد تدهش القلب البشري في طفولته ، قبل أن يتهيأ لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ ، وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل – صلوات الله عليهم – قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج، يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق !... ولهذا كان اتجاه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن الكريم وحده ، وما فيه من إعجاز ظاهر ، ثم توجيه هذا القلب عن طريق القرآن الكريم إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق وفي أحداث التاريخ سواء "(٢).

" فمعجزة الإسلام هي القرآن الكريم ، وهو كتاب يرسم منهجًا كاملًا للحياة ، ويخاطب الفكر والقلب ، ويلبي الفطرة القويمة ، ويبقى مفتوحًا للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة ، أما الخارقة المادية فهي تخاطب جيلًا واحدًا من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل على أن كثرة من كانوا يشاهدون الآيات لم يؤمنوا بها " (٣).

" والقرآن الكريم فرقانٌ ، بما فيه من فارق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال، – يرسم منهجًا واضحًا للحياة في كل صورها – ويمثل عصرًا جديدًا للبشرية، فرقان ينتهي به عصر الطفولة و يبدأ به عهد الرشد ، وينتهي به عهد الخوارق المادية، ويبدأ به عهد المعجزات العقلية ، وينتهي به عهد الرسالات المحلية الموقوتة، ويبدأ به عهد الرسالة العامة الشاملة " (٤).

وبناء على ما سبق فإن سيدًا – رحمه الله– يثبت وقوع الآيات والخوارق المادية للنبي ﷺ ، لكنه يتوقف في تعليلها بأنها كانت دليلًا لإثبات رسالته ، بل يرى أنها إما إكرامًا من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ أو فتنه للناس .

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٣٢٧ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ .
(٤) المصدر السابق ٥/ ٢٥٤٧ .

يقول - رحمه الله - : " فأما ما وقع فعلًا للرسول ﷺ من خوارق صحيحة فكانت إكرامًا من الله لعبده ، دليلًا لإثبات رسالته ... ومن ثم نثبت حادثة انشقاق القمر بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكانه وزمانه وهيئته ، ونتوقف في تعليل الذي ذكرته بعض الروايات من أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين " (١).

ويقول في تعليقه على قصة الإسراء : " أما الخوارق التي وقعت للرسول ﷺ وأولها خارقة الإسراء والمعراج فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة ، إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء ... ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء ، كما ثبت بعضهم وازداد يقينًا...

فماذا كانت الخوارق صانعة مع القوم لو كانت هي آية رسالته كما كانت علامة الرسالات قبله ومعجزة المرسلين؟ وما زادتهم خارقة الإسراء إلا طغيانًا كبيرًا؟.

إن الله لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده ، ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة ، فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق ، أما قريش فقد أمهلت ولم تؤخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، ومن المكذبين من آمن بعد ذلك وكان من جند الإسلام الصادقين ، ومنهم من أنجب المؤمنين الصادقين وظل القرآن معجزة الإسلام كتابًا مفتوحًا لجيل محمد - ﷺ - وللأجيال بعده ، يهتدي به من هم بعد في ضمير الغيب، وقد يكون منهم من هو أشد إيمانًا وأصلح عملًا، وأنفع للإسلام من كثير سبقوه "(٢).

ومن الآيات التي تحدث عنها سيد قطب - رحمه الله - :

أولًا : الإسراء والمعراج :

١ - تعريفه : يقول - سيد - :

"الإسراء من السرى:وهو السير ليلًا ، فكلمة "أسرى" تحمل معها زمانها ،

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ٢٢٣٧ - ٢٢٣٨ بتصرف يسير .

ولا تحتاج إلى ذكره ، ولكن السياق ينص على الليل ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾[١]. للتظليل والتصوير على طريقة القرآن الكريم – فيلتقي ظل الليل الساكن، ويخيم جوه الساجي على النفس ، وهي تتملى حركة الإسراء اللطيفة وتتابعها " [٢].

" وقصة الإسراء من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس – ومعها قصة المعراج – من بيت المقدس إلى السماوات العلى وسدرة المنتهى وذلك العالم الغيبي المجهول لنا ، كانتا في ليلة واحدة ، وهذه القصة جاءت فيها روايات شتى ، وثار حولها جدل كبير، ولا يزال إلى اليوم يثور" [٣].

٢- المكان الذي أسري منه : اختلف في المكان الذي أسري منه على أقوال :

– فقيل : هو المسجد الحرام بعينة – وهو الظاهر– وروي عن النبي ﷺ :" بينما أنا في المسجد في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل – عليه السلام – بالبراق... " [٤].

– وقيل : أُسري به من دار أم هاني بنت أبي طالب، والمراد بالمسجد الحرام الحرم لإحاطته بالمسجد والتباسه به، وعن ابن عباس : الحرم كله مسجد .

وروي أنه كان نائمًا في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسري به ورجع من ليلته، وقص القصة على أم هانئ وقال : " مثل لي النبيون فصليت بهم " ثم قام ليخرج إلى المسجد ، فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال : " مالك؟ " قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم . قال : " وإن كذبوني " فخرج فجلس إليه أبو جهل ، فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء، فقال أبو جهل : يا معشر بني كعب ابن لؤي هلم، فحدثهم ، فمن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبًا وإنكارًا، وارتد ناسٌ ممن كان آمن به، وسعى رجالٌ إلى أبي بكر– رضي الله عنه – فقال : أو قال ذلك؟ قالوا نعم، قال : فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا : فتصدقه في أن يأتي في الشام في

(١) سورة الإسراء : الآية ١ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١١– ٢٢١٢ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٠ بتصرف يسير .
(٤) رواه : البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ٣/ ١١٧٣ برقم ٣٠٣٥ وأيضًا برقم ٣٦٧٤ .

ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال : نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء! فسمي الصدّيق ، وكان منهم من سافر إلى بيت المقدس فطلبوا إليه وصف المسجد ، فجلي له ، فطفق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما النعت فقد أصاب، فقالوا : أخبرنا عن عيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية -لمراقبة مقدم العير- فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد شرقت، فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد.. ثم لم يؤمنوا : وفي الليلة ذاتها كان العروج إلى السماء من بيت المقدس " [١] .

٣- حقيقة الإسراء والمعراج :

يقول سيد : " واختلف في أن الإسراء كان في اليقظة أم في المنام ،

- فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : والله ما فقد جسد رسول الله ﷺ ولكن عرج بروحه " [٢].

- وعن الحسن كان في المنام رؤيا رآها .

- وفي أخبار أخرى أنه كان بروحه وجسمه، وأن فراشه ﷺ لم يبرد حتى عاد إليه.

- والراجح من مجموع الروايات أن رسول الله ﷺ ترك فراشه في بيت أم هانئ إلى المسجد فلما كان في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان أسري به وعرج، ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد .

على أننا لا نرى محلًا لذلك الجدل الطويل الذي ثار قديمًا والذي يثور حديثًا حول طبيعة هذه الواقعة المؤكدة في حياة الرسول ﷺ والمسافة بين الإسراء والمعراج بالروح أو بالجسم ، وبين أن تكون رؤيا في المنام أو رؤية في اليقظة..المسافة بين هذه الحالات كلها ليست بعيدة، ولا تغير من طبيعة هذه الواقعة شيئًا، وكونها كشفًا وتجلية للرسول ﷺ عن أمكنة بعيدة، وعوالم بعيدة في لحظة خاطفة، والذين يدركون

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٠ ، والقصة في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٨-٢٥١ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٠ ، والقصة في سيرة ابن هشام ٢/ ٢٤٨-٢٥١ .، وينظر :شرح الطحاوية ص ٢٧٠ .

شيئًا من طبيعة القدرة الإلهية ومن طبيعة النبوة لا يستغربون في الواقعة شيئًا، فأمام القدرة الإلهية تتساوى جميع الأعمال التي تبدو في نظر الإنسان وبالقياس إلى قدرته وإلى تصوره متفاوتة السهولة والصعوبة حسب ما اعتاده وما رآه، والمعتاد المرئي في عالم البشر ليس هو الحكم في تقدير الأمور بالقياس إلى قدرة الله .

أما طبيعة النبوة فهي اتصال بالملأ الأعلى على غير قياس أو عادة لبقية البشر، وهذه التجلية لمكان بعيد ، أو عالم بعيد، والوصول إليه بوسيلة معلومة أو مجهولة ليست أغرب من الاتصال بالملأ والتلقي عنه، وقد صدق أبو بكر - رضي الله عنه -وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول : إني لأصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء!"(١) .

٤- فوائد وأحكام من حادثة الإسراء والمعراج :

تعرض سيد - رحمه الله- في مواطن متعددة لبعض الحكم والأسرار والفوائد والأحكام المستفادة من هذه الحادثة ومنها :

أ- ذكر وصف العبودية في حادثة الإسراء ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ يقرر ويؤكد حقيقة العبودية في مقام الإسراء والعروج التي لم يبلغها بشر، وذلك كي لا تنسى هذه الصفة ، ولا يلتبس مقام العبودية ، بمقام الألوهية كما التبسا في العقائد المسيحية بعد عيسى - عليه السلام - ، بسبب ما لابس مولده ووفاته ، وبسبب الآيات التي أعطيت له ، فاتخذها بعضهم سببًا للخلط بين مقام العبودية ومقام الألوهية ، وبذلك تبقى للعقيدة الإسلامية بساطتها ونصاعتها وتنزيهها للذات الإلهية عن كل شبهة من شرك أو مشابهة ، من قريب أو من بعيد " (٢) .

ب- " أن الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام -، إلى محمد خاتم النبيين ﷺ وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعًا، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٠-٢٢١١ .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١١، ٥/ ٢٥٤٧-٢٥٤٨ .

رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعًا، فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتشمل آفاقًا أوسع من الزمان والمكان، وتتضمن معاني أكبر من المعاني القريبة التي تتكشف عنها للنظرة الأولى " [١].

جـ- وصف المسجد الأقصى بأنه ﴿ ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ وصف يرسم البركة حافة بالمسجد ، فائضة عليه، وهو ظل لم يكن ليلقيه تعبير مباشر مثل : باركناه ، أو باركنا فيه ، وذلك من دقائق التعبير القرآني العجيب " [٢].

د- " أن الإسراء آية صاحبتها آيات، كشفت عن حكمتها بقوله :﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾ والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في البرهة الوجيزة التي لم يبرد فيها فراش الرسول ﷺ أيًا كانت صورتها وكيفيتها..آية من آيات الله، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود، وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا المخلوق البشري ، والاستعدادات اللدنية التي يتهيأ بها لاستقبال فيض القدرة في أشخاص المختارين من هذا الجنس الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلقه ، وأودع فيه هذه الأسرار اللطيفة " . [٣]

هـ - ثقة الرسول - ﷺ - بالحق الذي جاء به " حيث يلاحظ - بمناسبة هذه الواقعة وتبين صدقها للقوم بالدليل المادي الذي طلبوه يومئذ في قصة العير وصفتها، أن الرسول ﷺ لم يسمع لتخوف أم هانئ -رضي الله عنها- من تكذيب القوم له بسبب غرابة الواقعة، فإن ثقته ﷺ بالحق الذي جاء به ، والحق الذي وقع له، جعلته يصارح القوم بما رأى كائنًا ما كان رأيهم فيه، وقد ارتد بعضهم فعلا ، واتخذها بعضهم مادة للسخرية والتشكيك، ولكن هذا كله لم يكن ليقعد الرسول ﷺ عن الجهر بالحق الذي آمن به، وفي هذا مثل لأصحاب الدعوة أن يجهروا بالحق لا يخشون وقعه في نفوس الناس ، ولا يتملقون به القوم ، ولا يتحسسون مواضع الرضى والاستحسان ، إذا تعارضت مع كلمة الحق تقال " [٤].

---

(١) المصدر السابق ٤ / ٢٢١٢ و معركتنا مع اليهود - سيد قطب - ص ٣٦ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٢ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٢ .
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٢ .

و- أن النبي ﷺ لم يتخذ من الواقعة معجزة لتصديق رسالته ، مع إلحاح القوم في طلب الخوارق وقد قامت البينة عندهم على صدق الإسراء على الأقل، ذلك أن هذه الدعوة لا تعتمد على الخوارق ، إنما تعتمد على طبيعة الدعوة ومنهاجها المستمد من الفطرة القويمة ، المتفقة مع المدارك بعد تصحيحها وتقويمها، فلم يكن جهر رسولﷺ بالواقعة ناشئًا عن اعتماده عليها في شيء من رسالته، إنما كان جهرًا بالحقيقة المستيقنة له لمجرد أنها حقيقة " [١] . "فالخوارق التي وقعت للرسولﷺ وأولها خارقة الإسراء والمعراج لم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة، إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء.. ولقد ارتد بعض من كان آمن بالرسول ﷺ بعد حادثة الإسراء ، كما ثبت بعضهم وازداد يقينًا " [٢].

ز- في هذه الرحلة إثبات لرؤية النبي ﷺ لجبريل -عليه السلام- على هيئته وصورته التي خلقه الله عليها، يسد الأفق بخلقه الهائل، حيث رآه وصاحبه إلى سدرة المنتهى.. التي انتهت إليها رحلة المعراج، أو انتهت إليها صحبت جبريل لرسول ﷺ حيث وقف هو، وصعد محمد ﷺ درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى، وكله غيب من غيب الله، اطلع عليه عبده المصطفى، ولم يرد إلينا إلا هذا، وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته " [٣] .

كما رأى الأنبياء في السموات العلى، ورأى البيت المعمور، وهو بيت عبادة الملائكة في السماء كما ورد في الصحيحين في حديث الإسراء : " ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم " [٤]، يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم"[٥]

ح- أما رؤية النبي ﷺ لربه ليلة الإسراء والمعراج، فإن سيد - رحمه الله- يقرر ما عليه أهل السُّنَّة والجماعة من أنه لم يره، وإنما رأى النور، حيث أشار إلى فيض

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٢١٢ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٣٧ وينظر أيضًا : ٣/ ١٨٢٠ .
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٢٠٦-٣٤٠٧ بتصرف . وينظر ٥/ ٢٩٢١ .
(٤) رواه : البخاري في بدء الخلق باب ذكر الملائكة ٣/ ١١٧٤ برقم ٣٠٣٥ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٣ وينظر ٥/ ٢٨١٤، ٣١٨٥ هامش ١ .

نور الله تعالى على قلب محمد ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج، فلما سألته عائشة: هل رأيت ربك؟ قال:" نور أنى أراه"[١] . وذكر عن عائشة - رضي الله عنها - قولها أيضًا : " من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية " [٢]. [٣] .

ثانيا: انشقاق القمر :

وهي الآية الكونية الثانية التي تعرض لها سيد - رحمه الله- في الظلال وهو يتحدث عن الخوارق المادية للنبي - ﷺ - ففي ظلال قوله تعالى:﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [٤]، يقول سيد : "والروايات عن انشقاق القمر، ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة، تتفق كلها في إثبات وقوع الحادث وتختلف في رواية هيئته تفصيلًا وإجمالًا، وقد ذكر سيد - رحمه الله- عدة روايات حول حادثة انشقاق القمر[٥] .

ثم قال سيد : " فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع الحادث، وتحديد مكانه في مكة - باستثناء رواية لم نذكرها - أنه كان في منى" ، وتحديد زمانه في عهد النبيﷺ قبل الهجرة، وتحديد هيئته - في معظم الروايات أنه انشق فلقتين ، وفي رواية واحدة أنه كسف (أي خسف) . . فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة .

وهو حادث واجه به القرآن الكريم المشركين في حينه، ولم يروَ عنهم تكذيب لوقوعه، فلا بد أن يكون قد وقع فعلًا بصورة يتعذر معها التكذيب ، ولو على سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات لو وجدوا منفذًا للتكذيب، وكل ما روي عنهم أنهم قالوا : سحرنا! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر ، فعرفوا أنه ليس بسحر، فلئن كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٥٩.
(٢) سبق تخريجه ص ٥٣٤ .
(٣) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥١٩، ٥/ ٣١٦٩ .
(٤) سورة القمر : الآية ١-٢ .
(٥) رواه : البخاري في التفسير باب انشقاق القمر ٤/ ١٨٤٤ برقم ٤٥٨٣ - ٤٥٨٧ .

الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه "[١] .

ومع إثبات سيد قطب- رحمه الله- لهذه الآية من الآيات الخارقة التي وقعت للنبي ﷺ إلا أنه - كما سبق - يرى أنها لم تكن معجزة لتأييده، حيث يقول بعد سرد الروايات السابقة : " بقيت لنا كلمة في الرواية التي تقول : إن المشركين سألوا النبي ﷺ آية ، فانشق القمر ، فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآني مدلوله أن الرسول ﷺ لم يرسل بخوارق من نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله ، لسبب معين : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾[٢]، فمفهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات - أي الخوارق - لما كان من تكذيب الأولين بها .

وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول ﷺ كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته ، وأنه ليس إلا بشرًا رسولًا، وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة ...

فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية - أي خارقة - يبدو بعيدًا عن مفهوم النصوص القرآنية، وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده ، وما فيه من إعجاز ظاهر، ثم توجيه هذا القلب- عن طريق القرآن الكريم - إلى آيات الله القائمة في الآفاق والأنفس، وفي أحداث التاريخ سواء.. فأما ما وقع فعلًا للرسول ﷺ من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكرامًا من الله لعبده ، لا دليلًا لإثبات رسالته .

ومن ثم نثبت الحادث - حادث انشقاق القمر - بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئته، ونتوقف في تعليله الذي ذكرته بعض الروايات ، .. ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة، باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب .فانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها ، كما يوجهها دائمًا إلى الآيات

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٥-٣٤٢٦ بتصرف يسير و وينظر أيضًا : مشاهد القيامة : ص ٩٥ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٥٩ .

الكونية الأخرى، ويعجب من موقف الناس تجاهها ...

ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة، فإن القمر في ذاته آية أكبر.. والقرآن جاء ليقف بالقلب البشري في مواجهة الكون كله وما فيه من آيات "[١].

ثالثا : تسليم الحجر والشجر على النبي ﷺ وحنين الجذع إليه .

ذكر سيد قطب - رحمه الله- بعض الآيات التي حدثت للنبي ﷺ إجمالًا، ومنها :

١- تسليم الحصى والحجر والشجر عليه : ففي الصحيح قال رسول الله ﷺ : "إن بمكة حجرًا كان يسلم عليّ ليالي بعثت، إني لأعرفه الآن "[٢] .

وعن علي - رضي الله عنه - قال : كنت مع رسول الله بمكة فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول " السلام عليك يا رسول الله "[٣].

٢- حنين الجذع إليه ﷺ في الصحيح عن أنس - رضي الله عنه - قال :"خطب رسول الله ﷺ إلى لزق جذع، فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حنين الناقة ، فنزل الرسول فمسحه ، فسكن "[٤].[٥] .

٣- ما حدث يوم الخندق ، عندما ضرب النبي ﷺ الصخرة بالمعول، فلمعت ثلاث مرات فلما سئل قال :" أما الأولى فإن الله فتح عليّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب،وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بها المشرق "[٦].

هذه بعض الآيات التي أشار إليها سيد - رحمه الله- والتي يرى -كما سبق -أنها كانت إكرامًا لنبيه ﷺ من ربه جل وعلا.

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٦-٣٤٢٨ بتصرف .

(٢) رواه مسلم : في الفضائل باب فضل النبي- ﷺ - ٤/ ١٤٢٣ بلفظ " أني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث أني لأعرفه الآن "

(٣) رواه الترمذي : في باب إثبات نبوة النبي- ﷺ - ٥/ ٥٥٣ برقم ٣٦٢٦ وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص٤١٢ والمشكاة برقم ٥٩١٩

(٤) رواه الترمذي : في الصلاة باب الخطبة على المنبر ٢/ ٣٧٩ برقم ٥٠٥ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ١/ ٢٨٥

(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٨، ٣٦٠٩ .

(٦)رواه النسائي في الجهاد باب عزو الترك ٦/ ٣٥٠ برقم ٣١٧٦ ، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي ٢/ ٣٩٧- ٣٩٨ ، و في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٤٢ ، وسيرة ابن هشام ٣/ ٢٣٤ ..

المطلب الثالث

خصائص النبي ﷺ

اختص الله سبحانه وتعالى نبينا محمدًا - ﷺ - بجملة من الخصائص والمميزات في نفسه وفي رسالته، وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى بعض منها وهي :

١- أنه - ﷺ - خاتم الأنبياء والرسل :

وهذا بنص القرآن الكريم: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[١]، وقد ذكر سيد - رحمه الله- هذه المزية في كثير من المواضع، مشيرًا إلى أن ذلك يقتضي أن تكون رسالته هي الرسالة الخاتمة، وشريعته هي الشريعة الثابتة التي لا تبديل فيها بعد ذلك ولا تغيير كونها آخر رسالة السماء إلى الأرض لتسير عليها البشرية ومن ثم انقطع الوحي بعده " [٢] .

٢- أنه أفضل الأنبياء والرسل :

وكما مر معنا في مسالة التفاضل بين الأنبياء من أن الله -سبحانه - فضل بعض النبيين على بعض وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى أن أفضلهم هو محمد - ﷺ - في مواضع عديدة، حيث يقول : " ومحمد - ﷺ - أفضل الرسل وأولاهم بتبرئة الله له والدفاع عنه " [٣] .

ويقول : " وحين ننظر إلى مقامات الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من أية ناحية نجد محمدًا - ﷺ - في القمة العليا، وسواءً نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها، أو من ناحية محيطها وامتدادها ، فإن النتيجة لا تتغير"[٤].

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٤٠ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٧٠ وينظر أيضًا ١/ ٩١، ٢٨٣، ٢/ ٨٠٥، ٨٠٩ .
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٨٨٤ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٨٣ .

٣- عموم رسالته وكمالها وشمولها :

حيث وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين عموم رسالة النبي - ﷺ - للخلق أجمعين، كقوله سبحانه ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[١] وقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢] وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[٣] وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٤] وغيرها .

وقد وقف سيد - رحمه الله- في ظلال هذه الآيات وغيرها مقرر عالمية رسالة النبي - ﷺ - وكمالها وشمولها، موضحًا أن القرآن الكريم صدع بهذه الحقيقة منذ فجر الرسالة، والآيات المكية في ذلك كثيرة جدًا ، "حيث أمر النبي - ﷺ - أن يواجه برسالته الناس أجمعين ، كما في الآية الأولى: ﴿ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ وهي آية مكية في سورة مكية، وهي تجبه المزورين من أهل الكتاب الذين يزعمون أن محمدًا - ﷺ - لم يكن يدور في خلده وهو في مكة أن يمد بصره برسالته إلى غير أهلها ، وأنه إنما بدأ يفكر في أن يتجاوز بها قريشًا ، ثم يجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب، ثم يجاوز بها الجزيرة العربية إلى ما وراءها .. كل أولئك بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف! وإن هي إلا فرية من ذيول الحرب التي شنوها قديمًا على هذا الدين وأهله، وما يزالون ماضين فيه! "[٥] .

وقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ وفي سورة القلم: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وفي سورة التكوير: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهي سورة مكية ، والدعوة في مكة تقابل بذلك الجحود...وهي في هذا الوقت المبكر، وفي هذا الضيق المستحكم تعلن عن عالميتها ، كما هي طبيعتها وحقيقتها ، فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة - كما يدعي المفترون اليوم - إنما كانت صفة مبكرة في أيام مكة الأولى ، لأنها حقيقة ثابتة في صلب هذه الدعوة منذ نشأتها .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٥٨ .
(٢) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .
(٣) سورة الفرقان : الآية ١ .
(٤) سورة التكوير : الآية ٢٧ .
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٧٩ .

كذلك أرادها الله وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى، وكذلك تتجه إلى أخر الزمان، والله الذي أرادها كذلك هو صاحبها وراعيها والمدافع عنها وحاميها... وليس على أصحابها إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين "(١).

" فهي إذًا الرسالة الكاملة ، يحملها الرسول الكامل ، للبشر جميعا ، ولقد كانت رسالة محمد - ﷺ - رحمة لقومه وللبشرية كلها من بعده ، يقود البشرية إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة "(٢).

ويقرر سيد- رحمه الله- أنه لو لم تكن هذه الرسالة عامة للناس كافة، لكان للناس - ممن سيأتون من أجيال وأمم - حجة على الله ، فانقطعت هذه الحجة بالرسالة العامة للناس وللزمان ، وكانت هي الرسالة الأخيرة ، فإنكار أن هناك رسالة بعد أنبياء بني إسرائيل غير عيسى ، أو بعد عيسى - عليه السلام - لا يتفق مع عدل الله ، في أن يأخذ الناس بالعقاب بعد البلاغ . ولم يسبق أن كانت هناك رسالة عامة، ولم يكن بد من هذه الرسالة العامة، فكانت بعدل الله ورحمته بالعباد، وكان حقًا قول الله سبحانه:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ رحمة في الدنيا ورحمة في الآخرة "(٣).

وقد تحدث سيد - رحمه الله- عن وجوب محبة النبي ﷺ وطاعته والإيمان به، وعن كفر من لم يؤمن به أو أنكر نبوته أو شاقة في طريقته ، وتحدث أيضًا عن ولاية النبي ﷺ للمؤمنين ، وعن كثير من أخلاقه وصفاته ، وعن حياته مع زوجاته وأصحابه وتعامله مع أعدائه وأقاربه ، مما حقه أن يفرد ببحث مستقل ، في السيرة والتربية "(٤).

واختتم هذا المبحث بنص لسيد - رحمه الله - حول خصائص بعثة النبي ﷺ

---

(١) المصدر السابق ٥/ ٢٥٤٨ ، ٦/ ٣٦٧١-٣٦٧٢، ٣٨٤٣ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٤٠١ ، ٦/ ٣٦١٧ بتصرف .

(٣) المصدر السابق ٢/ ٨١٤ .

(٤) ينظر في ذلك على سبيل المثال : في ظلال القرآن ١/ ١٢٨، ٤١٠ ، ٤٢٠- ٤٢١، ٤٦٠ ، ٢/ ٦٩٦، ٩٥٢ ، ٤/ ٢٢١٠ ، ٢٢٦٢ ، ٣/ ١٦٦٨ ، ٥/ ٢٥٢٦ ، ٢٥٧٧، ٢٨٢٨ ،٢٨٢٩، ٢٨٦٥ ، ٦/ ٣٦٥٦، ٣٨٩٠، ٣٨٩٢، ٣٩٣٧ وغيرها .

وصفاته حيث يقول في مقدمة سورة التحريم : " عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة، والمنهاج الباقي إلى آخر الخليقة ، وأن تجري حياة المؤمنين به وفق الناموس الكوني العام ، جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة ، شاملًا كاملًا متكاملًا ، يلبي كل طاقات البشر واستعداداتهم بما يليق وكرامتهم ، فاختار الله رسوله ﷺ إنسانًا تتمثل فيه العقيدة بكل خصائصها ، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لها ، إنسانًا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها ، ضليع التكوين الجسدي ، قوي البنية ، سليم البناء صحيح الحواس ، يقظ الحس ، يتذوق المحسوسات تذوقًا كاملًا سليمًا ، وهو في الوقت ذاته ضخم العاطفة ، حي الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، متفتح للتلقي والاستجابة ، وهو في الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر ، فسيح الأفق ، قوي الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه ، ثم هو بعد ذلك كله . . النبي الذي تشرق روحه بالنور الكلي ، والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذي ينادى من السماء ، والذي يرى نور ربه ، والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال والظواهر، فيسلم عليه الحصى والحجر، ويحن له الجذع ، ويرتجف به أحد الجبل..! ثم تتوازن في شخصيته هذه الطاقات كلها ، فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها .

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابًا مفتوحًا لأمته وللبشرية كلها ، تقرأ فيه صورة هذه العقيدة وترى فيه تطبيقاتها الواقعية ، ومن ثم يعرض القرآن الكريم جوانب كثيرة من حياته ، حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه للبشر "[1].

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٠٩ بتصرف يسير .

المبحث الثالث

منهجه في الصحابة – رضوان الله عليهم ـ

من القضايا المتعلقة بنبوة نبينا ﷺ قضية الحديث عن الصحابة – رضوان الله عليهم– كونهم الجيل الذي اختاره الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ وحمل هذا الدين .

والصحابي هو: من لقي النبي – ﷺ – مؤمنا به ومات على الإسلام [١] .
ومن عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة موالاة جميع الصحابة – رضي الله عنهم – والاعتراف بفضلهم وسابقتهم إلى الإسلام، والاحتجاج بإجماعهم والاقتداء بهم، وتحريم كراهتهم أو سبهم، لما لهم من شرف الصحبة والجهاد والصبر والبلاء والتضحية وتزكية الله لهم في كتابه الكريم ، وعلى لسان نبيه ﷺ وأصبح كل ذلك جزءًا من عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة .

وفي هذا المبحث بيان لمنهج سيد قطب– رحمه الله – وموقفه من الصحابة – رضوان الله عليهم – وهو أمرٌ كثر حوله الجدل في الآونة الأخيرة، حيث ينسب إلى سيد قطب– رحمه الله– الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ بناء على كلام له في بعض كتبه حول بعض الصحابة [٢] .

وحتى يتبين لنا موقفه – رحمه الله – من الصحابة كان لابد من النظر في جميع كتبه السابق منها على التزامه بالإسلام واللاحق منها، ومعرفة طبيعة المرحلة التي ألف فيها كل كتاب وطبيعة ما فيه من صواب أو من خطاء ، للخروج بنظرة تكاملية قائمة على الاستقراء والموضوعية بعيدًا عن الاجتزاء والخلط بين المراحل التي كتب فيها الكلام، وبعيدًا أيضًا عن التعسف في التبرير .

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر ١/ ٧ .
(٢) ينظر : مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب ص ٢٧ وما بعدها ، والحد الفاصل ص ١٢٩ و ما بعدها، وجميعها للدكتور / ربيع المدخلي .

وذلك من خلال المطالب الآتية :

المطلب الأول : مكانة الصحابة - رضوان الله عليهم - .

المطلب الثاني : طبقات الصحابة - رضوان الله عليهم - ومراتبهم .

المطلب الثالث : مميزات وخصائص جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - .

المطلب الرابع : وقفات مع دعوى " مطاعن سيد قطب في الصحابة - رضوان الله عليهم - .

obeikandl.com

المطلب الأول

مكانة الصحابة في هذا الدين والواجب نحوهم

جاءت آيات عديدة في القرآن الكريم في مدح الصحابة - رضوان الله عليهم - وبيان شرفهم وفضلهم وما يجب لهم، وكذلك جاءت أحاديث كثيرة في بيان مكانتهم وعلو منزلتهم وما ينبغي نحوهم .

ونذكر كلام سيد - رحمه الله- في ظلال هذه الآيات وما ذكره من أحاديث عن النبي - ﷺ - في هذا الشأن :

١- في ظلال قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١) . يقول سيد: "وهم أصحاب رسول الله - ﷺ - المثل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق " (٢).

" فالجماعة التي صاحبت رسول الله - ﷺ - تمثل أكرم رجال هذه الأمة على الله " (٣) .

٢- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٤)، يقول سيد : " وهذه الطبقة من المسلمين - بمجموعاتها الثلاث " السابقون الأولون من المهاجرين ، والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان " كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم في الجزيرة بعد الفتح وكانت هي التي تمسك هذا المجتمع كله في كل شدة ، وفي كل رخاء كذلك، فابتلاء الرخاء كثيرًا ما يكون أصعب وأخطر من ابتلاء الشدة ! .

والسابقون من المهاجرين نميل إلى اعتبار أنهم هم الذين هاجروا قبل بدر،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١١٠ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٥٢٩ .
(٣) المصدر السابق ١/ ٥٣٣ .
(٤) سورة التوبة : الآية ١٠٠ .

وكذلك السابقون من الأنصار، أما الذين اتبعوهم بإحسان ، - الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعًا إبان غزوة تبوك فهم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم وأبلوا بلاءهم بعد ذلك ، وارتفعوا إلى مستواهم الإيماني وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم في فترة الشدة قبل بدر، وهي أشد الفترات طبعًا .

وقد وردت أقوال متعددة في اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار :

* فقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر .
* وقيل : هم الذين صلوا للقبلتين .
* وقيل : هم أهل بدر .
* وقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية .
*وقيل : هم أهل بيعة الرضوان .

ونحن نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية ، أن الاعتبار الذي اعتبرناه أرجح ،والله أعلم "[1].

٣- في ظلال قوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ يقول سيد - رحمه الله- : " ورضى الله عنهم هو الرضى التي تتبعه المثوبة ، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه سبحانه ، والثقة بقدره ، وحسن الظن بقضائه ، والشكر على نعمائه ، والصبر على ابتلائه، ولكن التعبير بالرضى هنا وهناك يشيع جو الرضى الشامل الغامر ، المتبادل الوافر ، الوارد الصادر ، بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده، ويرفع من شأن هذه الصفوة - من البشر- حتى ليبادلون ربهم الرضى، وهو ربهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون، وهو حالٌ وشأنٌ وجوٌ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه، ولكن يُتنسم ويُستشرف و يستجلى من خلال النص القرآني بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحس الموصول ! .

ذلك حالهم الدائم مع ربهم :﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ . وهناك تنتظرهم

(١) في ظلال القرآن : ٣/ ١٧٠٢-١٧٠٣ .

علامة هذا الرضى ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ " وأي فوز بعد هذا وذلك عظيم ؟؟؟ " (١).

٤- في ظلال قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٢).

يقول سيد - رحمه الله- : " هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين وحديث مع المؤمنين، مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت رسول الله - ﷺ - تحت الشجرة والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق أيديهم فيها، تلك المجموعة التي سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله - ﷺ - ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وسمعت رسول الله - ﷺ- يقول لها : " أنتم اليوم خير أهل الأرض " (٣).

"حديث عنها من الله - سبحانه وتعالى - إلى رسوله - ﷺ - وحديث معها من الله سبحانه وتعالى يبشرها بما أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح، وما أحاطها به من رعاية وحماية في هذه الرحلة ، وفيما سيتلوها، وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التي لا ينالها التبديل أبدًا، ويندد بأعدائها الذين كفروا تنديدًا شديدًا، ويكشف لها عن حكمته في اختيار الصلح ... وإنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين، أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون، وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم ، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود، وأحاول أن أستشعر بالذات شيئًا من حال أولئك السعداء الذين

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٧٠٥-١٧٠٦ .

(٢) سورة الفتح : الآية ١٨ .

(٣) رواه البخاري : في كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية ٤/ ١٥٢٦ برقم ٣٩٢٣- ومسلم في الإمارة ٣/ ١١٧٩ برقم ١٨٥٦ .

يسمعون بآذانهم ، أنهم هم ، بأشخاصهم وأعيانهم ، يقول الله عنهم : لقد رضي عنهم، ويحدد المكان الذي كانوا فيه ، والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى : ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق، على لسان ربه العظيم الجليل ..

يا لله ! كيف تلقوا - أولئك السعداء - تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد ، في ذات نفسه ، ويقول له : أنت أنت بذاتك، يبلغك الله، لقد رضي عنك، وأنت تبايع تحت الشجرة ! وعلم ما في نفسك، فأنزل السكينة عليك !

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيسعد، يقول في نفسه: ألست أطمع أن أكون داخلًا في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ فيطمئن، يقول في نفسه : ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون، واحدًا واحدًا، أن الله يقصده بعينه وبذاته، ويبلغه : لقد رضي عنه ! وعلم ما في نفسه ، ورضي عما في نفسه ! يا لله ! إنه أمر مهول !...

علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله - ﷺ - طائعين مسلمين صابرين ﴿ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هينة وهدوء ووقار، تضفي على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة ، بردًا وسلامًا وطمأنينة وارتياحًا "[1].

ويمضي السياق في وصفهم بقوله: ﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾[2] والسكينة الوقورة الهادئة ، كالتقوى المتحرجة المتواضعة، كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه ، الساكن بهذه الصلة، المطمئن بما فيه من ثقة، المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة، فلا يبطر ولا يطغى، ولا يغضب لذاته ، إنما يغضب لربه ودينه، فإذا أمر أن يسكن

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٥-٣٣٢٦ بتصرف يسير .
(٢) سورة الفتح: الآية ٢٦ .

ويهدأ، خشع وأطاع في رضى وطمأنينة .

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى، وكانوا أهلها، وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة ، وما أودع فيها من تقوى، فهم قد استحقوها في ميزان الله ، وبشهادته، وهو تكريم بعد تكريم، صادر عن علم وتقدير"[1].

٥- في ظلال قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾[2]، يقول سيد - رحمه الله- : " وتختتم السورة بتلك الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله - ﷺ - وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله عنها ، وبلغها رضاه فردًا فردًا ...

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ،حالاتها الظاهرة والمضمرة، فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم:﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ وهذه صفتهم فيها، ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ .

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد - ﷺ - صفته التي أنكرها المشركين ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٢٩ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٩ .

ٱللَّهِ ﴾ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع .

والمؤمنون لهم حالات شتى، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة، وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها، التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.

إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعًا رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين، فهي الشدة لله والرحمة لله، وهي الحمية للعقيدة ،والسماحة للعقيدة، فليس لهم في أنفسهم شيء ، ولا لأنفسهم فيهم شيء، وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم ، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها، يشتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لإخوتهم فيها، قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى ، ومن الانفعال لغير الله ، والوشيجة التي تربطهم بالله .

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة، ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم، فعبر عنها تعبيرًا يثبتها كذلك في زمانهم ، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعًا سجدًا .

واللقطة الثالثة مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ فهذه صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة، كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به .

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم ، ونضحها على هيئاتهم : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ سيماهم في وجوههم من

الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف، وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة، واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها ، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه ، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة، ويحل مكانها التواضع النبيل ، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحه ونبلًا .

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة، إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ، ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى ، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها .

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ ﴾ وصفتهم في بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ فهو زرع نام قوي ، يخرج فرخه ، من قوته وخصوبته، ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده ،﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ أو أن العود آزر فرخه فشده ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾ الزرع وضخمت ساقه وامتلأت ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ لا معوجًا ومحنيًا، ولكن مستقيما قويًا سويًا .

هذه صورته في ذاته، فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع العارفين بالنامي منه والذابل، المستثمر منه والبائر، فهو وقع البهجة والإعجاب : ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ وفي قراءة يعجب " الزارع" وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج، وأما وقعه في نفوس الكفار فيوحي بأن هذه الزرعة هي زرعه الله، أو زرعه رسوله ﷺ وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء الله ! .

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا، فهو ثابت في صفحة القدر، ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ﷺ ومن معه إلى هذه الأرض، ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه حين يجيئون .

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة، صحابة رسول الله ﷺ فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى نموذجًا للأجيال، تحاول أن تحققها، لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات .

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة، بعد ما تقدم من صفتهم التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة .

مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ..وذلك التكريم وحده حسبهم، وذلك الرضى وحده أجرٌ عظيم ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ .

*ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرنًا أن استشرف وجود هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم، وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وفي كتاب الله، وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم، وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم، وينظر بعضهم إلى وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه .

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه، ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه إلا من بعيد ؟! اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم، فيقرب له البعيد ؟! فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد ؟!! " (١).

٦- قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣١-٣٣٣٣ .

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

يقول سيد - رحمه الله- : " في الآية الأولى صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين أخرجوا إخراجًا من ديارهم وأموالهم، أكرههم قومهم على الخروج ، لا لذنب إلا أن يقولوا ربنا الله .

وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ اعتمادهم على الله في فضله ورضوانه، لا ملجأ لهم سواه ، ولا جناب لهم إلا حماه، وهم مع أنهم مطاردون قليلون ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الساعات وأضيق الأوقات ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ الذين قالوا كلمة الإيمان بألسنتهم ، وصدقوها بعملهم، وكانوا صادقين مع الله في أنهم اختاروه، وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه، وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراها الناس!..

وفي الآية الثانية كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، هذه المجموعة التي تفردت بصفات ، وبلغت إلى آفاق ، لولا أنها وقعت بالفعل ، لحسبها الناس أحلامًا طائرة ورؤى مجنحة ومُثُلًا عُليا قد صاغها خيال محلق .

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾ أي دار الهجرة، يثرب مدينة الرسول ﷺ وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين، كما تبوءوا فيها الإيمان وكأنه منزل لهم ودار، وهو تعبير ذو ظلال، وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان، لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم ، وتسكن إليه أرواحهم ، ويثوبون إليه ويطمئنون له ، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة، لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين

(١) سورة الحشر: الآية ٨-٩ .

عليه أكثر من عدد المهاجرين! ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع ، ومن مال يختصون به كهذا الفيء ، فلا يجدون في أنفسهم شيئًا من هذا، ولا يقول : حسدًا ولا ضيقًا ، إنما يقول : " شيئًا " مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم، فلا تجد شيئًا أصلًا . ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا، وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيرًا، وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر " (١).

ويكفي جيل الصحابة شرفًا قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالله سبحانه وتعالى يطمئن رسوله ﷺ والعصبة المسلمة من ورائه، إلى ولاية الله سبحانه له ولها، وهو حسبه وحسبها " (٢) .

هذه ملامح صورة جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - ومكانتهم في القرآن الكريم، أما مكانتهم عند رسول الله ﷺ فتمثل في إكرامه ﷺ لأصحابه، وإعزازه لهم، والتنبيه في كل مناسبة إلى فضلهم ووجوب رعاية حقهم وخاصة السابقين الأولين ، ومن الأمثلة لذلك :

١- ما جاء في الصحيح " أن أبا سفيان - رضي الله عنه - أتى على سلمان وصهيب وبلال- رضي الله عنهم - ونفر، فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها! فقال أبو بكر- رضي الله عنه - : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره . فقال : يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم ، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه ، أغضبتكم ؟ قالوا : لا، يغفر الله لك يا أخي " (٣).

يقول سيد - رحمه الله- : " وما يملك أي تعليق أن يبلغ هذا المدى، وما نملك إلا أن نتملاه ! " (٤).

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٦ وينظر أيضًا ٦/ ٣٤٨٣-٣٤٨٤ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٥٤٩ .
(٣) رواه مسلم : في الفضائل باب فضائل سلمان وصهيب وبلال ٤/ ١٥٤٦ برقم ٢٥٠٤ .
(٤) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٢- ١١٠٤ بتصرف يسير .

٢- نهي النبي ﷺ أن ينقل إليه أحد ما يغير قلبه على أحد من أصحابه فكان يقول: " لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئًا ؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر " (١)، (٢) .

٣- الإشادة بهم والنهي عن سبهم أو انتقاصهم، ومن ذلك ما سبق من اختلاف خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنهما - وقول خالد: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ! فلما بلغ ذلك النبي ﷺ فقال: " دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهبًا ما بلغتم أعمالهم " (٣).

وقوله ﷺ : "لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه " (٤)، (٥) .

فهذه الإشارات وغيرها كثير تدل على مكانة الصحابة - رضوان الله عليهم - في نفس رسول الله- ﷺ- وإعزازه لهم - رضي الله عنهم - أجمعين .

أما الواجب نحو الصحابة - رضوان الله عليهم - :

فيتحدث عنه سيد - رحمه الله- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٦)، بقوله : " وهذه الصورة النظيفة الرضية الواعية، وهي تبرز أهم ملامح التابعين ، كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان .

---

(١) رواه :والترمذي المناقب فضل أزواج - ﷺ - ٥/ ٦٦٧ برقم ٣٨٩٦ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ص ٤٤٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٦٢ .

(٣) رواه أحمد ٣/ ٢٦٥ ، وإسناده صحيح ، رجاله رجال الشيخين غير أحمد الحراني ، روى له أصحاب السنن ، انظر مسند أحمد ٢١/ ٣١٩ برقم ١٣٨١٢ تحقيق الأرناؤوط .

(٤) رواه البخاري في فضائل الصحابة ٣/ ١٣٤٣ برقم ٣٤٧٠ ، ومسلم في فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة ٤/ ١٥٦٢ برقم ٢٥٤٠ وأحمد ٣/ ١١ .

(٥) ينظر في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٤

(٦) سورة الحشر : الآية ١٠ .

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار، سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان، وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق ، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان، مع الشعور برأفة الله ورحمته ، ودعائه بهذه الرحمة ، وتلك الرأفة : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود، في الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها ، في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف ، وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب، وتتفرد وحدها في القلوب ، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة ، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة ، كما يذكر أخاه الحي أو أشد ، في إعزاز وكرامة وحب، ويحسب السلف حساب الخلف، ويمضي الخلف على آثار السلف، صفًا واحدًا وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان ، تحت راية الله .

إنها صورة باهرة، تمثل حقيقة قائمة، كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم.. ويبدو ذلك عندما تقارن بغيرها ...

هذه هي قافلة الإيمان، وهذا هو دعاء الإيمان، و إنها لقافلة كريمة، وإنه لدعاء كريم "(١).

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٧ بتصرف يسير .

المطلب الثاني

طبقات الصحابة ومراتبهم

مع فضل وشرف جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - إجمالًا، إلا أنهم كانوا متفاوتين في المقامات والمراتب، وقد تحدث سيد - رحمه الله- عن مكونات جيل الصحابة وطبقاتهم ومراتبهم ونشأة كل طبقة، وذلك في ظلال الآيات التي تتحدث عنهم:

١- ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾[1]، تحدث سيد - رحمه الله- عن مراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية وبين كيف ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة، فعندما أحست قريش و الجاهلية من ورائها بخطر الدعوة الإسلامية أعلنتها حربًا شعواء، وانتفض المجتمع الجاهلي يدافع عن وجوده، وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها، إلى حد إهدار الدم، وبالتالي فلم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد، إلا كل من نذر نفسه لله وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة، والموت في أبشع الصور أحيانا.

وبذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عودًا في المجتمع العربي، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع الطريق الشائك الخطر إلا العناصر المختارة الفريدة التكوين.

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة، ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار، الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلا أن بيعتهم لرسول الله ﷺ بيعة العقبة - قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

حيث قالوا لرسول الله ﷺ ليلة العقبة : " اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال: " أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ". قالوا: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: " الجنة " قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل " (١).

فقد كانت بيعتهم للرسول ﷺ دون أن يرتقبوا من ورائها شيئًا إلا الجنة، ووثقوا هذا البيع ، فأعلنوا أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله ﷺ، وهم يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين، بل كانوا مستيقنين أن العرب سترميهم عن قوس واحدة ومع ذلك ... فلا جرم أن يكونوا - مع السابقين من المهاجرين الذين بُنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد - هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة .

وبعد غزوة بدر تغيرت تركيبة مجتمع الصحابة - رضوان الله عليهم - ، فبالإضافة إلى القاعدة الصلبة المكونة لهذا المجتمع وهم المهاجرون والأنصار، فقد دخل في الإسلام أقوام لم يكونوا قد فقهوه بعد وما انطبعوا بطابعة ، ومنهم من دخل نفاقًا ، ومع ذلك فقد استمرت عملية الصهر للعناصر الجديدة التي تدخل في الإسلام باستمرار، مع بقاء الاعتماد على القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار وخاصة في وقت الشدائد حتى قبيل فتح مكة حيث كان المجتمع الإسلامي أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ، وأقرب ما يكون إلى النموذج الذي يهدف إليه المنهج التربوي الرباني الفريد .

ومع ذلك كانت هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها، فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها .

- تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار .
- وتميز أهل بدر .
- وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية .

---

(١) القصة رواها البيهقي في دلائل النبوة ، دار الكتب العلمية - بيروت - ط٢ عام ١٤٢٣هـ ٢/ ٤٥٤ .

- ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا.

وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، والأوضاع العملية في المجتمع المسلم، تؤكد هذه الأقدار التي أنشأتها الحركة بالعقيدة، و تنص عليها.

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التي أنشأتها الحركة الإسلامية، لم يكن مانعًا أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق في مجتمع المدينة قبل الفتح، وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة في الصف، والكثير من ظواهر الضعف والشح من ذلك المجتمع المدني.

إلا أن فتح مكة وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف - وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة - قد عاد فصب في المجتمع المسلم أفواجًا جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية وفيهم كارهون للإسلام منافقون، وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر، وفيهم المؤلفة قلوبهم دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية.

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مركز السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بعد ذلك ﴿ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ يصل بهم إلى مستواهم الإيماني وبلائهم الحركي، وندرك حقيقة دورهم الباقي في بناء الإسلام وترجمته إلى واقع عملي يبقى مؤثرًا في التاريخ البشري كله، كما نستشرف حقيقة قول الله سبحانه فيهم: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾[1].

٢- في ظلال قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[2].

يقول سيد - رحمه الله- : " ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من السابقين، من

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٧٠-١٥٧٦، ١٧٠٣- ١٧٠٥ بتصرف.
(٢) سورة الحديد: الآية ١٠.

المهاجرين والأنصار، ما وسعها من النفس والمال ، في ساعة العسرة وفترة الشدة – قبل الفتح – فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتز به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريبًا محاصرًا من كل جانب ، مطاردًا من كل عدو ، قليل الأنصار والأعوان، وكان هذا البذل خالصًا لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض ، ولا من رياء أمام كثرة غالبة من أهل الإسلام، كان بذلًا منبثقًا عن خيرة اختاروها عند الله، وعن حمية لهذه العقيدة التي اعتنقوها وآثروها على كل شيء وعلى أرواحهم وأموالهم جميعًا، ولكن ما بذلوه – من ناحية الكم – كان قليلًا بالقياس إلى ما أصبح الذين جاءوا بعد الفتح يملكون أن يبذلوه، فكان بعض هؤلاء يقف ببذله عند القدر الذي يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه ! هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك، وليقرر أن الكم ليس هو الذي يرجح في الميزان، ولكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان...

إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة، والأنصار قلة، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء، غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة، والأنصار كثرة، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال. ذلك متعلق مباشرة بالله ، متجرد تجردًا كاملًا لا شبهة فيه ، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده ، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب ، لا يجد على الخير عونًا إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته ، وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين .

جاء في المسند عن أنس – رضي الله عنه [١] – قال : كان بين خالد بن الوليد[٢] وبين عبد الرحمن بن عوف[٣] كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا

---

(١) هو : أنس بن مالك بن النضر النجاري ،صحب النبي ولازمه وخدمه وغزا معه وبايع تحت الشجرة ، له ٢٢٨٦ حديثًا ،وهو آخر من مات في البصرة من الصحابة ،سنة ٩١هـ ،انظر: سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٩٥، والأعلام ٢/ ٢٤ . .

(٢) هو : خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ،سيف الله ، أسلم قبل الفتح ، من قادة الفاتحين ، حارب المرتدين،وشارك في فتوحات الشام والعراق قائدًا وجنديًا مطيعًا ،مات سنة ٢١هـ ،انظر: سير أعلام النبلاء ١/ ٣٦٦،والأعلام ٢/ ٣٠٠ .

(٣) هو: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف من أجلاء الصحابة ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ،كان من الأغنياء الأجواد الشجعان ،شهد بدرًا والمشاهد كلها ،توفي في المدينة سنة ٣٢هـ انظر: الإصابة ٦/ ٣١١ ،والأعلام ٣/ ٣٢١ . .

بها ! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي - ﷺ - فقال دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد- أو مثل الجبال- ذهبًا ما بلغتم أعمالهم " (١) .

وفي الصحيح : " لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه " (٢).

ومن هذين الحديثين يتحدد معنىً لأصحاب الرسول ﷺ الذين تكرر تحذيره بشأنهم فهم أولئك السابقون ، وقد كان يقول للمسلمين حوله ممن صحبوه " دعوا لي أصحابي " فدل على أنه ﷺ يعني صحبه خاصة كما قال مرة عن الصديق- رضي الله عنه - " دعوا لي صاحبي " .

ومع ذلك فان القرآن الكريم يقرر أن للجميع الحسنى ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فقد أحسنوا جميعًا على تفاوت ما بينهم في الدرجات " (٣).

٣- عند استعراض سيد - رحمه الله- لأحداث غزوة تبوك " العسرة " وما حصل للصحابة فيها يقول : " ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت "العسرة " ، كما ينقل لنا لمحة من الجو الذي عاشه المجتمع المسلم في تلك الفترة ، يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية:

- من اليقين الجاد عند طائفة .

- إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة .

- إلى القعود والتخلف - بغير ريبة - عند طائفة.

- إلى النفاق الناعم عند طائفة - إلى النفاق الفاجر عند طائفة - إلى النفاق المتآمر عند طائفة ، مما يشي أولًا بالحالة العامة للتركيب العضوي للمجتمع في هذه الفترة، ويشي ثانيًا بمشقة الغزوة الممحصة الممتحنة الكاشفة ، والتي لعل الله سبحانه قد قدرها من أجل التمحيص والكشف والتمييز" (٤).

(١) سبق تخريجه ص ٩٥٠.
(٢) سبق تخريجه ص ٩٥٠.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٤ مع الهامش .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٧٢٧ .

ومن خلال عرض النصوص السابقة يتضح لنا أن سيد - رحمه الله- قسم الصحابة إلى مراتب أفضلها كما يسميها " القاعدة الصلبة " وهي الرعيل الأول السابقين من المهاجرين والأنصار ، ثم الذي اتبعوهم بإحسان ، وتميز منهم أهل بدر ثم أهل بيعة الرضوان ، ثم بعدهم من سار على نهجهم ممن أسلم بعد الفتح وقاتل ، ومع ذلك فالكل قد وعده الله الحسنى لإحسانه .

obeikandl.com

المطلب الثالث

خصائص ومميزات جيل الصحابة

أولًا: خصائص ومميزات جيل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ :

أفرد سيد- رحمه الله- فصلًا في كتاب " معالم في الطريق " بعنوان : " جيل قرآني فريد " قال فيه : " هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي أن يقف أمامها أصحاب الدعوة الإسلامية في كل أرض وفي كل زمان ، وأن يقفوا أمامها طويلًا ، ذلك أنها ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها .

لقد خرَّجت هذه الدعوة جيلًا من الناس - جيل الصحابة رضوان الله عليهم - جيلًا مميزًا في تاريخ الإسلام كله، وفى تاريخ البشرية جميعه ، ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة أخرى ، نعم وُجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ ، ولكن لم يحدث قط أن تجمَّع مثل ذلك العدد الضخم ، في مكان واحد ، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة "" [1] .

وقد حاول سيد - رحمه الله- أن يبين الأسباب التي جعلت من ذلك الجيل نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية في أكثر من موضع يمكن إجمالها فيما يلي :

١ - أنهم جيل صنع على عين الله ورعاه رسول الله ﷺ :

يقول سيد - رحمه الله-: " إن نعمة وجود الرسول بين القوم ، يدعوهم بلغة السماء ، ويخاطبهم بكلام الله ، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم ، نعمة فوق التصور حين نتملاها نحن الآن من بعيد ، فهذه الفترة - فترة الوحي وحياة الرسول ﷺ فترة عجيبة حقًا .

إن الله - جل جلاله - يخاطب هذا البشر من صنع يديه ، على لسان عبده ﷺ في رحمة علوية ندية يقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك ! ها هو ذا طريقي فاسلكوه ! لقد

(١) معالم في الطريق ص ١٤ .

تعثرت خطاكم فهاكم حبلي ! لقد أخطأتم وأثمتم فتوبوا وها هو ذا بابي مفتوح ، تعالوا ولا تشردوا بعيدًا ، ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء . . وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - قلت كذا ، وهو خطأ ، ونويت كذا وهو إثم ، وفعلت كذا وهي خطيئة ، فتعال هنا قدامي وتطهر وتب وعد إلى حماي ، وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - أمرك الذي يعضلك هذا حله ، وسؤالك الذي يشغلك هذا جوابه ، وعملك الذي عملت هذا وزنه !

إنه الله ، هو الذي يقول ، يقول لهؤلاء المخاليق ، وهم يعيشون معه ، يحسون أنه معهم ، حقيقة وواقعًا أنه يستمع إلى شكواهم في جنح الليل ويستجيب لها ، وأنه يرعاهم في كل خطوة ويعنى بها .

ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذي لم يعش هذه الفترة أن يتصور، ولكنهم عاشوها فعلًا....

ورد في الصحيح أن "رسول الله - ﷺ - قال يومًا لأصحابه:" أي المؤمنين أعجب إليكم ؟ قالوا الملائكة . قال : " وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ " قالوا : الأنبياء. قال : " وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ " قالوا فنحن . قال : " وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانًا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها "[1].

وصدق رسول الله- ﷺ - إنه لأمر متفاوت ، وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشيء هائلٌ هائلٌ ، عجيبٌ عجيبٌ "[2].

فجيل الصحابة - رضوان الله عليهم - إذًا جيل صنع على عين الله - سبحانه- " فقد كان القرآن الكريم هو مصدر المعرفة والتربية والتوجيه والتكوين الوحيد لجيل من البشر فريد ، جيل لم يتكرر بعد في تاريخ البشرية - لا من قبل ولا من بعد - جيل الصحابة الكرام الذين أحدثوا في تاريخ البشرية ذلك الحدث الهائل العميق

(١) رواه : البيهقي في دلائل النبوة ٦/ ٥٣٨ ، وهو مرسل .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٣ ، ٤/ ٢٤٩٤ ، وينظر أيضًا : هذا الدين لسيد قطب ص ٤٢-٤٣ .

الممتد ، الذي لم يدرس حق دراسته إلى الآن "[١] .

كان النبع الأول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن، القرآن وحده، فما كان حديث رسول الله ﷺ وهديه إلا أثرًا من آثار ذلك النبع، فعندما سُئلت عائشة -رضي الله عنها- عن خُلق رسول الله ﷺ قالت : " كان خُلقه القرآن "[٢].

لقد كان هذا النبع هو المصدر الوحيد لهذا الجيل ، لاعن فقر في الثقافات والحضارات ، ولكن عن قصدٍ وتصميم مرسوم ، يدل عليه غضبُ رسول الله ﷺ عندما رأى صحيفة من التوراة في يد عمر- رضي الله عنه- حيث كان يريد ﷺ صنع جيل خالص القلب والعقل والتصور والشعور والتكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الإلهي ، الذي يتضمنه القرآن الكريم ، وهو الأمر الذي كان له الأثر في صنع ذلك الجيل الفريد في تأريخ البشرية "[٣].

٢- صدق إيمانهم وبذلهم لله :

أشار سيد - رحمه الله- إلى ما تميز به الصحابة - رضوان الله عليهم - من صدق في الإيمان ، وبذلٍ لأنفسهم وأموالهم طلبًا لمرضاته ومثوبته ، وخاصة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان ، كونهم صفوة لا تعرف النفاق[٤]. ويضرب سيد - رحمه الله- أمثلة لصدق إيمانهم وبذلهم في سبيل الله لكل ما يملكون ، ومن هذه الأمثلة :

أ- موقف السابقين الأولين من المؤمنين في مكة، حيث ثبتوا على دينهم في وجه البلاء والفتنة واستعلوا بإيمانهم في وجه الجاهلية، وتركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا بدينهم رغبة في ما عند الله، مما يدل على صدق إيمانهم[٥].

ب- موقف الأنصار في بيعة العقبة الثانية ، وما ظهر فيها من صدق في الإيمان

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٢٣ .

(٢) رواه : أحمد ٦/ ١٦٣ ، والحاكم ٢/ ٤٩٩، وإسناده صحيح على شرط الشيخين ، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٤٨١١ ، والأرناؤوط في المسند ٤٢/ ١٨٣ ..

(٣) ينظر : معالم في الطريق ص ١٥- ١٧ بتصرف ، وفي ظلال القرآن ٣/ ١٤١٠ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٧١١ .

(٥) ينظر : في ظلال القرآن ٣/ ١٥٧١، ١٧٠٣ .

واستعداد للبذل والتضحية حيث كانت بيعتهم دون أن يرتقبوا من ورائها شيئا إلا الجنة ، ووثقوا ذلك بقولهم: " لا نقيل ولا نستقيل "(١).

ج- موقف الصحابة - رضوان الله عليهم - في بيعة الرضوان حيث علم الله - سبحانه - ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم ، وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم، والطاعة لربهم فأنزل سكينته على قلوبهم وأثابهم فتح قريبًا(٢).

ويكفيهم تزكية الله لهم في صدق إيمانهم بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾(٣)، وهي صورة وضيئة للإيمان الواثق المطمئن، وصورة المؤمنين المشرقة الوضيئة، في مواجهة الأهوال والأخطار(٤).

حيث صدقوا ربهم في بيع أنفسهم وأموالهم له كما صور القرآن حالهم يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾(٥)، حيث كان بذلهم لأنفسهم وأموالهم خالصًا لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض ، ولا من رياء(٦).

- ويقارن سيد - رحمه الله- بين الصحابة - رضوان الله عليهم - وبين أصحاب عيسى - عليه السلام - " الحواريين " عند تعليقه على طلب الحواريين من عيسى - عليه السلام - مائدة من السماء فيقول : " والقصة تكشف لنا عن طبيعة قوم عيسى -عليه السلام- المستخلصين منهم وهم الحواريون فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد .

إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى -عليه السلام- فآمنوا، وأشهدوا عيسى على إسلامهم ، ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى- عليه السلام- ما رأوا ، يطلبون خارقة جديدة ، تطمئن بها نفوسهم ، ويعلمون منها أنه

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٧١، ١٧٠٤ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٣٢٦ بتصرف يسير .
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٢٣ .
(٤) ينظر : في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٤٣- ٢٨٤٤ بتصرف .
(٥) سورة التوبة: الآية ١١١ .
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٧١٦، ٦/ ٣٤٨٤ بتصرف .

صدقهم ، ويشهدون بها له لمن وراءهم .

فأما أصحاب محمد ﷺ فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم، لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان ، ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان ، ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن ،هذا هو الفارق الكبير بين حواريي عيسى عليه السلام - وحواريي محمد ﷺ ذلك مستوى ، وهذا مستوى ، وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون ، وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون ، ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله " [1].

٣- جديتهم في التعامل مع القرآن الكريم وتعاليمه :

وهذه الصفة ثمرة لصدقهم في إيمانهم " فالذين يؤمنون هم الذين ينتفعون بما جاء به الرسول ﷺ و يفقهون حقيقة ، و يدركون ما وراءه ،...إن الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي إلا للقلب المفتوح لها ، والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها ، وإن هذا القرآن الكريم لا يفتح كنوزه ، ولا يكشف أسراره ، ولا يعطي ثماره ، إلا لقوم يؤمنون ، ولقد ورد عن بعض صحابة رسول الله ﷺ : " كنا نؤتى الإيمان قبل أن نؤتى القرآن .

وهذا الإيمان هو الذي كان يجعلهم يتذوقون القرآن ذلك التذوق ، ويدركون معانيه وأهدافه ذلك الإدراك ويصنعون به تلك الخوارق التي صنعوها في أقصر وقت من الزمان .

لقد كان ذلك الجيل المتفرد يجد من حلاوة القرآن ، ومن نوره ، ومن فرقانه ، ما لا يجده إلا الذين يؤمنون إيمان ذلك الجيل ، ولئن كان القرآن هو الذي أخذ بأرواحهم إلى الإيمان ، لقد كان الإيمان هو الذي فتح لهم في القرآن ما لا يفتحه إلا الإيمان !.

لقد عاشوا بهذا القرآن ، وعاشوا له كذلك ، ومن ثم كانوا ذلك الجيل المتفرد الذي لم يتكرر - بهذه الكثرة وبهذا التوافي على ذلك المستوى - في التاريخ كله ،

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٩٨ .

اللهم إلا في صورة أفراد على مدار التاريخ يسيرون على أقدام ذلك الجيل السامق العجيب ! "[١].

ويرجع سيد - رحمه الله - أسباب ذلك إلى ما يأتي :

أ- أن القرآن الكريم كان هو النبع الوحيد الذي استقى منه جيل الصحابة -رضوان الله عليهم - كما سبق - فقد خلصوا لهذا القرآن فترة طويلة من الزمان، فلم تشب نبعه الرائق شائبة من قول البشر ، اللهم إلا قول رسول الله - ﷺ - وهديه، وقد كان من نبع القرآن ذاته كذلك ، ومن ثم كان ذلك الجيل المتفرد ما كان ، وما أجدر الذين يحاولون أداء ما أداه ذلك الجيل أن ينهجوا نهجه ، فيعيشوا بهذا القرآن ولهذا القرآن فترة طويلة من الزمان ، لا يخالط عقولهم وقلوبهم غيره من كلام البشر ليكونوا كما كان "[٢].

ب- أن منهج التلقي عند الصحابة - رضوان الله عليهم - قائم على التلقي للتنفيذ والعمل ، " فلم يكونوا يقرءون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع ، ولا بقصد التذوق والمتاع ، لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته ، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه ، كما يتلقى الجندي في الميدان " الأمر اليومي " ليعمل به فور تلقيه ! ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة ، لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، هذا الشعور.. شعور التلقي للتنفيذ كان يفتح لهم من القرآن آفاقًا من المتاع وآفاقًا من المعرفة ، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع ، وكان ييسر لهم العمل ويخفف عنهم التكاليف ، ويخلط القرآن بذواتهم ، ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى منهج واقعي ، وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون

(١) المصدر السابق ٣/ ١٤١٠ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤١٠-١٤١١ ، وينظر معالم في الطريق ص ١٥-١٧ .

الصحائف ، إنما تتحول آثارًا وأحداثًا تحوِّل خط سير الحياة ...

إن منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول ، ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرَّج الأجيال التي تليه ، وما من شك أن هذا العامل الثاني كان عاملًا أساسيًا كذلك في اختلاف الأجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد .[١]

ج- أن الصحابة - رضوان الله عليهم - كان أحدهم حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية ، كان يشعر في تلك اللحظة أنه يبدأ عهدًا جديدًا منفصلًا عن حياته التي عاشها في الجاهلية ، وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام ! .

وبهذا الإحساس كان يتلقى هَدْي الإسلام الجديد ، فإذا غلبته نفسه مرة ، وإذا اجتذبته عاداته مرة ، وإذا ضعف عن تكاليف الإسلام مرة ، شعر في الحال بالإثم والخطيئة ، وأدرك في قرارة نفسه أنه في حاجة إلى التطهر مما وقع فيه ، وعاد يحاول من جديد أن يكون على وفق الهَدْي القرآني .

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي والروابط الاجتماعية حوله.. حتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليومي، فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر.... وكان هذا مفرق الطريق[٢].

٤- كونهم مع ذلك كله بشرًا :

مع كون جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - جيلًا فريدًا مميزًا في تاريخ البشرية كما سبق ، تمثلت فيهم نماذج الإنسانية العليا التي ظلت فريدة في سموقها والتي حققت المنهج الإلهي في حياتها على ذلك النحو العجيب ، قد ظلت مع هذا بشرًا لم

(١) معالم في الطريق ص ١٧-١٩ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : في ظلال القرآن ٣/ ١١٤٣ .
(٢) معالم في الطريق ص ١٩-٢٠ بتصرف يسير .

يخرجوا عن طبيعتهم ولا عن فترتهم ، زاولوا كل ألوان النشاط الإنساني ، وأصابوا من الطيبات كل ما كان متاحًا لهم في بيئتهم وزمانهم ، وأخطأوا وأصابوا وعثروا ونهضوا وأصابهم الضعف البشري أحيانًا ، كما يصيب سائر البشر ، وغالبوا هذا الضعف ، وانتصروا عليه أحيانا أخرى [١].

* يقول سيد - رحمه الله- في تعليقه على قصة الخندق وأحوال الصحابة -رضوان الله عليهم - فيها : " لقد كانوا ناسًا من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر، وليس مطلوبًا منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري ، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس ، ويفقدوا خصائصه ومميزاته ، فلهذا خلقهم الله ، خلقهم ليبقوا بشرًا ، ولا يتحولوا جنسًا آخر، لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجرًا ...

كانوا ناسًا من البشر يفزعون ويضيقون بالشدة ، ويزلزلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة ، ولكنهم كانوا- مع هذا- مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله ، وتمنعهم من السقوط ، وتجدد فيهم الأمل ، وتحرسهم من القنوط ، وكانوا بهذا وذاك نموذجًا فريدًا في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير .

وعلينا أن ندرك هذا لندرك ذلك النموذج الفريد في تاريخ العصور، علينا أن ندرك أنهم كانوا بشرًا ، لم يتخلوا عن طبيعة البشر، بما فيها من قوة وضعف، وأن منشأ امتيازهم أنهم بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مهيأة لبني الإنسان، في الاحتفاظ بخصائص البشر في الأرض مع الاستمساك بعروة السماء.

وحين نرانا ضعفنا مرة ، أو زلزلنا مرة ، أو فزعنا مرة ، أو ضقنا مرة بالهول والخطر والشدة والضيق ، فعلينا ألا نيأس من أنفسنا ، وألا نهلع ونحسب أننا هلكنا ، أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبدًا ! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية! ونصَّر عليه لأنه يقع لمن هم خير منا ! هنالك العروة الوثقى ، عروة السماء ، وعلينا أن نستمسك بها لننهض من الكبوة ونسترد الثقة والطمأنينة .

---

(١) هذا الدين لسيد قطب ص ٤٣ .

وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج الفريد في صدر الإسلام، النموذج الذي يذكر عنه القرآن الكريم مواقفه الماضية وحسن بلائه وجهاده، وثباته على عهده مع الله "[1].

*وفي ظلال حادث تخيير النبي ﷺ لأزواجه في سورة الأحزاب، يقول سيد -رحمه الله-: " ونحن نحب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث تتدبره من بعض زواياه ...

إنه يصور لنا من جانب حقيقة حياة رسول الله ﷺ والذين عاشوا معه واتصلوا به، وأجمل ما في هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان وحياة ناس من البشر، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية، مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التي ارتفعوا إليها، ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه، فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمت في تلك النفوس، ولكنها ارتفعت ، وصفت من الأوشاب، ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة ، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان .

وكثيرًا ما نخطئ نحن حين نتصور للنبي ﷺ ولصحابته -رضوان الله عليهم - صورة غير حقيقية ، أو غير كاملة ، نجردهم فيها من كل المشاعر والعواطف البشرية ، حاسبين أننا نرفعهم بهذا وننزههم عما نعده نحن نقصًا وضعفًا !.

وهذا الخطأ يرسم لهم صورة غير واقعية ، صورة متلفعة بهالات غامضة لا نتبين من خلالها ملامحهم الإنسانية الأصيلة، ومن ثم تنقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم، وتبقى شخوصهم في حِسِّنا بين تلك الهالات أقرب إلى الأطياف التي لا تلمس ولا تتماسك في الأيدي ! ونشعر بهم كما لو كانوا خلقا آخر غيرنا، ملائكة أو خلقًا مثلهم مجردًا من مشاعر البشر وعواطفهم على كل حال !.

ومع شفافية هذه الصورة الخيالية فإنها تبعدهم عن محيطنا ، فلا نعود نتأسى بهم أو نتأثر، يأسًا من إمكان التشبه بهم أو الاقتداء العملي في الحياة الواقعية، وتفقد السيرة بذلك أهم عنصر محرك ، وهو استجاشة مشاعرنا للأسوة والتقليد، وتحل

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٤٤ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : ٤/ ٢٤٩٢ .

محلها الروعة والانبهار، اللذان لا ينتجان إلا شعورًا مبهمًا غامضًا سحريًا ليس له أثر عملي في حياتنا الواقعية، ثم نفقد كذلك التجاوب الحي بيننا وبين هذه الشخصيات العظيمة، لأن التجاوب إنما يقع نتيجة لشعورنا بأنهم بشر حقيقيون، عاشوا بعواطف ومشاعر وانفعالات حقيقية من نوع المشاعر والعواطف والانفعالات التي نعانيها نحن، ولكنهم هم ارتقوا بها وصفوها من الشوائب التي تخالج مشاعرنا "[1].

هذه بعض خصائص ومميزات وفضائل جيل الصحابة كما ذكرها سيد - رحمه الله - إجمالًا، وقد أشار في مواضع متفرقة إلى فضائل بعض أصحاب النبي ﷺ ممن ورد ذكرهم في السياق الذي يتحدث عنه [2].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٥٥-٢٨٥٦ .

(٢) ينظر: المصدر السابق : ٣/ ١٤١٦، ٣/ ١٧٢٣، ٤/ ٢٥٠٤، ٥/ ٣١٤٣، ٥/ ٣١٤٤، ٦/ ٣٣٠٩، ٣٣١٢، ٣٤١٤، ٣٨٢٧، ٣٨٢٩ . ومعركة الإسلام الرأسمالية : ص ٧٣، وهذا الدين : ص٨٤-٨٥ ومعركتنا مع اليهود : ص ٣٣ .

المطلب الرابع

وقفة مع دعاوى" مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ "[١]

مما يثار حول سيد قطب- رحمه الله – أنه يطعن في أصحاب رسول الله ﷺ ويعتمد من تحدث عن هذه القضية على كتابات لسيد في بعض كتبه السابقة لالتزامه أو ما ألفه في بداية مرحلة تحوله نحو الإسلام ، أو في طبعات تم تعديلها بعد ذلك، ويجعل ذلك وصفًا ثابتًا لسيد دون النظر في طبيعة المرحلة التي ألف فيها هذه الكتب ، وكذا النظر في الطبعات المعدلة لهذه الكتب ، أو النظر في كتبه الأخيرة، التي ألفها بعد التزامه بمنهج الإسلام كـ" الظلال ، المعالم ، المقومات ، وغيرها"، ومعلوم أن سيدًا – رحمه الله – كما ذكرنا في الباب الأول – مرَّ بمراحل مختلفة في حياته ، وحصل له انحراف في بعضها ، وبالتالي فمن الظلم تقييم فكر الرجل وعقيدته من خلال جمع النصوص من مراحل انحرافة وجعلها هي حقيقة ما كان عليه ، كما فعل البعض[٢].

فالموضوعية والأمانة في البحث العلمي المتجرد من الهوى والتعصب تقتضي النظر في موقفه من الصحابة – رضوان الله عليهم – عمومًا، وكذا كلامه في بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – وحقيقته، وفي أي مرحلة كان ؟ وهل تراجع عنه أو عدله ؟ وما هو موقفة في كتبة الأخيرة من الصحابة – رضوان الله عليهم – الذي تكلم فيهم في كتبة الأدبية السابقة ؟ وهو ما نحاول عرضة في الفروع الآتية:

الفرع الأول : لمحة تاريخية عن الكتب التي تكلم فيها سيد قطب عن بعض الصحابة :

العبارات التي انتقدت على سيد قطب عند كلامه عن بعض الصحابة – رضوان

---

(١) ما بين القوسين عنوان كتاب لـ د / ربيع المدخلي .

(٢) انظر مطاعن سيد قطب في أصحاب الرسول ﷺ للدكتور / ربيع المدخلي ، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره ، وكذا الحد الفاصل للمدخلي أيضًا ، وسيأتي بيان حقيقة ما في هذه الكتب ، في هذا المطلب .

الله عليهم – جاءت في كتابين:

الأول : كتاب " كتب وشخصيات ": وهو في الأصل عبارة عن مجموعة مقالات أدبية ونقدية ، كان سيد – رحمه الله- ينشرها في بعض الصحف والمجلات في فترات متفرقة ، بين عامي (١٩٤٢م –١٩٤٦م) أي قبل سفره إلى أمريكا بسنتين ثم جمعها وأصدرها في كتاب بهذا العنوان يقع في (٣٣٦) صفحة وتحدث فيه عن الصراع بين عليّ[١] ومعاوية – رضي الله عنهما – في معرض رده على بعض الكُتّاب، مستعرضًا أسباب غلبة معاوية على عليّ –رضي الله عنهما – بعبارات غير لائقة بمعاوية وعمرو بن العاص –رضي الله عنهما– منطلقًا – كما يقول– من الانتصار للخلق الفاضل، وليس لأنه شيعيًا[٢] .

الثاني : كتاب " العدالة الاجتماعية في الإسلام ": وهو أول كتاب فكري ألفه في بداية مرحلة تحوله إلى الدراسات الإسلامية ، حيث كان قد ألف قبله كتابين هما: " التصوير الفني في القرآن الكريم " و" مشاهد القيامة " وخلال دراسته الفنية للقرآن الكريم وجد أنه يحتوي على حقائق وموضوعات فكرية وتشريعية المجتمع المعاصر في أمس الحاجة إليها ، خاصة مع نشاط الشيوعيين في الدعاية لمناهجهم في تلك الفترة ، وفساد أحوال الأنظمة والمجتمعات ، فتحول سيد – رحمه الله – من الدراسات البيانية البلاغية للقران الكريم إلى الدراسات الفكرية وألف كتابة "العدالة الاجتماعية في الإسلام " عام ١٩٤٨م قبل سفره إلى أمريكا ، وأصدره أخوه محمد قطب – حفظه الله – ١٩٤٩م، وكان سيد حينها في أمريكا .

والكتاب يتحدث عن نظرة الإسلام إلى الدين والمجتمع والإصلاح، وتميزه عن غيره من الأديان وخاصة المسيحية ، وكذا الحديث عن طبيعة العدالة الاجتماعية في الإسلام وعلاقتها بالعقيدة، وعن أسس ووسائل العدالة في الإسلام، وانتقل للحديث عن سياسة الحكم والمال والواقع التاريخي في الإسلام وعرض نماذج من عصر الصحابة – رضوان الله عليهم – في سياسة الحكم والمال من الوجهة الرسمية

(١) هو:عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب ،ابن عم رسول الله ﷺ وزوج الزهراء،أبو الحسن والحسين،أول من آمن من الصبيان، شهد المشاهد كلها إلا تبوك، قتل بالكوفة سنة ٤٠هـ ،انظر: الإصابة لابن حجر،٨/ ١٣١والاستيعاب لابن عبد البر٧/ ٥٧ .

(٢) ينظر : كتب وشخصيات سيد قطب ص ٢٤٣،٢٤٢ ، وكذا سيد قطب الأديب الناقد للدكتور / صلاح الخالدي ص ٣٤٢ وما بعدها .

في الدولة واختلاف تصرفات الحكام المسلمين الأمويين والعباسيين عن ما كان عليه الوضع في الخلافة الراشدة .

وتكلم في هذا الفصل عن عثمان و معاوية - رضي الله عنهما - بكلام غير لائق بهما، انتقده العلامة محمود شاكر - رحمه الله - في مقالات نشرها عام - (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م)، ثم انضم سيد - رحمه الله- إلى الإخوان المسلمين عام (١٩٥٣م)، وعمل معهم حتى كانت محنة عام (١٩٥٤م) حيث سجن سيد قطب وحكم عليه بالأشغال الشاقة، واستمر حتى عام (١٩٦٤م) حيث خرج بعفو صحي، وفي عام (١٩٦٤م) أعاد النظر في كتاب العدالة الاجتماعية، وخاصة المواضع والألفاظ التي انتقده فيها محمود شاكر، حيث حذف بعضها وعدل بعضها، وأبقى بعضها كما هو، واصدر الطبعة السادسة المعدلة عام (١٩٦٤م) .

ومن هذا العرض التاريخي السابق لطبيعة الكتب والمرحلة التي جاء كلام سيد - رحمه الله- عن بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - فيها نجد :

١- أنها كانت في بداية مرحله تحوله نحو الدراسات الإسلامية بعد مرحله طويلة من الضياع الفكري و الدراسات الأدبية والنقدية .

٢- أن سيد - رحمه الله- عدل بعض الألفاظ التي انتقدها عليه محمود شاكر - رحمه الله - كما سيأتي- بعد ١٢ عاما، في مرحلة سيد الإسلامية والتي تعمق فيها في الدراسات الإسلامية أكثر من ذي قبل، مع بقاء بعض الألفاظ التي كان الأولى بسيد - رحمه الله- أيضًا أن يعدلها.

٣- أن كلام سيد - رحمه الله- عن الصحابة - رضوان الله عليهم - عمومًا وعن بعض الصحابة الذين تكلم فيهم في هذين الكتابين مختلف تمامًا في كتبه الأخيرة - كما سيأتي بيانه - مما يدل على أن هذا الكلام كان في مرحلة ولها حكمها، وبالتالي فالاعتماد على ما في هذه الكتب، وعلى الطبعة غير المعدلة، ليس من الإنصاف والموضوعية في الردود والمناقشات العلمية .

الفرع الثاني مع الدكتور/ ربيع المدخلي حول " مطاعن سيد قطب في الصحابة " :

يعتبر الدكتور / ربيع المدخلي أبرز من تفرغ في هذا العصر للتصدي لفكر سيد - رحمه الله - ومواجهته حيث ألف عددًا من الكتب في بيان مخالفات -سيد- وخاصة ما يتعلق منها بالعقيدة [١] . وما انتقده على سيد - رحمه الله - لاشك أن فيه ما هو صواب وحق، وفيه ما هو غير ذلك .

وقد سبق بيان كثير من الأمور التي انتقدها المدخلي على سيد قطب في ما سبق من مباحث الرسالة كل في موضعه [٢].

ونقف هنا مع ما يتعلق بالصحابة - رضوان الله عليهم -حيث خصص الدكتور المدخلي كتابا بعنوان " مطاعن سيد قطب في أصحاب الرسول ﷺ "جمع فيه العبارات التي اخطأ فيها سيد في حق بعض الصحابة - رضوان الله عليهم -، كما أورد فصلًا كاملًا في كتابه " أضواء إسلامية " حول " موقف سيد قطب من عثمان- رضي الله عنه - ومعظم الصحابة " وكذا أعاد نفس الكلام في كتابه " الحد الفاصل "[٣].

ومن خلال الاطلاع على كتب الكتور المدخلي السابقة، وعلى رسالة العلامة محمود شاكر - رحمه الله - التي انتقد فيها سيد قطب حول الموضوع، وعلى كتاب العدالة الاجتماعية لسيد قطب - رحمه الله - والمقارنة بين كلامه في الطبعات الأولى وبين الطبعة المعدلة وجدت الآتي :

أولًا: أن سيد -رحمه الله- عدل بعض الألفاظ التي انتقدها عليه محمود شاكر- رحمه الله - في الطبعة السادسة، ومع ذلك ففيها عبارات كان الأولى بسيد-رحمه الله- حذفها أو تعديلها كما فعل في غيرها.

(١) منها : مطاعن سيد قطب في أصحاب الرسول ﷺ، وأضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره، والحد الفاصل .

(٢) ينظر على سبيل المثال القضايا الآتية : موقف سيد قطب من حديث الآحاد، وسحر النبي ﷺ، والألوهية والربوبية، وموقف سيد قطب من الصفات وتأويلها، ووحدة الوجود، وخلق القرآن، وغيرها، من القضايا التي ذكرها الدكتور المدخلي في كتبه .

(٣) ينظر : مطاعن سيد قطب في أصحاب النبي ﷺ، وأضواء إسلاميه : ص ٢٧- ٦٢ والحد الفاصل : ص ١٢٩- ١٣٧ .

ثانيا : يلاحظ على كلام الدكتور / ربيع المدخلي في كتبه حول موقف سيد من الصحابة ما يلي :

١- أن الدكتور / ربيع المدخلي جعل اعتماده في نقد سيد - رحمه الله- وإدانته له على الألفاظ السابقة التي ذكرها محمود شاكر- رحمه الله- في نقده لسيد ، أي أنه أعتمد على الطبعة الخامسة قبل تعديل سيد لها وجعلها هي الأصل، وربما أصبحت مفقودة في عالم اليوم لأنها طبعت قبل أكثر من خمس وأربعين عاما، ولم يعتمد في نقده على الطبعة التي عدلها سيد قبل موته بسنتين عام "١٩٦٤م " والتي تكررت طباعتها إلى اليوم، بل كان المدخلي يشير في الهامش بعد أن يذكر النص من الطبعة الخامسة بقوله ومعناه في الثانية عشر- أي في المعدلة - مما يدل على أنه يرى أن التعديل غير ذي قيمة !! وأحيانا يذكر أن سيد - رحمه الله- تلاعب بالألفاظ وتحايل في تغيير شكلها مع بقاء المضمون !!.

وعلى فرض صحة كلام الدكتور المدخلي ومع أنه دخول في نية الرجل، إلا أن المنهج العلمي والموضوعي في النقد يقتضي الاعتماد على آخر ما سطره الرجل ولا يمنع ذلك من الإشارة إلى ما قبل التعديل إن كان الناقد يرى أن التعديل غير حقيقي أو أنه شكلي، واستسمح القارئ في أن انقل له جدولاً فيه مقارنة بين كلام سيد -رحمه الله- في الطبعة القديمة من العدالة الاجتماعية التي انتقده فيها الشيخ محمود شاكر ونقل عنها المدخلي في الغالب، وبين الطبعة المعدلة للكتاب، حتى يتبين الأمر وذلك كما يلي :

أولا : مقارنه بين ما أنتقده محمود شاكر وبين الطبعة المعدلة :

رقم الفقرة	نص الفقرة في الطبعة الخامسة قبل التعديل وفي رسالة محمود شاكر - رحمه الله -	نص الفقرة في الطبعات المعدلة
(١)	فلما أن جاء معاوية وصير الخلافة الإسلامية ملكًا عضوضًا في بني أميه، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية، فأمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها وما كان الإسلام لها إلا رداء تخلعه وتلبسه حسب المصالح والملابسات [١]	فلما أن جاء الأمويون، وصارت الخلافة الإسلامية ملكًا عضوضًا في بني أمية، لم يكن ذلك من وحي الإسلام، إنما كان من وحي الجاهلية الذي أطفأ إشراقة الروح الإسلامي [٢]

(١) مجلة المسلمون : العدد ٣ سنة ١٣٧هـ مقال للعلامة محمود شاكر رحمه الله، نقلا عن : مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٣ .

(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٥٤ .

(٢)	يقول شاكر : " ثم يذكر يزيد ابن معاوية بأسوأ الذكر، ثم يقول: أي- سيد- " وهذا هو الخليفة الذي يفرضه معاوية على الناس، مدفوعا إلى ذلك بدافع العصبية العائلية القبلية وما هي بكثيرة على معاوية ولا بغريبة عليه، فمعاوية هو ابن أبي سفيان، وابن هند بنت عتبة[1] ، وهو وريث قومه جميعًا، وأشبه شيء بهم في بعد روحه عن حقيقة الإسلام، فلا يأخذ أحد الإسلام بمعاوية أو بني أمية فهو منه ومنهم بريء " [2].	اثبت سيد - رحمه الله- بعض الروايات والملابسات التي صاحبت البيعة ليزيد وطريقة معاوية - رضي الله عنه - في إكراه الناس عليها، ثم يذكر في الهامش معلقا عليها بقوله " ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة(٥٦هـ) ونحن لا نحب أن نجزم بصدق مثل هذه الرواية، ولكن تبرئة للإسلام في ذاته نقول : " إنها إن صحت كان هذا مخالفة أساسية لطبيعة المنهج الإسلامي في الحكم لا تبررها حجة، ولا يقوم لها عذر"، ثم ذكر مقالة لبعض خصوم يزيد بن معاوية في وصف يزيد، وقال : فإذا كانت هذه مقالة خصم ليزيد فإن تصرفات يزيد العملية الواقعية فيما بعد من قتل للحسين- رضي الله عنه- على ذلك النحو الشنيع إلى حصار البيت ورميه.. تشهد بأن خصوم يزيد لم يبالغوا كثيرا فيما قالوه. وأيًا ما كان الأمر فان أحدًا لا يجرؤ على الزعم بأن يزيد كان أصلح المسلمين للخلافة وفيهم الصحابة -رضوان الله عليهم- والتابعون، إنما كانت مسالة وراثة الملك في البيت الأموي، وكان هذا الاتجاه طعنة نافذة في قلب الإسلام واتجاه الإسلام ،وفي سبيل تبرئة الإسلام - روحه ومبادئه - من ذلك النظام الوراثي الذي ابتدع ابتداعا في الإسلام نقرر هذه الحقائق، لتكون واضحة في تصور الحكم الإسلامي على حقيقته " [3].

(١) هي : هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس القرشي ، أم معاوية رضي الله عنه ، كان لها دور في قتل حمزة t وأسلمت عام الفتح ، انظر: الإصابة لابن حجر ٤/ ٤٢٥ .

(٢) مطاعن سيد قطب : للمدخلي ص ١٣، ١٤ .

(٣) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٥٤- ١٥٥ بتصرف، حيث يلاحظ أن الفقرة التي انتقدها محمود شاكر - رحمه الله- حذفها سيد بأكملها في الطبعة المعدلة .

رقم الفقرة	نص الفقرة في الطبعة الخامسة قبل التعديل وفي رسالة محمود شاكر – رحمه الله -	نص الفقرة في الطبعات المعدلة
(٣)	"ولسنا ننكر على معاوية في سياسة الحكم ابتداعه نظام الوراثة وقهر الناس عليها فحسب !! إنما ننكر عليه أولًا وقبل كل شيء إقصاء العنصر الأخلاقي في صراعه مع علي ، وفي سيرته في الحكم بعد ذلك إقصاءً كاملًا لأول مرة في تاريخ الإسلام . فكانت جريمة معاوية الأولى التي حطمت روح الإسلام في أوائل عهده هي نفي العنصر الأخلاقي من سياسته نفيًا باتًا ، ومما ضاعف الجريمة أن هذه الكارثة باكرت الإسلام ، ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سننه الرفيعة . ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر وعلى أيدي عثمان ومروان .. ثم على أيدي الملوك من بين أمية ... ومن بعدهم من بني العباس ، بعد أن خنقت روح الإسلام خنقًا على أيدي معاوية وبني أمية[1]	– في الطبعة المعدلة حذف سيد – رحمه الله– أول فقرة وهي قولة " ولسنا ننكر على معاوية ... إلى قوله .. سننه الرفيعة " وأثبت فقط من قوله: ولكي ندرك مع تعديل فيها على النحو الآتي: " ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر وعلى أيدي عثمان ومروان ، وعلى أيدي علي الإمام ثم على أيدي الملوك من بني أمية ، ومن بعدهم من بني العباس ، بعد هذه الهزة المبكرة في تاريخ الإسلام " . [2]

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة – د/ المدخلي ص ١٤ .
(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٥٦.

(٤)	" ومضى علي إلى رحمة ربه ، وجاء معاوية ابن هند وابن أبي سفيان ، فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته كانت تقف حاجزًا أمام أمية، لقد أنهار هذا الحاجز، وانساح ذلك السد، وارتدت أمية طليقة حرة إلى وراثتها في الجاهلية والإسلام ، وجاء معاوية تعاونه العصبة التي على شاكلته، وعلى رأسها عمرو بن العاص ، قوم تجمعهم المطامع والمآرب وتدفعهم المطامح والرغائب ، ولا يمسكهم خلق ولا دين ولا ضمير " ، " ولا حاجة بنا للحديث عن معاوية ، فنحن لا نؤرخ له هنا ، وبحسبنا تصرفه في توريث يزيد الملك ، لنعلم أي رجل هو !! ثم بحسبنا سيرة يزيد لنقرر أي جريمة كانت تعيش في أسلاخ أمية على الإسلام والمسلمين " ثم ينقل خطبة يزعم أنها لمعاوية في أهل الكوفة بعد الصلح يقول فيها: " وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين " ويعقب عليه بأن الله أمر بالوفاء بعهود المشركين المعاهدين ، ثم يقول أما معاوية فيخسيس بعهده للمسلمين ويجهر بهذه الكلمة جهرة المتبجحين ، إنه من أمية التي أبت نحيزتها أن تدخل في حلف الفضول " (١).	" عدّل سيد – رحمه الله – الفقرة جذريًا في الطبعة المنقحة ونصها: " ومضى علي إلى رحمة ربه ، وجاء بنو أمية ، فلئن كان إيمان عثمان وورعه ورقته ، كانت تقف حاجزًا أمام أمية ، لقد انهار هذا الحاجز، وانفتح الطريق للانحراف .... ثم تحدث عن انحراف ملوك بني أمية وبني العباس في سياسة المال وتصريفه والهبات لمن لا يستحق ، باستثناء عهد عمر بن عبد العزيز الذي أعاد الأمر إلى ما كان عليه في عهد الخلافة الراشدة ، في الحكم والمال ، وذكر نماذج من سيرة عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- في رده للمظالم وعدله في حكمه ، ثم قال " وإذا كنا لا نؤرخ هنا للدولة الإسلامية ، ولكن الروح الإسلامي في الحكم ، فإننا نكتفي في إبراز مظاهر التحول والانحسار في هذا الروح بإثبات ثلاث خطب من عهد الملوك وبموازنتها بالخطب الثلاث التي سبقت في عهد الخلفاء تبين الفارق العميق . ثم ذكر خطبة معاوية في أهل الكوفة بعد الصلح، وفيها ".. إلا أن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدميهاتين" وحذف التعقيب الموجود في الطبعة السابقة كاملاً (٢).

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٤- ١٥ بتصرف يسير .

(٢)العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٦٤- ١٦٧ بتصرف م.

(٥)	ثم يذكر خطبه أخرى لمعاوية في أهل المدينة " أما بعد فإني والله ما وليتها بيعة بمحبة علمتها منكم " ثم يعلق بقوله " أجل !! ما وليها بمحبة منهم، وإنه ليعلم أن الخلافة بيعة الرضا في دين الإسلام ولكن ما لمعاوية وهذا الإسلام، وهو ابن هند وابن أبي سفيان !! " [١] .	- يذكر خطبته في أهل المدينة فقط، ويحذف التعقيب كاملا من قوله "أجل!! " إلى نهاية الفقرة.[٢]
(٦)	يقول : " وأما معاوية بعد عليٍّ فقد سار في سياسة المال سيرته التي ينتفي منها العنصر الأخلاقي، فجعله للرشى واللهى وشراء الأمم (ولعله الذمم) في البيعة ليزيد وما أشبه هذه الأغراض،بجانب مطالب الدولة والأجناد والفتوح بطبيعة الحال" [٣].	" فأما بنو أميه فقد ساروا في سياسة المال سيرة أخرى، حتى كان عمر عبد العزيز، فصنع الذي أسلفنا من رد المظالم، وفي الكف عن بعثرة أموال المسلمين في غير حقها، فلم يكن لبني أميه إلا ما لسائر الناس، ولم يكن للمتملقين والملهين نصيب في هذا المال ، فقد انقطع عن الشعراء المداح"[٤] . حيث يلاحظ حذف الفقرة المنتقدة كاملة، وتعديل فكرتها تمامًا كما في النص .

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٢

(٢)العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٦٨ .

(٣)مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٥ .

(٤) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٧٦ .

(٧)	" هذا هو الإسلام، على الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولى من غلبة أسرة لم تعمر روح الإسلام نفوسها، فأمنت على حرف حين غلب الإسلام، وظلت تحلم بالملك الموروث العضوض حتى نالته، فسارت بالأمر سيرة لا يعرفها الإسلام " (١) .	" وهذا هو الإسلام على الرغم مما اعترض خطواته العملية الأولى، من انحراف في تصور معنى الحكم وسياسة المال التي كانت له آثار ضخام .. " (٢) . والفرق بين الفقرتين واضح .
(٨)	" أبو سفيان هو ذلك الرجل الذي لقي الإسلام منه والمسلمون ما حفلت به صفحات التاريخ والذي لم يسلم إلا وقد تقررت غلبة الإسلام، فهو إسلام الشفة واللسان، لا إيمان القلب والوجدان، وما نفذ الإسلام إلى قلب ذلك الرجل ... " (٣) .	محذوفة كلها في الطبعة المعدلة.
(٩)	" ولقد كان أبو سفيان يحلم بملك وراثي في بني أمية منذ تولى عثمان.. "(٤).	محذوفة كلها في الطبعة المعدلة.
(١٠)	" ذلك أبو معاوية، فأما أمه هند بنت عتبة فهي تلك التي وقفت يوم أحد تلغ في الدم إذ تنهش كبد حمزة كاللبؤة المتوحشة... " (٥) .	محذوفة تماما في الطبعة المعدلة" (٦) .

(١) مطاعن سيد قطب في الصحابة د/ المدخلي ص ١٦ .
(٢) العدالة الاجتماعية سيد قطب ص ١٨١ .
(٣) مطاعن سيد قطب في أصحاب النبي ﷺ : د/ المدخلي ص ١٦ .
(٤) المصدر السابق : د/ المدخلي : ص ١٦ .
(٥) مطاعن سيد قطب في أصحاب النبي ﷺ : ص ١٧ .
(٦) انظر العدالة الاجتماعية: ص ١٧٦ وما بعدها حيث حذفت العبارات ٨-١٠ منها .

هذه هي النقاط العشر التي انتقدها الشيخ محمود شاكر- رحمه الله - على سيد قطب في الرسالة التي أوردها الدكتور المدخلي في مقدمة كتابه: " مطاعن سيد قطب في أصحاب رسول الله ﷺ " ، وكما لاحظنا من خلال المقارنة بينها وبين الطبعة التي عدلها سيد قطب فيما بعد أن سيدًا حذف ما كان أساء فيه، وعدل بعض الألفاظ عما كانت عليه في الطبعة السادسة، ولا أدري لماذا يصر الدكتور المدخلي على وصف حذف سيد - رحمه الله- لما انتقده عليه محمود شاكر كما رأينا في الجدول السابق بأنه تلاعب بالألفاظ مع بقاء المعنى والمضمون مع أن القارئ المنصف يجد أن التعديل جذري بحذف العبارات والجمل المنتقدة، أو تعديلها لتعطي معنى مغايرًا، كما سبق بيانه في جدول المقارنة .

وهناك ملاحظة أخرى : وهي أن الدكتور المدخلي وبعد أن أورد رسالة محمود شاكر - رحمه الله - في نقده لسيد، أورد رسالة من سيد - رحمه الله - لأحد أصدقائه حول ما كتبه محمود شاكر من انتقادات لكتاب العدالة الاجتماعية، وفيها كلام حول نقد شاكر له، بين فيها سيد قطب أن سبب كلامه في معاوية وبني أمية، ليس عداءً شخصيًا، وليس سبًا للصحابة، وسوء نية في تدنيس المسلمين، إنما كان محاولة منه لبيان انحراف سياسة الحكم والمال عما كانت عليه في عهد الخلافة الراشدة، ومحاولة تبرئة الإسلام من ما يلصقه به أعداؤه من التهم بسبب انحرافات الحكام من بني أمية في سياستهم في الحكم والمال . (١)

وهذه الرسالة نشرها سيد -رحمه الله- في مارس عام "١٩٥٢م " ، أي في نفس الفترة التي نُشِرَ فيها نقد العلامة محمود شاكر -رحمه الله-.

ومع أننا لا نوافق سيدًا في العبارات التي انتقده فيها محمود شاكر، ولا في التبريرات التي ذكرها في رسالته حول نقد شاكر له، إلا أننا يجب أن نذكر أن- سيدًا- عدل ما انتقده فيه محمود شاكر بعد "١٢ عامًا "، مما يعني أن سيدًا تحول عما كان عليه في موقفه من انتقاد شاكر له، وبالتالي فلا يصح أن ندندن كثيرًا حول رفض سيد قطب لانتقاد شاكر مادام الأمر قد أصبح في خبر كان، والأولى النظر في

(١) تنظر الرسالة في : مطاعن سيد قطب د/ المدخلي ص ٢٥-٢٩ .

ما استقر عليه سيد – رحمه الله– في كتابه بعد التعديل، ونقده فيما اخطأ فيه.

ثانيًا : مقارنة بين ما ذكره المدخلي في كتبه وبين الطبعة المعدلة لكتاب العدالة الاجتماعية :

ذكر الدكتور / المدخلي في كتبه الثلاثة حول سيد قطب انتقادات لما جاء في كتاب العدالة مما يتعلق بالإساءة إلى الصحابة – رضوان الله عليهم – والطعن فيهم، وقبل أن أورد جدولًا للمقارنة بين العبارات الموجودة في كتب الدكتور/ المدخلي وبين ما في العدالة الاجتماعية، أود التذكير بما سبق من أن الدكتور / المدخلي اتخذ منهجًا في معالجة الموضوع يقوم على الاعتماد على الطبعة الخامسة " قبل التعديل " ونقل النصوص منها وجعلها هي " النسخة الأم !! " مع علمه بأن سيد – رحمه الله– عدلها في الطبعة السادسة أو حذفها منها، واكتفى بالإشارة في الهامش بعد كل فقرة بقوله: " صفحه كذا الطبعة الخامسة، ومعناه في صفحة كذا الطبعة الثانية عشرة – أي المعدلة – [١] .

وأحيانا ينقل في الهامش التعديل ويعقب عليه بقوله: " ما هو إلا تغيير للفظ مع الحفاظ على المعنى "[٢].

وأحيانا ينقل من الثانية عشرة ما لم يكن من الألفاظ في الخامسة ،وأحيانا العكس – كما يعمل المحقق لنسخ المخطوطة [٣]. ولا أدري ما هو السبب الذي حمله على فعل ذلك، مع أن الأصل في المنهج العلمي والنقدي أن يُعتمد الرأي الأخير الذي استقر عليه المؤلف وينقد أو يناقش ولا يمنع ذلك من الإشارة إلى رأيه السابق إن كان لا يوجد بينه وبين الجديد خلاف .

وفيما يأتي جدول يبين النقولات التي أوردها الدكتور المدخلي في كتبه، مقارنة بما هو في الطبعة المعدلة من العدالة الاجتماعية لسيد قطب :

---

(١) انظر أمثلة لذلك في : " أضواء إسلامية " د/ المدخلي هوامش الصفحات ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٨، ٣٩ و" مطاعن سيد قطب " هوامش الصفحات ٦٦، ١١٤، ١٦٤ .

(٢) أضواء إسلامية: هوامش الصفحات ٤٣، ٤٤ و " مطاعن سيد قطب " ص ٦٦ هامش ٣، ص ١٠٨ هامش ١، ص ٢٠٧ هامش ٢ .

(٣) مطاعن سيد قطب : ص ٦٦ هامش ١، ص ٦٧ هامش ٢، ص ٩٩ هامش ٢، ص ١١٧ هامش ١ .

	الفقرة قبل التعديل	بعد التعديل
(١)	" وفي سبيل تبرئة الإسلام – روحه ومبادئه – من ذلك النظام الذي ابتدع ابتداعًا في الإسلام نقرر هذه الحقائق لتكون واضحة في تصور الحكم الإسلامي على حقيقته. ومما ضاعف الكارثة أن هذا الانحراف باكر الإسلام ولم تنقض إلا ثلاثون سنة على سننه الرفيعة، فلم تتح له فرصة الثبات والاستقرار وتكوين التقاليد العميقة والأوضاع النظامية التي يصعب فيما بعد الخروج عليها وهو سوء حظ ولا شك فيه ولكنه في الواقع ليس المصادفة السيئة الأولى،فلقد كانت أسوأ مصادفة هي : تأخير علي وتقديم عثمان وهو شيخ ضعيف، وتسلم مروان بن الحكم الأموي مقاليد السلطة، فلو شاء حسن الطالع أن يتقدم علي بعد الشيخين لاستمرت تقاليد الإسلام فترة أخرى، ولاستطردت موجته عهدًا ثالثًا، ولكان غير ما كان من طمس روح الإسلام، فإن استقرار التقاليد الإسلامية فترة أخرى وقيام أوضاع نظامية محدودة من شأنه أن يجعل النكسة أصعب على من يحاولها، ولكي ندرك عمق هذه الحقيقة يجب أن نستعرض صورًا من سياسة الحكم و " المال " في العهود المختلفة على أيدي أبي بكر وعمر وعلى أيدي عثمان ومروان، وعلى أيدي علي الإمام، ثم على أيدي الملوك من بني أمية ومن بعدهم من بني العباس بعد أن خفقت روح الإسلام " [١]	حذف سيد – رحمه الله– الفقرة التي تحتها خط من قوله: "ومما ضاعف الكارثة..... إلى – أصعب على من يحاولها – "وعدل في الفقرة الأخيرة قوله " بعد أن خفقت روح الإسلام" إلى " بعد هذه الهزة المبكرة في تاريخ الإسلام " . [٢]

(١) مطاعن سيد قطب/ للمدخلي ص٦٥، وقد نقلها عن الطبعة الخامسة من العدالة الاجتماعية ص١٨٢، وكلمة "المال" أضافها من الطبعة الثاني عشرة المعدلة وأشار في هامش إلى ذلك !!! .

(٢) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٥٥-١٥٦ .

(٢)	" لقد اتسعت رقعة الإسلام فيما بعد، ولكن روحه انحسرت بلا جدال وما قيمة الرقعة إذا انحسرت الروح ؟! ولولا قوة كامنة في طبيعة هذا الدين، وفيض عارم في طاقته لكانت أيام أمية كفيلة بالقضاء عليه القضاء الأخير "(١).	حذف الجملة الأولى التي تحتها خط وعدل الأخيرة بقوله "لكانت أيام أمية كفيلة بتغيير مجراه الأصيل "(٢).
(٣)	" هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئا ما بدون شك على عهد عثمان، ولقد كان من سوء الطالع أن تدرك الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ضعفت عزيمته عن عزائم الإسلام وضعفت إرادته عن الصمود لكيد مروان، وكيد أمية من ورائه . فهم عثمان – رحمه الله – أن كونه إمامًا يمنحه حرية التصرف في مال المسلمين بالهبة والعطية، فكان رده في كثير من الأحيان على منتقديه في هذه السياسة " وإلا ففيم كنت إماما ؟!" كما يمنحه حرية أن يحمل بني معيط وبني أمية –من قرابته – على رقاب الناس، وفيهم الحكم طريد رسول الله ﷺ لمجرد أن من حقه أن يكرم أهله ويبرهم ويرعاهم "(٣).	" هذا التصور لحقيقة الحكم قد تغير شيئا ما بدون شك على عهد عثمان – وإن بقي في سياج الإسلام – ولقد أدركت الخلافة عثمان وهو شيخ كبير، ومن ورائه مروان بن الحكم يصرف الأمور بكثير من الانحراف عن الإسلام، كما إن طبيعة عثمان الرخية، وحدبه الشديد على أهله، قد ساهم كلاهما في صدور تصرفات أنكرها الكثيرون من الصحابة من حوله، وكانت لها معقبات كثيرة، وآثار في الفتنة التي عانى منها الإسلام كثيرًا "(٤). حيث حذف الجملة ابتداء من قوله "فهم عثمان –رحمه الله – أن كونه إماما....إلى أخرها." ومع ذلك يثبتها المدخلي في أكثر من مكان من كتبه نقلا عن الطبعة السابقة للتعديل.

(١) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ٨٢– ٨٦، حيث نقله من الطبعة الخامسة قبل التعديل، وأضواء إسلامية ص ٥٣ .

(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٦٤.

(٣) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ٨٩ وأضواء إسلامية للمدخلي ص ٣٢.

(٤) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٥٩، وقد أشار إليها المدخلي في هامش ص ٨٩ من كتاب المطاعن .

(٤)	"ولقد كان الصحابة يرون هذا الانحراف عن روح الإسلام، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ الإسلام، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته وهرمه لا يملك أمره من مروان، وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ، الذي هو خطا المصادفة السيئة في ولايته الخلافة وهو شيخ موهون تحيط به حاشية سوء من أميه " . [١]	-" ولقد كان الصحابة يرون هذه التصرفات الخطيرة العواقب، فيتداعون إلى المدينة لإنقاذ الإسـلام ، وإنقاذ الخليفة من المحنة، والخليفة في كبرته لا يملك أمره مـروان، وإنه لمن الصعب أن نتهم روح الإسلام في نفس عثمان، ولكن من الصعب كذلك أن نعفيه من الخطأ، الذي نلتمس أسبابه في ولاية مروان الوزارة في كبرة عثمان " . [٢]

(٥)	تحت عنوان: سيد قطب يرى أن الثورة التي قادها ابن سبأ اليهودي أقرب إلى روح الإسلام من عثمان بن عفان ! ينقل نصًا من الطبعة الخامسة وفيه " وأخيرًا ثارت الثائرة على عثمان واختلط فيها الحق بالباطل، والخير بالشر، ولكن لابد لمن ينظر إلى الأمور بعين الإسلام، و يستشعر الأمور بروح الإسلام أن يقرر : أن تلك الثورة في عمومها كانت أقرب إلى روح الإسلام، واتجاهه من موقف عثمان، أو بالأدق من موقف مروان ومن ورائه بنو أميه " [٣] .	- عدل فيها سيد ما تحته خط بقوله: " أن يقرر أن تلك الثورة في عمومها كانت فورة من روح الإسـلام . وذلك دون إغفال لما كان وراءها من كيد اليهودي ابن سبأ لعنه الله!" [٤].

(١) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ١٠٨، نقله من الخامسة، ثم أشار في الهامش إلى أن سيدًا أو غيره تحايل فحذف هذه التهم الأولى، وأبقى معناها ومضمونها، وقد غير بعض الألفاظ في النص محافظا على معناه، ثم ذكر ما في الطبعة المعدلة . وينظر أيضًا: أضواء إسلامية ص ٣٤ .

(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٥٩- ١٦٠.

(٣) مطاعن سيد قطب ، للمدخلي ص ١١٤، ويقول في الهامش وقد تغير هذا النص شيئًا من التغيير، مع الإصرار على مضمونه ، و أضواء إسلاميه ص ٣٤، ٤٥ .

(٤) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٦٠- ١٦، ١٧٤.

(٦)	واعتذرنا لعثمان - رحمه الله - أن المصادفات السيئة قد ساقت إليه الخلافة متأخرة فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين، واهن القوى ضعيف الشيخوخة ....."[١].	واعتذرنا لعثمان -رحمه الله - أن الخلافة قد جاءت إليه متأخرة، فكانت العصبة الأموية حوله وهو يدلف إلى الثمانين" [٢] حيث حذف قوله " واهن القوى ضعيف الشيخوخة ".
(٧)	" جاء عثمان فلم ير أن يأخذ بالعزيمتين أو أحدهما، ترك الفضول لأصحابها .. وترك الأعطيات .. ووسع على الناس..... فإذا عهد من عهود الإقطاع يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده يرحمه الله " [٣].	عدل فيها ما تحته خط بقوله: " فإذا نوع من الفوارق المالية الضخمة يسود المجتمع الإسلامي في نهاية عهده -رحمه الله -" [٤].
(٨)	- " ولقد كان ذلك برًا ورحمه بالمسلمين وبكبرهم خاصة ولكنه أنشأ شرًا عظيمًا لم يكن خافيًا على فطنة أبي بكر وعمر بعده، أنشأ الفوارق المالية والاجتماعية الضخمة في الجماعة الإسلامية، كما أنشأ طبقة ارستقراطية فارغة يأتيها رزقها من كل مكان دون كدٍ ولا تعب " [٥].	حذف منها ما تحته خط فأصبحت " كما أنشأ طبقه تأتيها أرزاقها من كل مكان دون كد ولا تعب " [٦].

(١)مطاعن سيد قطب / للمدخلي ص ١١٥، وأضواء إسلاميه ص ٣٥ . وكلاهما منقول من الطبعة الخامسة قبل التعديل .

(٢)العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٦١ .

(٣) مطاعن سيد قطب / للمدخلي ص ٢٠٢ وأضواء إسلاميه ص ٤٣، مع الإشارة في الهامش إلى أن سيدًا غير بعض الألفاظ مع بقاء المعنى .

(٤) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٧٣.

(٥)مطاعن سيد قطب / للمدخلي ص ٢١٥.

(٦) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٧٣.

(٩)	فلما أن جاء علي لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه في هوادة، وقد علم المستنفعون على عهد عثمان وبخاصة من أمية، أن عليًا لن يسكت عليهم فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية. - ولو قد جاء علي عقب عمر ما كان لهم إلى هذا الانحياز من سبيل، فقوة معاوية يوم ذاك لم تكن تصمد لقوة الخلافة، ولا لقوة الروح الدينية في النفوس وما كان معاوية ليخاطر بالخروج على الخليفة كما خرج ،فإن ثلاثة عشر عامًا من حكم عثمان هي التي جعلت من معاوية معاوية، إذ جمعت له قوة المال وقوة الجند وقوة الدولة في الأقطار الأربعة بالشام .. إنها المحنة الحقة أن عليا لم يكن ثالث الخلفاء ! "(١)	حذف سيد - رحمه الله- الفقرة كاملة في الطبعة المعدلة ابتداءً من قوله "ولو قد جاء علي عقب عمر - إلى آخر الفقرة (٢)

(١) أضواء إسلامية ، للمدخلي ص ٣٨ نقله من الطبعة الخامسة قبل التعديل، وأشار في الهامش إلى أن ملخصه في الطبعة الثانية عشر المعدلة، وينظر أيضًا الحد الفاصل : ص ١٣٠ .

(٢) العدالة الاجتماعية: ص ١٦١ .

obeikandl.com

(١٠)	والذين يرون في معاوية دهاءً وبراعةً ولا يرونها في علي، ويعزون إليهما غلبة معاوية في النهاية، إنما يخطئون تقدير الظروف كما يخطئون فهم علي وواجبه، لقد كان واجب علي الأول والأخير : أن يرد للتقاليد الإسلامية قوتها، وأن يرد إلى الدين روحه وأن يجلو الغاشية التي غشت هذا الروح على أيدي أمية في كبرة عثمان ووهنه، ولو جارى معاوية في إقصاء العنصر الأخلاقي من حسابه لسقطت مهمته ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة في حياة هذا الدين، فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية ؟ إن عليا إما أن يكون عليًا، أو فلتذهب الخلافة عنه، بل فلتذهب حياته معها وهذا هو الفهم الصحيح الذي لم يغب عنه-كرم الله وجهه- وهو يقول : " والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس "[1].	حذف سيد - رحمه الله- الكلمات التي تحتها خط "ووهنه " ،" فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية "، وعدل قوله " فلو جارى معاوية...، بقوله " فلو جارى وسائل بني أمية في المعركة لبطلت مهمته الحقيقية". - وزاد عند ذكره الرواية عن علي قوله " فيما روي عنه إن صحت الرواية " .[2]
(١١)	ومما انتقده المدخلي على سيد أنه ساق التوارث ومنها ثورة القرامطة مساق الاعتزاز والتباهي، ونقل نصًا من الطبعة الخامسة، ليس موجودًا في الطبعة المعدلة[3] .	حذف سيد كلامه حول الثوارت من الطبعة المعدلة .

(١) أضواء إسلامية: ص ٤١ نقلها من الطبعة الخامسة والمعدلة.
(٢) العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص ١٦٣- ١٦٤.
(٣) أضواء إسلامية: ص ٤٦.

وعموما فهذه نماذج لمنهج الدكتور/ ربيع المدخلي في جميع كتبه في قضية نقده لسيد قطب واعتماده على فقرات من الطبعة القديمة رغم أن المعدلة بين يديه، ولا يعني ذلك أن سيدًا لم يخطئ بل نوافق المدخلي في بعض العبارات التي انتقدها على سيد - رحمه الله- في حديثه عن بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - والتي كان الأولى بسيد - رحمه الله- حذفها أو تعديلها .

الفرع الثالث :موقف سيد قطب من الصحابة في كتبه الإسلامية الأخيرة:

ذكرنا سابقًا أن سيد - رحمه الله- مر بمراحل مختلفة، وكانت كتاباته مختلفة أيضًا في كل مرحلة، وإذا كنا قد استعرضنا في الفرعين السابقين ما كتبه سيد - رحمه الله- في بعض كتبه الأدبية والفكرية التي ألفها في بداية تحوله نحو الإسلام، فإن من الواجب أن ننظر في كتبه الإسلامية الأخيرة وما يتعلق بموقفه من الصحابة - رضوان الله عليهم - عمومًا و الصحابة الذين تكلم فيهم في كتبه السابقة خصوصًا، لنعرف هل عدَّل سيد- رحمه الله- موقفه منهم، أم ما يزال هو هو ؟ وبيان ذلك فيما يلي :

أولًا: موقف سيد قطب من الصحابة عمومًا :

استعرضنا في المطلب الأول من هذا المبحث مكانة الصحابة - رضوان الله عليهم - من خلال كلام سيد - رحمه الله- في ظلال الآيات التي تحدثت عن مكانة الصحابة في هذا الدين وفضائلهم ونستطيع هنا أن نلخص رؤية سيد - رحمه الله- لمكانة الصحابة عمومًا فيما يأتي :

١- الصحابة هم الصفوة المختارة من البشر، الذين رفعهم الله، ورفع من شأنهم - حتى أنهم يبادلونه الرضى والحب .

٢- وعد الله لهم بالجنة والفوز [١] .

٣-الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا أهل صدق وحمية لدينهم وطاعة لربهم ونبيهم وبالتالي حصلوا على رضوان الله عنهم، وتكريم الله لهم. [٢]

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٧٠٥-١٧٠٦ بتصرف يسير .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٣٢٥- ٣٣٢٦ بتصرف .

٤- تكريم الله لهم في مدحه وتصويره لظاهرهم وباطنهم بما يدل على عظمتهم وحب الله لهم، فهم أخلص العباد ولاءً وبراءً، وهم أعبد الناس لربهم وأحرص الخلق على رضوانه سبحانه وإثبات مكانتهم في الكتب السابقة والأديان الأولى، قبل أن يظهروا إلى الوجود.[١]

٥- إشادة سيد - رحمه الله- بالقاعدة الصلبة لهذه الأمة والمتمثلة بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ووصفهم بأنهم لم تشهد البشرية مثلهم في إيمانهم وبذلهم وصدق أخوتهم وشرف صحبتهم لرسول الله ﷺ.[٢]

٦- تميز جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - مع تفاوت الأفراد في هذا الجيل حيث يقرر-سيد - ما عليه أهل السُّنَّة في أن أفضل الصحابة - رضوان الله عليهم - هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ثم أهل بدر ثم أصحاب بيعة العقبة، ثم الذين أنفقوا وجاهدوا قبل الفتح، ثم مسلمة الفتح "[٣]. ومع هذا إلا أن الله وعد جميع الصحابة بالحسنى ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ على تفاوت ما بينهم[٤].

٧- أن الصحابة هم الجيل الذين صنعوا على عين الله، وتربوا على يد رسول الله ﷺ فهم جيل مميز من بين البشر، عايشوا النبي ﷺ وسدد الوحي خطواتهم أولًا بأول استقوا من النبع الصافي - الوحي - فكانوا جيلًا فريدًا في تاريخ البشرية[٥].

٨- جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - أصدق الناس إيمانًا وتضحيةً وثباتًا في مواجهة الأهوال والأخطار، وتصديقًا لما جاء به الرسول ﷺ[٦].

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٣٣١-٣٣٣٣ بتصرف.
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٦، ٣٤٨٣.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٥٧٠- ١٥٧٦، ١٧٠٣ -٠١٧٠٥.
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٤٨٤.
(٥) المصدر السابق ٣/ ١٤٢٣، ٤/ ٢٤٩٤، ٦/ ٣٤٨٣ ومعالم في الطريق: ص ١٥-١٧ هذا الدين: ص ٤٢، ٤٣.
(٦) في ظلال القرآن ٢/ ٩٩٨، ٣/ ١٥٧١، ١٧٠٣، ١٧١٦، ٦/ ٣٣٢٦، ٣٤٨٤.

٩- وعمومًا فسيد قطب يرى أن جيل الصحابة - رضوان الله عليهم - " جيل قرآني فريد " لم ولن تشهد الحياة تكرر جيل مثله بتلك الصورة وبذلك التجمع .

هذا مجمل ما جاء في كلام سيد - رحمه الله- في كتبه الأخيرة عن جيل الصحابة إجمالا.

ثانيًا : الخلفاء الراشدون ومكانتهم :

تحدث سيد قطب في " الظلال والمعالم " وغيرها عن الخلفاء الراشدين الأربعة حديث المعظم لهم والموقر لمكانتهم، ويمكن الإشارة إلى بعض فضائل الخلفاء الراشدين التي ذكرها سيد قطب فيما يأتي:

أ- فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وبعض صفاته:

أشار- سيد- إلى عدد من فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في مواطن متفرقة يمكن إجمالها فيما يلي:

١- " أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أكرم من أقلت الأرض بعد رسول الله ﷺ"[(١)]، وأعرف أصحاب رسول الله ﷺ بروح الإسلام"[(٢)].

٢- صدق إيمانه وقوة يقينه وثباته في مواطن الخطر: والأمثلة على ذلك في حياة الصديق - رضي الله عنه - كثيرة جدًا منها:

* ثباته على الأذى في مكة : يقول سيد:" فلقد كان أبو بكر الصديق- رضي الله عنه - يردد والمشركون يتناولونه بالأذى، ويضربون وجهه الكريم بالنعال المخصوفة يحرفونها إلى عينيه ووجهه حتى تركوه وما يعرف له فمٌ من عين! كان يردد طوال هذا الاعتداء المنكر الفاجر على أكرم من أقلت الأرض بعد رسوّل الله ﷺ : " رب ما أحلمك! رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! " كان يعرف في قرارة نفسه ما وراء هذا الأذى من حلم ربه ! لقد كان واثقًا أن ربه لا يعجز عن التدمير على أعدائه، كما

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١٦.
(٢) معركة الإسلام والرأسمالية: ص ٧١.

كان واثقًا أن ربه لا يتخلى عن أوليائه !" [١].

موقفه في حادثة الإسراء والمعراج :

عندما حدث رسول الله ﷺ الناس بما وقع له في الإسراء والمعراج تفاوتت مواقفهم " بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبًا وإنكارًا، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر - رضي الله عنه - فقال : أو قال ذلك ؟ قالوا نعم . قال: فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: فتصدقه في أن يأتي الشام في ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح ؟ قال: نعم أنا أصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء! فسمي الصدّيق " [٢]. " وقد صدق أبو بكر - رضي الله عنه - وهو يرد المسألة المستغربة المستهولة عند القوم إلى بساطتها وطبيعتها فيقول : إني لأصدقه بأبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء ! " [٣].

موقفه في الغار في حادثة الهجرة :

وهذا الموقف من مواقف الصديق - رضي الله عنه - سجله القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾[٤]، وذلك حين ضاقت قريش بمحمد ﷺ ذرعًا كما تضيق القوة الغاشمة دائما بكلمة الحق ، لا تملك لها دفعًا ، ولا تطيق عليها صبرًا ، فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه، فأطلعه الله على ذلك ، وأوحي إليه بالخروج ، فخرج وحيدًا إلا من صاحبه الصدّيق .. والسياق يرسم مشهد الرسول ﷺ وصاحبه " إذ هما في الغار " والقوم على إثرهما يتعقبون ، والصديق - رضي الله عنه - يجزع - لا على نفسه ولكن على صاحبه - أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب، يقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على قلبه ، يهدئ من روعه ويطمئن من

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤١٦ .
(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢١٠ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٢١١ .
(٤) سورة التوبة : الآية ٤٠ .

قلبه فيقول له : " يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ " (١).

موقفه في بدر وأحد والحديبية وغيرها من المشاهد :

حيث يتجلى صدق إيمانه ويقينه بربه سبحانه في موقفه مع النبي ﷺ وهو يناشد ربه، حيث جاء في الحديث : " إن النبي - ﷺ - قال وهو في قبة له يوم بدر : " أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبدًا " فأخذ أبو بكر - رضي الله عنه - بيده ، وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ! فخرج وهو يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (٢)، (٣).

وفي رواية أخرى :أن النبي ﷺ نظر يوم بدر إلى أصحابه وهم ثلاث مائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال : " اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدًا " قال : فما زال يستغيث ربه ويدعوه ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فردّاه ، ثم ألتزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (٤)، (٥).

كما روي أنه - رضي الله عنه - هم بقتل ولده عبد الرحمن وكان مع المشركين في بدر. (٦)

- أما في أحد فقد انقلبت المعركة على المسلمين ووقع الهرج في صفوفهم، وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا نفر من أصحابه يعدون على الأصابع يدافعون عنه، وفيهم أبو بكر وعمر وبعض الأنصار" (٧).

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٥٦ والحديث في الصحيحين ،وقد سبق تخريجه .
(٢) رواه : البخاري ي الجهاد باب ما قيل في درعه - ﷺ - ٣/ ١٠٦٧ برقم ٢٧٥٨ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ٣٤٣٥ .
(٤) رواه : مسلم في الجهاد باب الإمداد باللائكة في بدر ٣/ ١١٠٩ برقم ١٧٦٣ .
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٨٣ .
(٦) المصدر السابق ٦/ ٣٥١٥ .
(٧) في ظلال القرآن ١/ ٤٦٢ .

أما في الحديبية فقد كان موقفه - ﷺ - موقف المؤمن بربه، المستسلم لنبيه ﷺ فعندما راجعه عمر - ﷺ - في شأن الصلح مع المشركين ، قال له أبو بكر - ﷺ - : إلزم غرزه ،(١) فإني أشهد أنه رسول الله "(٢)، ففي موقفه هذا - ﷺ - نرى اليقين والقبول الخالص العميق، فالصديق أبي بكر - ﷺ - لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها بروح رسول الله ﷺ ومن ثم بقيت على اطمئنانها دائمًا ، ولم تفارقها الطمأنينة أبدًا "(٣) .

- ومن مواقف ثباته ورسوخه أيضًا ما جاء في الصحيحين وغيرها : بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير تحمل طعاما، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلًا من الراسخين منهم أبو بكر وعمر - ﷺ "(٤) .

ثباته يوم وفاة النبي ﷺ :

" فلقد أصيب المسلمون - عند موت النبي ﷺ بالدهشة والذهول، حتى لقد وقف عمر - ﷺ - شاهرًا سيفه يهدد به من يقول : إن محمدًا قد مات ! ، ولم يثبت إلا أبو بكر، الموصول القلب بصاحبه وبقدر الله فيه الاتصال المباشر الوثيق، حين ذكرهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٥) فإذا هم يثوبون ويرجعون "(٦) .

ثباته أيام الردة :

ومن ذلك ثباته في قتال المرتدين، حيث وقف وقفته المشهورة وقال قولته الخالدة: "والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه" مخالفًا في ذلك رأي عمر بن الخطاب - ﷺ - الذي كان يرى قبل أن يفيء إلى

(١) إلزم غرزه : أي التزم طريقه، وأصله وضع القدم في الركاب موضعه .
(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٠٩ .
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٣١٢ .
(٤) رواه : البخاري في التفسير - سورة الجمعة ٤/ ١٨٥٩ برقم ٤٦١٦ .
(٥) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .
(٦) في ظلال القرآن ١/ ٤٨٧ بتصرف يسير .

رأي أبي بكر ويشرح الله له صدره ويعلم أنه الحق "[١].

- ومن ذلك أيضًا : إنفاذه جيش أسامة [٢]- رضي الله عنه - وقتال المرتدين ومانعي الزكاة ، يقول سيد - رحمه الله- " وكان من تدبير الله لهذا الأمر أن يليه بعد رسول الله ﷺ صاحبه الأول أبو بكر ، وصاحبه الثاني عمر ، أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الأمر، وأشد اثنين انطباعًا بهدي رسول الله ﷺ وأعمق اثنين حبًا لرسول الله ﷺ وحرصًا على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه .

حفظ أبو بكر رضي الله عنه عن صاحبه ﷺ ما أراده في أمر أسامة، فكان أول عمل له بعد توليه الخلافة هو إنفاذه بعث أسامة على رأس الجيش الذي أعده رسول الله ﷺ وسار يودعه بنفسه إلى ظاهر المدينة، أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل، فيستحي أسامة الفتى الحدث أن يركب والخليفة الشيخ يمشي . فيقول : " يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن " فيقسم الخليفة : والله لا تنزل، ووالله لا أركب " وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة؟

ثم يرى أبو بكر أنه في حاجة إلى عمر، وقد حمل عبء الخلافة الثقيل، ولكن عمر إنما هو جندي في جيش أسامة، وأسامة هو الأمير، فلا بد من استئذانه فيه، فإذا الخليفة يقول: " إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ". . يا لله ! إن رأيت أن تعينني فافعل. . إنها آفاق عوالٍ، لا يرقى إليها الناس إلا بإرادة الله ، على يدي رسول من عند الله !"[٣] .

٣- بذله في سبيل الله تعالى :

بَذْلُ أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في سبيل الله من الأمور المستفاضة والتي تحدث عنها القرآن الكريم والسُّنَّة والتاريخ، فقد كان - رضي الله عنه - من أصحاب السعة والفضل كما سماه القرآن الكريم، ومن ذلك :

---

(١) العدالة الاجتماعية : سيد قطب ص ١٦٩-١٧٠ .

(٢) هو: أسامة بن زيد بن حارثة ، صحابي ابن صحابي ،ولد بمكة ونشأ على الإسلام كان يحبه الرسول ﷺ ١٧ حبًا جمًا ،أمره النبي قبل العشرين من عمره ، توفي سنة ٥٤هـ بالمدينة ، انظر :سير أعلام النبلاء ٦/ ٣٤٢ والأعلام ١/ ٢٩١ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٢٩ وينظر أيضًا : ١/ ٣٣١، ٣/ ١٦٢٩ .

* شراؤه - ﷺ - للموالي : الذين كانوا يعذبون في أول الإسلام وإعتاقهم، ليمنع بذلك تعذيبهم بهذا الإجراء ، وتمتنع فتنتهم عن دينهم، ولا يخفى ما في هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد [١] .

يقول سيد في ظلال قوله تعالى:﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [٢] : " ثبات وطمأنينة واستقامة، ثم أورد سيد - رحمه الله- روايات في أسماء من اعتقهم أبو بكر- ﷺ - من الموالي والعبيد، وكان يريد ما يريد لله، فعندما قال له أبوه: يا بني إني أراك تعتق رقابًا ضعافًا ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالًا جُلدًا يمنعونك ويقومون دونك ! فقال له أبو بكر - ﷺ -: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله. . .

لقد كان- ﷺ - يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية لله، وكانت الملابسات الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة في سبيل الله"[٣] .

" بل إنه-ﷺ - أسلم وله أربعون ألف درهم مدخرة بمكة من ربح تجارته فأنفقها في شراء الموالي،حتى أنه هاجر إلى المدينة وليس له إلا خمسة آلاف درهم"[٤].

إنفاقه على المحتاجين من الفقراء والمهاجرين :

ومن ذلك ما جاء في سورة النور في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٥]، يقول سيد - رحمه الله- : " نزلت في أبي بكر - ﷺ - بعد نزول القرآن ببراءة الصديقة، وقد عرف أن مسطح بن أثاثه كان ممن خاضوا فيه، وهو قريبه، وهو من فقراء المهاجرين، وكان

(١) المصدر السابق ٥/ ٣١٤٣ .
(٢) سورة البلد،الآية :١١-١٣.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٢-٣٩١٣ بتصرف يسير .
(٤) العدالة الاجتماعية : ص ١٥٠ .
(٥) سورة النور : الآية ٢٢ .

أبو بكر - رضي الله عنه - ينفق عليه، فآلى على نفسه لا ينفع مسطحًا بنافعة أبدًا .

فنزلت هذه الآية تذكر أبا بكر ، وتذكر المؤمنين ، بأنهم هم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم، فليأخذوا أنفسهم بعضهم مع بعض بهذا الذي يحبونه ، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقيه ، وإن كانوا قد أخطئوا وأساءوا .

وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية ، التي تطهرت بنور الله، أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - أبي بكر الذي مسه حديث الإفك في أعماق قلبه ، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه، وما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو، وما يكاد يلمس وجدانيه ذلك السؤال الموحي : " ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ " حتى يرتفع على الآلام ، ويرتفع على مشاعر الإنسان ، ويرتفع على منطق البيئة، وحتى تشف روحه وترف وتشرق بنور الله، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق يقول : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، ويحلف : والله لا أنزعها منه أبدًا، ذلك في مقابل ما حلف : والله لا أنفعه بنافعة أبدًا .

بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير ، ويغسله من أوضار المعركة ، ليبقى أبدًا نظيفًا طاهرًا زكيًا مشرقًا بالنور "[1] .

٤- رقته وتحرجه وحساسيته :

كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - رجلًا رقيقًا رحيمًا شديد الحساسية والتأثير، فما أن يسمع الآية من القرآن الكريم حتى تأخذ منه مأخذًا، وقد جاءت روايات متعددة فيها إشارة إلى هذه الصفة من صفات الصديق - رضي الله عنه - منها :

- لما نزل قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾[2]. قال أبو بكر- رضي الله عنه - : " يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية ؟ فكل سوء عملناه جزينا به، فقال النبي ﷺ " غفر الله لك يا أبا بكر . ألست

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٠٤-٢٥٠٥ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٢٣ .

تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ " قال بلى ! قال : " فهو مما تجزون به " ، وفي رواية : " أما أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فإنكم تجزون بذلك في الدنيا ، حتى تلقوا الله ليس لكم ذنوب، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة "[1]،[2] .

- ومن ذلك أيضًا ما جاء في الصحيح :" كاد الخيران أن يهلكا ، أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - رفعا أصواتهما عند النبي - ﷺ - حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس وأشار الآخر بالقعقاع بن معبد، فقال : أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - ما أردت إلا خلافي، قال : ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾[3] قال فما كان عمر - رضي الله عنه - يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه !.. وأما أبو بكر - رضي الله عنه - فقال : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار "يعني كالهمس ! "[4]،[5].

- ومن ذلك بكاؤه - رضي الله عنه - مع النبي ﷺ لما نزلت الآية في شان الأسرى حين استشاره النبي ﷺ في شانهم فقال : يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدًا ، - واستشار عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأشار بقتلهم - فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر فلما كان من الغد - قال عمر - فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما يبكيان ..الحديث " ، وفي رواية أن النبي ﷺ قال : " إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل

---

(١) رواه : أحمد ١/ ١١، والحاكم ٣/ ٧٤ وهو صحيح بشواهده وطرقه ، انظر :مسند أحمد بتحقيق الأرناؤوط ١/ ٢٣٠-٢٣٢ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٦٣ بتصرف يسير .

(٣) سورة الحجرات : الآية ٢ .

(٤) رواه: البخاري في كتاب الاعتصام باب ما يكره في التعمق والتنازع في العلم ٦/ ٢٦٦٢ برقم ٦٨١٢ .

(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٣٩ بتصرف يسير .

إبراهيم - عليه السلام - قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[(١)].

وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى - عليه السلام - : قال: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[(٢)].

وإن مثلك يا عمر كمثل موسى - عليه السلام - قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[(٣)]

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح عليه السلام قال: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[(٤)]، [(٥)]"[(٦)].

- ومنها قول عائشة - رضي الله عنها - للنبي ﷺ لما قال: مُروا أبا بكر فليصل بالناس، إن أبا بكر رجل أسيف، فإذا قام الناس لم يسمعوا صوته "[(٧)].

٥- تواضعه ولين جانبه - رضي الله عنه - : وذكر سيد من ذلك :

* مشيه مع أسامة - رضي الله عنه - عند إنفاذ جيشه راجلا وأسامة راكبا وحلفه عليه ألاَّ ينزل[(٨)].

* إنكاره على بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - [(٩)] كلامهم في شأن أبي سفيان- رضي الله عنه - وإخباره للنبي ﷺ فقال له : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك " فأتاهم أبو بكر - رضي الله عنه - فقال : يا اخوتاه

(١) سورة إبراهيم : الآية ٣٦.
(٢) سورة المائدة : الآية ١١٨ .
(٣) سورة يونس : الآية ٨٨ .
(٤) سورة نوح : الآية ٢٦ .
(٥) رواه:احمد ١٠/ ٣٨٣ والترمذي برقم١٧١٤ وفي سنده ضعف ،انظر:المسند بتحقيق الأرناؤوط ٦/ ١٣٨ وضعيف سنن الترمذي للألباني ص ١٦٤ حديث رقم ١٧١٤.
(٦) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥١-١٥٥٢ بتصرف يسير .
(٧) العدالة الاجتماعية : ص ١٥٣ والقصة في .
(٨) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٢٩ .
(٩) وهم سفيان وصهيب وبلال - رضي الله عنهم - مر بهم أبو سفيان فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها، فقال لهم أبو بكر : أتقولون هذا الشيخ قريش وسيدهم ..الحديث .

أغضبتكم؟ قالوا : لا يغفر الله لك "[١]، [٢].

*عندما سئل عن الكلالة قال : أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد[٣].

* " قوله ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر انطلق بنا إلى أم أيمن - ﷺ - نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتيا إليها بكت، فقالا لها : ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ؟ قالت : بلى ، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها "[٤].

* تواضعه بعد توليه الخلافة: حيث بقي في سكنه في منزله الصغير المتواضع بالقرب من المدينة، وكان يمشي على قدميه إلى المدينة، وكان يعمل في التجارة حتى جعلوا له من بيت المال ما يكفيه ليتفرغ وكان يحلب للضعفاء أغنامهم[٥].

فهذه بعض النصوص التي ذكرها سيد - رحمه الله- عن مواقف وفضائل وصفات أبي بكر الصديق - ﷺ - باعتباره، كما يقول سيد - رحمه الله- واحدًا من الرجال العظام في الجيل الأول في حياة الرسول ﷺ "[٦].

ب- فضائل عمر بن الخطاب - ﷺ - وبعض صفاته :

أشار سيد قطب في مواطن كثيرة إلى فضائل وصفات عمر - ﷺ - ومن ذلك .

١ - أنه هو وأبو بكر - ﷺ - أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الدين :

وأشد اثنين انطباعًا بهدي رسول الله ﷺ ، وأعمق اثنين حبًا لرسول الله ﷺ

---

(١) سبق تخريجه ص ٩٤٩:
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٢ بتصرف يسير .
(٣) تفسير الطبري ،٣/ ٦٢٥-٦٢٦، وفي ظلال القرآن ٢/ ٥٩٤ .
(٤) رواه : مسلم في فضائل الصحابة ، باب فضائل أم أيمن ٤/ ١٥١٦ برقم ٢٤٥٤ .
(٥) العدالة الاجتماعية: ص ١٥٦ بتصرف.
(٦) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٤٤ .

وحرصًا على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه ، فكان من تدبير الله أن يليا الأمر بعد رسول الله ﷺ "[١] .

٢- ثباته وقوته في الحق :

والأمثلة في حياة عمر كثيرة جدًا، تبين مدى ثباته - رضي الله عنه - وصدق إيمانه وقوته في الحق وقد مر معنا في فضائل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - مواقف كان عمر - رضي الله عنه - صاحبه فيها ومن ذلك :

* ثباته مع النبي ﷺ في احد، ورده على أبي سفيان يومذاك "[٢].

*وثباته يوم الجمعة مع أبي بكر والراسخين حين انصرف الناس إلى القافلة [٣].

* قوته أمام أهل الكفر والنفاق ومن ذلك موقفه يوم بدر في شأن الأسرى ، وتمثيل النبي ﷺله بموسى ونوح - عليهما السلام - في شدتهما على أهل الكفر [٤].

* موقفه يوم الحديبية في شأن الصلح ومعارضته لبنود الاتفاق ظنًا منه أن فيها تنازل لقريش ، ومراجعته لأبي بكر- رضي الله عنه - ولرسول الله ﷺ في ذلك غيرةً على الدين واعتزازًا به [٥].

*ضربه صبيغ بن عسل بعد حواره معه ،عندما وجده يسأل عن المتشابهات تعنتًا،حتى ذهب ما في رأسه [٦].

٣- بذله في سبيل الله :

حيث كان من السباقين إلى البذل بعد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ومن ذلك : وقفه لأرضه التي بخيبر جاء في الصحيحين أن عمر- رضي الله عنه - قال : يا رسول الله، لم اصب مالًا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر فما تأمرني به ؟ قال :

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٨٢٩.
(٢) المصدر السابق ١/ ٤٦٢.
(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٥٦٣.
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٥٥١-١٥٥٢.
(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٣١٢.
(٦) المصدر السابق٦/ ٣٣٧٤.

احبس الأصل، وسبل الثمرة" [١]. [٢].

٤- خوفه وتأثره بالقرآن الكريم :

رغم ما عرف به عمر - رضي الله عنه - من القوة والشدة إلا أنه كان سريع التأثر بالقرآن الكريم والخوف من الله - سبحانه وتعالى - ومن ذلك :

* أنه خرج ذات ليلة يعس بالمدينة، فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿ وَالطُّورِ ۝١ ﴾ حتى بلغ: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ فقال: قسم ورب الكعبة حق، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث مليًا، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهرًا يعوده الناس لا يدرون ما مرضه رضي الله عنه [٣].

* خوفه لما قرأ قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾[٤]، حيث فزع وأتى أبيّ بن كعب فقال : يا أبا المنذر ، قرأت آية من كتاب الله ، من يَسلم؟ فقال : ما هي؟ ، فقرأها عليه فأينا لا يظلم نفسه؟ فقال : غفر الله لك! أما سمعت الله تعالى ذكره يقول : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ؟ إنما هو: ولم يلبسوا إيمانهم بشرك. [٥].

٥- وصية النبي ﷺ بالاقتداء بهدي أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - :

حيث أورد سيد - رحمه الله- قوله ﷺ :" إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا بالذين من بعدي وأشار إلى أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -" [٦]، [٧].

---

(١) رواه : مسلم في كتاب الوصية باب الوقف ٣/ ١٠١٦ برقم ١٦٣٢ .
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٢٥ ، والعدالة الاجتماعية ص ١٥٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٩٤ والقصة في
(٤) سورة الأنعام : الآية ٨٢ .
(٥) في ظلال القرآن ٢/ ١١٤٣ .
(٦) رواه : الترمذي في المناقب ٥/ ٥٦٩-٥٧٠ برقم ٣٦٦٢-٣٦٦٣ ، وابن ماجة وأحمد ٥/ ٣٨٢ في فضائل الصحابة برقم ٩٧ ، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٥٠٢ .
(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٢٨ .

٦- سداد رأيه في كثير من القضايا التي اقترحها وموافقة القرآن الكريم له ومنها :

* إشارته بقتل الأسرى في بدر (١)

* قصة الحجاب وعرضه على النبي - ﷺ - حجب نسائه (٢).

٧-عدله وضبطه لعماله ووفاؤه :

حيث أشار سيد - رحمه الله- إلى عدد من المواقف التي تدل على عدل عمر في رعيته واهتمامه بهم وعلى محاسبته لعماله وأمره لهم بالوفاء (٣).

هذه بعض النصوص التي تبين موقف سيد - رحمه الله- من فضائل عمر - رضي الله عنه - في كتبه الأخيرة، أما في كتبه السابقة ومنها: العدالة الاجتماعية فقد تحدث كثيرًا عن عمر وذكر قصص وروايات عن ورعه وزهده وعدله وسياسته (٤).

جـ- فضائل عثمان - رضي الله عنه -:

وهنا ينبغي أن نقف قليلًا ونحن نعرض موقف سيد - رحمه الله- من عثمان - رضي الله عنه -، ذلك لأن سيد - رحمه الله- كما مر معنا سابقًا - تعرض لعثمان - رضي الله عنه - في بعض كتبه السابقة بكلام لا يليق انتقده عليه بعض أهل العلم المعاصرين له ، وعدل بعضه بعد فترة ، وإن كان لا يزال في كتابه " العدالة " ألفاظا تحتاج إلى حذف أو تعديل ، ومن العدل أن ننظر موقفه من عثمان - رضي الله عنه - في كتبه الأخيرة وعلى رأسها الظلال ، ويمكن بيان ذلك من خلال الأتي :

١- يذكر سيد قطب، عثمان - رضي الله عنه - مادحًا له في سياق ترتيبه الطبيعي بين الخلفاء الراشدين وهو يتحدث عن الرجال العظام في هذا الدين حيث يقول وهو يستعرض مقومات العرب عند مجيء الإسلام : " ولعل هذا بعض ما يفسر لنا وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة في الجيل الأول في حياة الرسول - ﷺ - من أمثال : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، ....وغيرهم من تلك العصبة التي تلقت

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥١- ١٥٥٢ .

(٢) المصدر السابق ٥/ ٢٨٧٧ .

(٣) ينظر المصدر السابق ١/ ٩٤، ٢٤٥، ٦/ ٣٨٢٩ .

(٤) ينظر العدالة الاجتماعية : ص ١٣٥، ١٣٩، ١٤١، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٦، ١٥٨، ١٧٢ .

الإسلام، فتفتحت له، وحملته، وكبرت به من غير شك وصلحت" [١].

ويذكر سيد – رحمه الله– أيضًا في كتاب " هذا الدين " نماذج من عدل أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – وتعاملهما مع الأمة، ويذكر بعض خطبهما ومواقفهما ويلحق بهما عثمان – رضي الله عنه – في السياق مادحًا له فيقول : " وكتب عثمان – رضي الله عنه – إلى جميع الأمصار كتابًا قال فيه : " إني آخذ عمالي بموافاتي كل موسم ، وقد سلطت الأمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته ، وليس لعمالي حق قبل الرعية لا متروك لهم ، وقدر رفع آليا أهل المدينة أن أقوامًا يشتمون ويضربون، فمن أدعي شيئًا من ذلك فليوافي الموسم ، يأخذ حقه حيث كان ، مني أو من عمالي أو تصدقوا فأن الله يجزي المتصدقين " [٢].

ويذكر أن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي – رضي الله عنهم – قائمة على أساس الاختيار المطلق [٣].

٢- يذكر مكانة عثمان عند الصحابة - رضوان الله عليهم – وعند غيرهم في صلح الحديبية ، حيث يورد سيد – رحمه الله– قول عمر رضي الله عنه – للنبي ﷺ لما دعاه ليرسله إلى قريش .. " ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان – رضي الله عنه –.. فدعاه الرسول ﷺ وأرسله إلى قريش ، ثم ذكر أن عثمان – رضي الله عنه – انطلق إلى قريش فأبلغهم رسالة النبي ﷺ ، وعرضوا عليه أن يطوف بالبيت إن شاء فأبى ، وقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ فاحتبسته قريش عندها ، وبلغ النبي ﷺ أنه قد قتل ... فقال ﷺ : " لا نبرح حتى نناجز القوم " ثم دعا المسلمين إلى البيعة فبايعوا تحت الشجرة ، .. وذكر الرواية التي فيها أن رسول الله ﷺ بايع لعثمان – رضي الله عنه – فضرب بإحدى يديه على الأخرى " [٤].

٣- إشادة سيد - رحمه الله- بعثمان – رضي الله عنه – **وبذله وسخائه في غزوة العسرة** حيث يقول : " ثم إن رسول الله ﷺ حض أهل الغنى على النفقة ... فحمل رجال من

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٤١ .
(٢) هذا الدين لسيد قطب ص ٨٤-٨٥ .
(٣) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٣ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٠٦- ٣٣١٠ بتصرف .

أهل الغنى محتسبين عند الله ، وكان في مقدمة المنفقين المحتسبين ، عثمان بن عفان - رضي الله عنه - فأنفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، حيث روي أن عثمان - رضي الله عنه - أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض "، وفي رواية : " خطب النبي ﷺ فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان : علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها. قال : ثم نزل مرقاة من المنبر، ثم حث، فقال عثمان: علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها. قال : فرأيت رسول الله ﷺ يقول بيده هكذا يحركها - وأخرج الراوي يده كالمتعجب - : " ما على عثمان ما عمل بعد هذا " .وفي رواية :" ثلاث مرات وأنه التزم بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها " [١]، [٢] .

٤- دفاع سيد - رحمه الله- عن عثمان - رضي الله عنه - : ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾[٣] ، يقول سيد - رحمه الله- : " ويحدد صاحب " الكشاف " شخصه ، أنه عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ويذكر في ذلك قصة ، لا يستند فيها إلى شيء ، ولا يقبلها من يعرف عثمان - رضي الله عنه - وطبيعته وبذله الكثير الطويل في سبيل الله بلا توقف وبلا حساب كذلك ، وعقيدته في الله وتصوره لتبعة العمل وفرديته ، ثم يعلق في الهامش بقوله : " أي صاحب " الكشاف " وروي أن عثمان - رضي الله عنه - كان يعطي ماله في الخير فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح -وهو أخوه من الرضاعة- يوشك ألا تبقي لك شيئًا ، فقال عثمان : إن لي ذنوبًا وخطايا وإني اطلب بما أصنع رضى الله تعالى وأرجو عفوه ، فقال عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها! فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن العطاء فنزلت ! "، يقول سيد - رحمه الله- : " وهي رواية ظاهرة البطلان ، وما هكذا يتصور عثمان - رضي الله عنه - ! " [٤] .

---

(١) رواه : الترمذي في مناقب عثمان ٥/ ٥٨٤ برقم ٣٧٠٠ وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص ٤٢١ وضعيف المشكاة برقم ٦٠٦٣ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٢٣- ١٧٢٤ بتصرف يسير .

(٣) سورة النجم : الآية ٣٣- ٣٤ .

(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٤ مع الهامش ، وينظر : الكشاف للزمخشري - دار إحياء التراث ط١ عام ١٢١٧هـ ٤/ ٤٢٧ .

٥- **يذكر سيد - رحمه الله-** أن عثمان - رضي الله عنه - سار سيرة النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر في عدم قبولهم لصدقة ثعلبة بن حاطب أحد المنافقين، ومع أن القصة باطلة إلا أنه يفهم من خلال سياقها مدح سيد لعثمان وأنه سار بسيرة من قبله ولم يخالفهم.

٦- **تحدث سيد - رحمه الله-** في مواضع من الظلال وغيره عن دور اليهود في التأمر على المجتمع المسلم في عهد عثمان - رضي الله عنه -، وعن الفتنة التي أشعلها اليهودي ابن سبأ في خلافة عثمان - رضي الله عنه - فقال: " والذي ألب العوام، وجمع الشراذم، وأطلق الشائعات، في فتنة مقتل عثمان - رضي الله عنه - وما تلاها من النكبات .. يهودي .. "[١].

وقال: " .. ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله وكانوا عناصر أساسية في إثارة الفتنة الكبرى التي قتل فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وانتثر بعدها شمل التجمع الإسلامي إلى حد كبير "[٢].

هذه لمحات من صورة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في ظلال القرآن الكريم وكتب سيد - رحمه الله- الأخيرة، لعلها تعطينا صورة عن موقف سيد - رحمه الله- من عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في كتبه الأخيرة مقارنة بما كتب عنه سابقًا.

د- فضائل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - :

ذكر سيد - رحمه الله- كثيرًا من فضائل ومواقف علي - رضي الله عنه - في كتبه السابقة كالعدالة الاجتماعية، وأشار في الظلال إلى بعض المواقف منها:

١- ذكره لعلي - رضي الله عنه - في الرجال العظام من الصحابة - رضوان الله عليهم- مع بقية الخلفاء الراشدين الأربعة بقوله " وهذا يفسر وجود هذا الحشد من الرجال العظام في الصحابة - رضوان الله عليهم - كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ... ".[٣]

٢- استشارة النبي ﷺ له في شأن عائشة - رضي الله عنها - في واقعة الإفك[٤] وإرساله

---

(١) معركتنا مع اليهود لسيد قطب ص ٣٣.
(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٢٨، وينظر أيضًا: ٦/ ٣٥٥٧، وهذا الدين ص ٢٩.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٤٤.
(٤) المصدر السابق ٤/ ٢٤٩٦.

لإعلان ما تضمنته سورة براءة من المبادئ في حج العام التاسع الهجري [١] ،وفي ذلك دلالة على علو منزلته .

٣- سعة علمه - ﷺ - حيث أورد سيد - رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ [٢] أن عليًّا - ﷺ - صعد منبر الكوفة فقال: " لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سُنَّة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام أحدهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾؟ قال علي - ﷺ - : الريح ، قال : ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ ؟ قال - ﷺ - : "السحاب"، قال : ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾ ؟ قال - ﷺ - : السفن ، قال : ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ ﴾؟ قال - ﷺ - : الملائكة " [٣].

٤-يشير سيد -رحمه الله- إلى دور اليهود في الفتنة الكبرى في عهد عثمان - ﷺ - ويقول : " وكانوا - أي اليهود - رأس الفتنة في ما وقع بعد ذلك بين علي ومعاوية - ﷺ - " [٤] . في إشارة إلى ابن سبأ وأتباعه ، وإن كان - سيد- يعتبر قتال علي - ﷺ - لأهل الجمل وصفين فقال بغاة كون علي - ﷺ - هو الإمام [٥].

٥- كما أشار سيد - رحمه الله- إلى عظمة علي - ﷺ - في ظلال تفسير قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [٦] حيث ينقل عن علي - ﷺ - قوله: " أرجوا أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ [٧] .

هذا استعراض موجز لموقف سيد - رحمه الله- من الخلفاء الراشدين في كتبه الإسلامية الأخيرة وقد أشار فيها أيضًا إلى فضائل عدد من الصحابة - رضوان الله

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٩٨ .
(٢) سورة الذاريات : الآية ١ .
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٧٤ ، وقد نقله عن تفسير ابن كثير ٧/ ٣٣٠١ .
(٤) المصدر السابق ٣/ ١٦٢٨ .
(٥) المصدر السابق ٦/ ٣٣٤٣ .
(٦) سورة الحجر : الآية ٤٧ .
(٧) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٩٢ ، والأثر رواه القرطبي .

عليهم – وأمهات المؤمنين .[١]

هـ – موقفه من معاوية وعمرو بن العاص – رضي الله عنهما – :

أفردت هذين الصحابيين – رضي الله عنهما – لننظر موقف سيد – رحمه الله – في كتبه الأخيرة منهما ، حيث وأكثر ما انتقد عليه من أخطاء في حق الصحابة – رضوان الله عنهم – كان فيهما وفي عثمان – رضي الله عنه – .

*أما موقفه النهائي من عثمان – رضي الله عنه – فقد سبق معنا قبل قليل .

* وأما موقفه من معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – فقد ذكر سيد – رحمه الله – معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – في الظلال في موضعين يفهم من سياقهما المدح والترضي عنه وهما :

١ – يقول سيد – رحمه الله – : " ولقد ترك القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ في نفوس المسلمين أثرًا قويًا وطابعًا عامًا في هذه الناحية – أي الوفاء بالعهد – ظل هو طابع التعامل الإسلامي الفردي والدولي المتميز.. روي أنه كان بين معاوية بن أبي سفيان وملك الروم أمد ، فسار إليهم في أخر الأجل، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمر بن عتبة : الله أكبر يا معاوية ، وفاء لا غدر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضي أمدها ، فرجع معاوية بالجيش " [٢].

٢ – ذكر حديث معاوية – رضي الله عنه – قال : سمعت النبي ﷺ يقول " إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم " فقال أبو الدرداء – رضي الله عنه – كلمة سمعها معاوية – رضي الله عنه – من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها " [٣].

* أما عمرو بن العاص – رضي الله عنه – فإن سيدًا – رحمه الله – يذكره مترضيًا عنه ،

---

(١) ينظر كلامه في فضائل بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – فيما يأتي : فضائل أمهات المؤمنين : في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٠٤ ، ٢٨٥٨ ، ٢٨٥٩ ، ٢٨٦٢ ، ٢٦٧٥ ، ٣١٧١ ، وينظر أيضًا فضائل بعض الصحابة – رضوان الله عليهم – في : في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٠ ، ١٧٢٤ ، ١٧٢٥ ، ٥/ ٣٠٨٦ ، ٦/ ٣٨٠٧ ، ٣٨٢٧ ، ٣٨٣٠ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٢ – ٢١٩٣ .

(٣) المصدر السابق ٦/ ٣٣٤٦ ، والحديث رواه : أبو داود .

عند ذكره حديثًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - [١] في الرحمة .

ويصفه بأنه حاكم مسلم ، عندما تحدث عن استنقاذ الإسلام لأهل مصر من الذل ، وإطلاقهم من العبودية للبشر من الطواغيت الفراعنة ، ثم الرومان حيث يقول: " فلما أن ضرب ابن عمرو بن العاص - فاتح مصر وحاكمها المسلم - ظهر ابن قبطي من أهل مصر .. " [٢] .

ويقول عنه أيضًا : " وعمرو بن العاص هو فاتح هذا الإقليم - أي مصر- وأول أمير عليه من قِبَلِ الإسلام " [٣] .

هذه لمحة عن موقف سيد - رحمه الله- من الصحابة - رضوان الله عليهم - عمومًا ، وعن من تكلم فيهم في كتبه السابقة خصوصًا ، لعلها تصحح ما علق في كثير من الأذهان حول الموضوع مع إقرارنا بأن في كلام سيد - رحمه الله- بعد التعديل لكتابه العدالة الاجتماعية ألفاظا الأولى أن تحذف .

أما ما يتعلق بمسألة بني أمية وبني العباس وكلام سيد - رحمه الله- في العدالة الاجتماعية والذي قد يفهمه بعضهم على أنه تكفير لهم فالذي يظهر أنه يقصد بقوله " وبذلك خرجت سياسة الحكم نهائيًا من دائرة الإسلام وتعاليم الإسلام .. وخرج الحكام نهائيًا من كل حدود الإسلام في المال " [٤] خروجهم عن تعاليم الإسلام فيما يتعلق بتوريث الحكم بدلًا من كونه حقًا للأمة تختار خليفتها حسب الشروط الشرعية ، وكذلك صرف المال في غير أوجهه الشرعية بدليل قوله في الظلال : " ولقد حكم الإسلام في الجولة الأولى الأرض ألف ومائتي عام تقريبًا لم ينقطع فيها حكم شريعة الإسلام ، وقيام القيادة المسلمة على شريعة الله وسلطانه " [٥] .

فسيد - رحمه الله- يصرح في هذا النص ببقاء الحكام الأمويين والعباسيين

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٥١.
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٣٦٤.
(٣) هذا الدين ص ٨٦.
(٤) العدالة الاجتماعية : ص ١٦٨ .
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٦٠ .

والعثمانيين أيضًا على الإسلام لأن الحاكمية العامة كانت للشريعة الإسلامية ، وإن حصل خروج عن بعض حدود الإسلام سواء في المال أو طريقة تولي الحكم بالوراثة ونحوها ، مما انتقده في العدالة الاجتماعية .

obeikandl.com

المبحث الرابع

منهجه في الإمامة والخلافة

الإمامة العظمى أو الخلافة ، منصب كبير ومسئولية عظمية ، وهي تولٍّ تدبير أمور المسلمين ، وتعد الإمامة والخلافة من أهم المسائل الدينية ، لما لها من أثر كبير في حياة الناس ، ولذلك أهتم علماء أهل السُّنَّة والجماعة ببيان المنهج الذي ينبغي أنَّ يسير عليه الناس في شأن الإمامة والخلافة ، وأدرجوه ضمن مباحث العقيدة التي يجب علمها والعمل بها .

ومناسبة إدراج مسألة الإمامة والخلافة ضمن المباحث المتعلقة بالنبوة هي: أنها امتداد لمهمة النبي ﷺ والمتمثلة في حماية الدين وسياسة الدنيا به ، وفي هذا المبحث نعرض منهج سيد قطب- رحمه الله- فيما يتعلق بمسألة الإمامة والخلافة .

ومعلوم أن سيدًا - رحمه الله- عاصر نهاية وسقوط الخلافة العثمانية آخر مظلة كانت تجمع المسلمين، وبسقوطها تغيرت الأحوال والأوضاع في العالم الإسلامي، الأمر الذي كان له الأثر البالغ ولا يزال على جميع جوانب الحياة الإسلامية.

وبيان منهج سيد قطب - رحمه الله- في هذه المسألة من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: أهمية الإمامة والخلافة.

المطلب الثاني: خصائص ومميزات نظام الحكم في الإسلام.

المطلب الثالث: الحاكم في النظام الإسلامي.

المطلب الرابع: مصدر السلطات في النظام الإسلامي.

المطلب الخامس: الشورى في النظام الإسلامي.

المطلب السادس: شبهات حول الحكم الإسلامي.

المطلب السابع: موقف سيد قطب من الأنظمة المعاصرة ومنهجه في التغيير.

المطلب الأول

أهمية الإمامة والخلافة

ركز المنهج القرآني كثيرًا على أهمية إيجاد الجماعة المسلمة ، التي تحمل الأمانة الكبرى - أمانة العقيدة - وأمانة الخلافة في الأرض باسم العقيدة .

كما ركز أيضًا على أعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمة المستخلفة ، وشخصيتها المستقلة ، بقبلتها وبشرائعها المهيمنة على ما قبلها من الشرائع ، ومنهجها الجامع الشامل المميز ، وقبل ذلك بتصورها الخاص للوجود والحياة ، ولحقيقة ارتباطها بربها ، ولوظيفتها في الأرض وما تقتضيه من تكاليف ، وتهيئتها للطاعة المطلقة للقيادة الإلهية المتمثلة في القرآن الكريم وتوجيهات النبي ﷺ وتلقي ذلك بالرضى والثقة واليقين والاستسلام [1] .

وقد بيَّن سيد قطب - رحمه الله- أهمية وجود الخلافة القائمة على الحق في أكثر من موضع ، ومن ذلك ما نقله عن المودودي في بيان أهمية الإمامة والخلافة الصالحة في الأرض حيث يقول: " وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية، لا يخفى عليه أن المسألة - التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها - إنما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام أمرها، وذلك كما تشاهد في القطار أنه لا يجري إلا إلى الجهة التي يوجهه إليها سائقه ، وأنه لا بد للركاب أن يسافروا - طوعًا أو كرهًا - إلى تلك الجهة نفسها ، فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلا إلى جهة يوجهه إليها من بأيديهم زمام أمر تلك المدنية ، ومن الظاهر البين أن الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طرًا ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمَّةِ الأمر، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٢٣ بتصرف .

والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية، وإنشاء النظام الجماعي، وتحديد القيم الخلقية ، فإذا كان هؤلاء الزعماء والقوّاد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه ، فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم ، وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، وأقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنها لا تربو ، إن لم تمحق وتنقرض آثارها .

وأما إذا كانت هذه السلطة – سلطة الزعامة والقيادة والإمامة – بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله ، واتبعوا الشهوات ، وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها . . .

إن أول ما يطالب به دين الله عباده، أن يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى، ثم يتطلب منهم إلا يكون لحياتهم قانون إلا ما أنزله الله تعالى ، وجاء به الرسول الأمي الكريم ﷺ ثم إن الإسلام يطالبهم أن ينعدم من الأرض الفساد، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه.

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره إلا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ، يذكرون الله قابعين في زواياهم ، منقطعين عن الدنيا وشؤونها ، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات! .

ومن هنا يظهر ما للإمامة الصالحة وإقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين وأسسه، والحق أن الإنسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله إذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها . بالإضافة إلى ما جاء

في الكتاب والسُّنَّة من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى إن الإنسان ليستوجب القتل إذا خرج من الجماعة - ولو قيد شعره - وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ،وليس لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه إنما هو إقامة نظام الحق ، والإمامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الأرض ....

وما جعل الجهاد في أعلى المنازل في هذا الدين حتى أنه يحكم بالنفاق على من ينكلون عنه إلا لأنه سبيل لإقامة نظام الحق، ليس غيره ....

إن إقامة الإمامة الصالحة في أرض الله لها أهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الإسلام ، فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لإفراغ حياته في قالب الإسلام ، ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى ذلك الإيمان أن يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الأمر من أيدي الكافرين والفجرة والظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ، ويرجون حسابه ، ويقـوم في الأرض ذلك النظام الحق المرضيّ عنـد الله الذي به صلاح أمور الدنيا وقوام شؤونها "[1] .

- كما بيَّن سيد -رحمه الله - أن وجود الإمامة والسلطة في الحياة الإسلامية ضرورة لإقامة منهج الله في الأرض ولتغليب الحق على الباطل ، والمعروف على المنكر، والخير على الشر، فلا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، ..وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان فإن " الأمر والنهي " لا يقوم بهما إلا ذو سلطان ... فلابد إذًا من سلطة تأمر وتنهى وتحقق منهج الله في حياة البشر، وتصون الحياة من الشر والفساد، وتحقق القيم الروحية والمادية على حدٍ سواء "[2].

ويقول سيد أيضًا: " إن حياة الناس لا تصلح إلا بأن يتولى قيادتها المبصرون أولوا الألباب، الذين يعلمون ما أنزل من الحق ، ويدينون به لله وحده ، ويدفعون السوء

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٢٠-١٣٢١ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : فصل لابد للإسلام أن يحكم من كتاب معركة الإسلام والرأسمالية لسيد قطب ص ٥٦ وما بعدها ، والأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية للسيد أبي الأعلى المودودي .

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٤٤٤، ٤٤٧ بتصرف ، ١/ ٦٠-٦١ .

والفساد في الأرض بالإصلاح والإحسان، و تسير على هدى الله وحده ، و تصوغ الحياة كلها وفق منهجه وهديه ، أما القيادات الضالة العمياء ، التي لا تعلم أن ما أنزل من الحق ولا تتبع منهج الله بل تتبع مناهج أخرى غيره كالشيوعية والرأسمالية والديمقراطية وغيرها من مناهج العمي ، التي شقيت بها البشرية في تاريخها كلها ولا تزال ، ولم تسعد الإنسانية إلا في ظل خلافة قائمة على منهج الله "[1].

(١)المصدر السابق ٤/ ٢٠٧٥-٢٠٧٦ بتصرف .

obeikandl.com

المطلب الثاني

خصائص ومميزات نظام الحكم في الإسلام

تحدث سيد قطب- رحمه الله-عن خصائص نظام الحكم في الإسلام التي تميزه عن سائر أنظمة الحكم في الحياة ، ومنها :

١- ارتباطه بالعقيدة: فالعقيدة الإسلامية تتسع لتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة، فلا تقتصر على حقل دون حقل... إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، إنها تتولى روح الفرد وجسده وشعائره وشرائعه وضميره وسلوكه، وتتولى الفرد والجماعة على السواء، سواء في الحياة الشخصية أو في نظام الحكم والعلاقات الدولية.

فكل أنظمة الحياة في الإسلام موصولة كلها بالعقيدة وجودًا وعدمًا، فالأحكام المختلفة في النظام الإسلامي منبثقة من المنهج الإلهي للحياة البشرية، ومرتبطة بأصول العقيدة التي ينبثق منها النظام الإسلامي.[١]

٢- الشمولية والتكامل بين أجزائه التشريعية : فالنظام الإسلامي كل متكامل ، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها إلا أن ينظر في طبيعة النظام وأصوله ومبادئه وضماناته، كذلك لا تصلح هذه الجزئيات في التطبيق إلا أن يؤخذ النظام كاملًا ، ويعمل به جملة ، أما اجتزاء بعض أحكامه أو مبادئه في ظل أنظمة أخرى غير إسلامية فلا جدوى منه ، والجزء المقتطع منه تطبيقًا للإسلام ، لأن الإسلام ليس أجزاء وتفاريق، إنما هو نظام متكامل يشمل تطبيقه كل جوانب الحياة[٢].

٣- قيامة على الرضى والاختيار بين الحاكم والأمة : فنظام الحكم في الإسلام يقرر العلاقات بين الراعي والرعية على أساس من السلم والطمأنينة.. فالراعي لا يصل

---

(١) ينظر السلام العالمي والإسلام - سيد قطب - ص ٩-١٢ ، في ظلال القرآن ١/ ١٣٢، ٢٣٦ بتصرف، ٢/ ٨٩٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٢ بتصرف يسير .

إلى مكانه إلا عن طريق واحد : رغبة الرعية المطلقة واختيارها الحر، لا يستبقي الراعي مكانه بين الرعية إلا عن طريق واحد : طاعة الله والعمل بشريعة الله ، وحكم يقوم على رضا واختيار بعد مشورة وإذن من الناس ولا يحكم إلا بما انزل الله ، حكم يشيع الثقة والطمأنينة في النفوس ويثبت الرضى والارتياح في القلوب فلا مجال للبرم به والضيق منه ، والتفكر في الخروج عليه ، ما دام ينهض بتبعاته بالطريقة التي رسمها الإسلام ، وفي الحدود التي شرعها الإسلام [١].

أما أكذوبة الاختيار الحر في النظم الديمقراطية وغير الإسلامية فسيأتي الحديث عنه عند الكلام عن موقف سيد من الأنظمة العلمانية .

٤- قيامة على مبدأ الشورى : فنظام الحكم في الإسلام يرتكز على مبدأ الشورى لقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [٢] ، وقوله تعالى﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [٣] ، وإذا كانت الشريعة لم تحدد طريقة معينة للشورى ، فذلك متروك لحاجة العصر وضروراته ، وطريقة حياته ، ولكن المبدأ مقرر والطريقة معينة ، ومن شأنها إشراك المسلمين في تدبير أمورهم ، فلا مجال إذن لان يسخطوا وهم شركاء في التدبير [٤].

٥- اشتماله على الضمانات القانونية التي تحقق العدل وتحميه : " حيث يستمد الحكم الإسلامي عدالته أول ما يستمد من عدالة القانون ذاته ، فهو ليس من صنع فرد ، ولا من صنع طائفة ، حتى تظن به الظنون ، ويخشى أن يميل مع الهوى ، أو يتلبس به الخطأ ، فيفوته تحقيق العدالة المطلقة ، أما عند التنفيذ فقد ناط الإسلام ذلك بوضوح القانون ، وبضمير القاضي ورقابة الجماعة ، وكل فرد في الجماعة الإسلامية منوط به هذه الرقابة ، منوط به أن يدفع الظلم حين يقع ، وأن ينبه الحاكم حين يطغى، والقاضي حين يخطئ ، وإنه ليبوء بالإثم حين يكتم الشهادة ، أو حين يقر الخطأ، ولا ينبه إليه إذ يراه .

والعدل الذي يطلبه الإسلام هو العدل المطلق الذي لا يتأثر بالمحبة والشنآن،

---

(١) السلام العالمي والإسلام – سيد قطب – ص ١٢٢– ١٢٣ بتصرف يسير .
(٢) سورة الشورى : الآية ٣٨ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .
(٤) السلام العالمي والإسلام – سيد قطب – ص ١٢٣ .

ولا بالمال والجاه والحكام، والآيات في ذلك كثيرة جدًا، والنماذج من التاريخ الإسلامي لا تحصى [١].

كما تتوفر في نظام الحكم الإسلامي ضمانات الأمن والسلامة ،الأمن على الحياة والأنفس والدين، والأمن على الأموال والأعراض ، والأمن على الحقوق الشخصية كالعمل والمعيشة ونحوها ، فالعدل أساس النظام الإسلامي وهو الأمر الذي يجعل من النظام الإسلامي نظامًا عالميًا يملك الجميع الحياة في ظله دون تعب ولا اضطهاد [٢].

وقد أشار سيد إلى بعض هذه الخصائص إجمالًا بقوله : " تقوم نظرية الحكم في الإسلام على أساس شهادة أن لا اله إلا الله ، حيث يتقرر عليها أن الحاكمية في حياة البشر لله وحده ، ثم بعد التسليم بقاعدة الألوهية والحاكمية الواحدة تقوم على أساس العدل من الحكام ، والطاعة من المحكومين، والشورى بين الحاكم والمحكوم، وهي خطوط أساسية ترسم شكل الحكم وصورته في النظام الإسلامي" [٣] .

(١) المصدر السابق ص ١٢٦ وما بعدها بتصرف .

(٢) المصدر السابق ص ١٣٠-١٤٢ بتصرف ، وينظر : في ظلال القرآن ١/ ١١٢ ، ٢/ ٦٨٨، ٨٧٣، ٨٨٢، ٨٩٠ .

(٣) العدالة الاجتماعية ص ٨٠ .

obeikandl.com

المطلب الثالث

الحاكم في النظام الإسلامي

أولًا: مواصفات الحاكم في النظام الإسلامي:

تحدث سيد قطب - رحمه الله- عمن يصلح أن يكون حاكمًا في النظام الإسلامي، وعن الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى الحكم ومنها:

١- الإسلام: فلابد فيمن يتولى أمر المسلمين أن يكون مسلمًا، يقول سيد - رحمه الله-: " فأما أولو الأمر، فالنص يعين من هم ﴿ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ أي من المؤمنين، الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحَدِّ الإسلام المبين في الآية . . من طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وإفراد الله - سبحانه - بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداءً، والتلقي منه وحده - فيما نص عليه - والرجوع إليه أيضًا فيما تختلف فيه العقول والإفهام والآراء، مما لم يرد فيه نص، لتطبيق المبادئ العامة في النصوص "[١].

٢- الأهلية والصلاح: يقول سيد - رحمه الله-: " إن الإمامة لمن يستحقونها بالعمل والشعور، وبالصلاح والإيمان، وليست وراثة أصلاب وأنساب،والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة.. وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة، فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظَلَمَ - أي لون من الظلم - فقد جرَّد نفسه من حق الإمامة وأسقط حقه فيها، بكل معنى من معانيها "[٢].

٣- اختيار الأمة ورضاها: يقول سيد - رحمه الله- : " والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله "[٣].

ويقول أيضًا: " والإمام هو الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد أو

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩١ .
(٢) المصدر السابق ١/ ١١٢ .
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٩٠ .

أهل الشورى له "[١].

ويقول أيضًا: " والحاكم في الإسلام يتلقى الحكم من مصدر واحد ، هو إرادة المحكومين ، فالبيعة الاختيارية هي الطريقة الوحيدة لتلقي الحكم ، والواقع التاريخي قام على هذا المبدأ ، فخلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي قامت على أساس الاختيار المطلق ، ولا يتعارض هذا مع وصية أن تكون في واحد من ستة ، فقد كانت هذه نصيحة للمسلمين ، ولم تكن أمرًا واجبَ الطاعة ، ولو اختار المسلمون واحدًا غير الستة لاختاروا ، ولكن هؤلاء كانوا بالإجماع أصلح الجميع ، فاختاروا واحدًا منهم برضاهم وإذنهم ، لا بأمر عمر ووصايته .

لما عدل بنو أمية عن هذه القاعدة الإسلامية الأساسية في الحكم رده إليها الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز [٢]، رده إلى الأمة التي يجب أن تختار حكامها حرة طائعة مختارة ، حيث صعد المنبر وقال : يا أيها الناس إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وأني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي فاختاروا لأنفسكم ، فقال الناس : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك ، فل الأمر باليمن والبركة .وبذلك رد الأمر إلى نصابه في ولاية الأمر، فلا ولاية بغير شورى ورضى وقبول" [٣].

ويقول أيضًا: " إن الراعي لا يصل إلى مكانه إلا عن طريق واحد: رغبة الرعية المطلقة، واختيارها الحر "[٤].

ويقول: " والحاكم في الإسلام إنما يصبح حاكمًا باختيار المسلمين الكامل وحريتهم المطلقة لا يقيدهم عهد حاكم قبله، ولا وراثة كذلك في أسرة.. فإذا لم يرضه المسلمون لم تقم له ولاية "[٥].

---

(١) المصدر السابق ٤/ ٢٠٠٩ .

(٢) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي القرشي ، الخليفة الصالح ،ولد ونشا في المدينة ، ووليها للوليد ،ثم استوزره سليمان بالشام ،وولي الخلافة بعده ،ولقب بخامس الخلفاء الراشدين ، توفي سنة ١٠١هـ ،انظر : سير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤ ،والأعلام ٥/ ٥٠ .

(٣) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٣-٧٤ .

(٤) دراسات إسلامية ص ١٢٢ ، ومعركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٢ .

(٥) العدالة الاجتماعية ص ٨٢ .

٤- أن يعترف ابتداءً بسلطان الله ويحكم بشريعته في الحياة : يقول سيد - رحمه الله-: " ولا يكون إمامًا حتى يعترف ابتداءً بسلطان الله ، وبتحكيم شريعته ، فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له "إمامًا " إنما يقول عنه الله - سبحانه وتعالى - ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (١) ، (٢) . ويقول سيد أيضًا: "والحاكم المسلم هو الذي يطبق شريعة الإسلام " (٣) .

ثانيًا : وضعه للقانون ووظيفته :

يرى سيد - رحمه الله- أن الإمام أو الحاكم نائب عن الأمة ، حيث يقول : " إن الأمة المسلمة بمجموعها مسؤولة عن إقامة منهج الله في الحياة ، ومنع الفساد والمنكر، والقيام على الشريعة وحراستها وتنفيذها ، والإمام نائب عن الأمة في هذا، وهذه الحدود تنحصر حقوق الأمة وسلطتها وكذا سلطة الإمام النائب عنها . (٤) ويقول أيضًا " والإسلام يقرر حق كل فرد في المجتمع المسلم في الحياة وفي الوسائل الضرورية لحفظ الحياة.. وعلى الدولة النائبة عن الجماعة - أن توفرها له " (٥) .

ومن النصين السابقين نجد أن سيدًا - رحمه الله- يرى أن الحاكم أو الإمام يعتبر نائبًا عن الأمة والجماعة المسلمة في تحقيق منهج الله في الأرض ، وأن الحكومة والدولة ووظيفتها ومهمتها النيابة عن مجموع الأمة في تحقيق خلافة الله في الأرض على منهاجه الذي جاء به رسول الله- ﷺ - في الكتاب والسُّنَّة .

ثالثًا : طاعة الحاكم وحدودها :

الأصل في هذه المسألة قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾(٦) .

(١) سورة المائدة : الآية ٤٤ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٩٤٩ ، وينظر أيضًا : ٤/ ٢٠٧٥-٢٠٧٦ .
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٧٤ .
(٤) المصدر السابق ٦/ ٣٥٢٥ بتصرف يسير .
(٥) المصدر السابق ٢/ ٨٨٢ .
(٦) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٥ بتصرف يسير .

يقول سيد - رحمه الله- : " وفي هذا النص القصير يبين الله - سبحانه - شرط الإيمان وحد الإسلام في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة، وقاعدة الحكم ، ومصدر السلطان فالحاكمية لله وحده في حياة البشر، فيما سنة الله وشرعة في قرآنه وسنة رسول الله ﷺ . فطاعة الله واجبة ابتداءً بماله من الألوهية وحق التشريع ، وطاعة الرسول ﷺ واجبة أيضًا بماله من صفة الرسالة من الله ، فطاعته من طاعة الله ، والإيمان يتعلق - وجودًا وعدمًا - بهذه الطاعة وهذا التنفيذ بنص القرآن ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ، فأما أولي الأمر، فالنص يعين من هم ﴿ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ أي من المؤمنين ، الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية ،من طاعة الله وطاعة الرسول، وإفراد الله - سبحانه - بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء .

والنص يجعل طاعة الله أصلًا، وطاعة رسوله أصلًا كذلك - بما أنه مرسل منه- ويجعل طاعة أولي الأمر﴿ مِنكُمْ ﴾ تبعًا لطاعة الله وطاعة رسوله ، فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم ، كما كررها عند ذكر الرسول- ﷺ - ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة الله وطاعة رسوله بعد أن قرر أنهم "منكم "بقيد الإيمان وشرطه..

وطاعة أولي الأمر﴿ مِنكُمْ ﴾ بعد هذه التقريرات كلها ، في حدود المعروف المشروع من الله ، والذي لم يرد نص بحرمته ، ولا يكون من المحرم عندما يرد إلى مبادئ الشريعة عند الاختلاف فيه ، والسُّنَّة تقرر حدود هذه الطاعة ، على وجه الجزم واليقين :

- في الصحيحين قال- ﷺ -: " إنما الطاعة في المعروف "[1]، وقال ﷺ : " السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة "[2] . وفي رواية: " ولو استعمل عليكم عبد، يقودكم بكتاب الله، اسمعوا له وأطيعوا "[3] .

---

(١) رواه : البخاري في المغازي باب سرية عبد الله بن جحش ٤/ ١٥٧٨ برقم ٤٠٨٥ .

(٢) رواه : البخاري في الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ٦/ ٢٦١٢ برقم ٦٧٢٥ ، ومسلم في الإمارة ٣/ ١١٦٧ برقم ١٨٣٩ .

(٣) المصدرين السابقين نفسهما .

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أمينًا على شريعة الله وسُنَّة رسوله ﷺ وعلى إيمانه هو ودينه ونفسه وعقله أمينًا على مصيره في الدنيا والآخرة، ولا يجعله بهيمة في القطيع تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع، فالمنهج واضح، وحدود الطاعة واضحة، والشريعة التي تطاع والسُّنَّة التي تتبع واحدة لا تتعدد ولا تتفرق، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون! "[١].

وفي ظلال قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[٢] " يقول سيد: وهذا الشرط أحد قواعد الدستور في الإسلام، وهو يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا في المعروف الذي يتفق مع دين الله وشريعته، وأنها ليست طاعة مطلقة لولي الأمر في كل أمر، وهي القاعدة التي تجعل قوة التشريع مستمدة من شريعة الله لا من إرادة إمام ولا من إرادة أمة إذا خالفت شريعة الله، فالإمام والأمة كلاهما محكوم بشريعة الله، ومنها يستمدان السلطان "[٣].

ويقول أيضًا: " والحاكم الإسلامي يتلقى الطاعة بعد توليه من قيامه على تنفيذ الشريعة فقد سقطت طاعته عليهم، بقول صاحب هذا الدين ﷺ " اسمعوا وأطيعوا، وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة - ما أقام فيكم كتاب الله تعالى "[٤]، فليس هي الطاعة المطلقة لإرادة الحاكم، وليس هي الطاعة الدائمة لو ترك شريعة الله ورسوله "[٥].

ومن خلال النصوص السابقة نجد:

١- أن سيدًا - رحمه الله- يجعل طاعة الحاكم وولي الأمر واجبة بشرط أن يكون مسلمًا لقوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ أي من المؤمنين.

٢- أن طاعة ولي الأمر مستمدة من طاعته هو لله ورسوله وتنفيذه لشريعة الله

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٠-٦٩١ بتصرف يسير.
(٢) سورة الممتحنة: الآية ١٢.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٤٨.
(٤) رواه: البخاري في الأحكام ٦/ ٢٦١٢ برقم ٦٧٢٣، ومسلم في الإمارة ٣/ ١١٦٧ برقم ١٢٩٨ واللفظ له.
(٥) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٤، العدالة الاجتماعية ص ٨١-٨٢.

وحكمه بها ، فإذا لم يقم بذلك فلا طاعة له ، فطاعته موقوتة بتنفيذه للشريعة .

٣- أن الطاعة له تكون في المعروف ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

بالإضافة إلى طاعة الحاكم فإن له على الرعية أيضًا حق النصح له ، والمعونة على إقامة الشريعة ، وليس له حقوق أخرى وراء ذلك إلا ما لأحدٍ المسلمين [١] .

رابعًا : الخروج على الحاكم المسلم :

يقرر سيد أنه إذا كان الحاكم مسلمًا يحكم بشريعة الله ، فعندئذ يجب على الأمة طاعته - كما سبق - ولا يجوز الخروج عليه ويعتبر الخارج على الإمام المسلم باغيًا مجرمًا محاربًا لله رسوله ، ويجب على المسلمين قتاله .

وفي ذلك يقول سيد : " إن أمن الجماعة المسلمة في دار الإسلام ، وصيانة النظام العام الذي تستمتع في ظله بالأمان ، وتزاول نشاطها الخير في طمأنينة ، ذلك كله ضروري كأمن الأفراد، والذي يهدد أمن المجتمع هو عنصر خبيث يجب استئصاله، ما لم يثب إلى الرشد والصواب ، والشريعة قررت عقوبة هذا العنصر الخبيث هو ما يعرف بـ"بحد الحرابة "، قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٢] . وحدود هذه الجريمة التي ورد فيها هذا النص ، هي الخروج على الإمام المسلم الذي يحكم بشريعة الله والتجمع في شكل عصابة ، خارجة على سلطان هذا الإمام ، تروع أهل دار الإسلام، وتعتدي على أرواحهم وأموالهم وحرماتهم ، ويشترط بعض الفقهاء أن يكون ذلك خارج المصر بعيدًا عن مدى سلطان الإمام ، ويرى بعضهم أن مجرد تجمع مثل هذه العصابة وأخذها في الاعتداء على أهل دار الإسلام بالقوة ، يجعل النص منطبقًا عليها ، سواء خارج المصر أو داخلة . وهذا هو الأقرب للواقع العملي ومجابهته بما يستحقه.

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ٨٣ بتصرف .

(٢) سورة المائدة : الآية ٣٣ .

وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله، المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة - سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو مستأمنين بعهد - لا يحاربون الحاكم وحده ، ولا يحاربون الناس وحدهم ، إنما هم يحاربون الله ورسوله حينما يحاربون شريعته ، ويعتدون على الأمة القائمة على هذه الشريعة ، ويهددون دار الإسلام المحكومة بهذه الشريعة . كما أنهم بحربهم لله ورسوله، وحربهم لشريعته وللأمة القائمة عليها وللدار التي تطبقها، يسعون في الأرض فسادًا.. فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله، وترويع الدار التي تقام فيها هذه الشريعة.

إنهم يحاربون الله ورسوله ... وإن كانوا إنما يحاربون الجماعة المسلمة والإمام المسلم.

* كما أن للنص - في صورته هذه - مفهومًا آخر متعينًا كهذا المفهوم - هو أن السلطان الذي يحق له - بأمر الله - أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات المقررة لهذه الجريمة ، هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله ، في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله ، وليس أي سلطان آخر لا تتوافر له هذه الصفة ، في أية دار أخرى لا يتوافر لها هذا الوصف .

نقرر هذا بوضوح ، لأن بعض أذناب السلطة في كل زمان ، كانوا يفتون لحكام لا يستمدون سلطانهم من شريعة الله ولا يقومون على تنفيذ هذه الشريعة ، ولا يحققون وجود دار الإسلام في بلادهم ، ولو زعموا أنهم مسلمون . . كانوا يفتون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بهذه العقوبات - باسم شريعة الله - بينما كان هؤلاء الخارجون لا يحاربون الله ورسوله ، بل يحاربون سلطة خارجة على الله ورسوله.. إنه ليس لسلطة لا تقوم على شريعة الله في دار الإسلام، أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله، وما لمثل هذه السلطة وشريعة الله ؟ إنها تغتصب حق الألوهية وتدعيه، فما لها تتحكك بقانون الله وتدعيه؟! .

إنما هذا جزاء أفراد العصابات المسلحة التي تخرج على سلطان الإمام المسلم المقيم لشريعة الله "[1]، ثم ذكر سيد - رحمه الله- كلام الفقهاء في عقوبة الخارجين

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٧٨-٨٧٩ بتصرف يسير .

على سلطان الإمام المسلم وماذا يوقع بهم الإمام المسلم من أنواع العقوبات المذكورة في الآية ، حيث اختار رأي الإمام مالك – رحمه الله– في أن العقوبة توقع على مجرد الخروج وإخافة السبيل ، باعتبار هذا إجراء وقائي المقصود منه أولاً منع وقوع الجريمة ، والتغليظ على المفسدين في الأرض، الذين يروعون الجماعة المسلمة القائمة على شريعة الله في هذه الدار الأجدر بالأمن والطمأنينة والإسلام .. وذلك أن الجماعة المسلمة في دار الإسلام يجب أن تعيش آمنة، وأن السلطة المسلمة القائمة على شريعة الله يجب أن تكون مطاعة "[1].

*وفي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ ﴾[2].

يقول سيد – رحمه الله– : " من مستلزمات الإخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة ، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف ، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة ، وهو إجراء صارم وحازم كذلك .

ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه، وألا يقتل أسير ، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة ، وألقى السلاح ، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة ، لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم ، وإنما هو ردهم إلى الصف ، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية .

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة، وأنه إذا بويع لإمام، وجب قتل الثاني، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام. وعلى هذا الأصل قام الإمام علي – رضي الله عنه – بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين، وقام معه بقتالهم أجِلاَّءُ الصحابة رضوان الله عليهم، وتخلف بعضهم عن المعركة إما لأنهم لم يتبينوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة،

(١) المصدر السابق ٢/ ٨٧٩- ٨٨٠ .
(٢) سورة الحجرات : الآية ٩ .

وإما لأنهم كما يقول الإمام الجصاص " ربما رأوا الإمام مكتفيًا بمن معه مستغنيًا عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك " والاحتمال الأول أرجح.

ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات - بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها إمامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة بين بلاد المسلمين ، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة - فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد ، إذا خرج هؤلاء البغاة عليه ، أو إذا بغت طائفة على طائفة في إمامته دون خروج عليه .

وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا في إحدى الإمامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية ، بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والأحوال(١).

ويوضح سيد - رحمه الله - أن الخروج على الحاكم المسلم الذي يعترف ابتداءً بسلطان الله وحاكمية شريعته لا يجوز وإن وجد منه ظلم أو طغيان في بعض الأحيان، فيقول: " كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم ، مجتمع يعترف ابتداءً بسلطان الله ، ويتحاكم إلى شريعته ، مهما وجد فيه من طغيان الحكم ، في بعض الأحيان ، ومن شيوع الإثم في بعض الأحيان.. وهكذا نجد في قول الرسول ﷺ : " أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر " (٢).

فهو " إمام " ولا يكون إمامًا حتى يعترف ابتداءً بسلطان الله، وبتحكيم شريعته، فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له : " إمام " إنما يقول عنه الله - سبحانه -: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (٣)، (٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٣-٣٣٤٤ بتصرف .

(٢) رواه : أبو داود في الملاحم ٤/ ٥١٤ برقم ٤٣٤٤ ، والترمذي في الفتن ٤/ ٤٠٩ برقم ٢١٧٤ وابن ماجة في الفتن ٤/ ٦٢٨ برقم ٤٠١١ وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/ ٤٦٢ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤٤ .

(٤) في ظلال القرآن ٢/ ٩٤٩ بتصرف يسير .

المطلب الرابع

مصدر السلطات في النظام الإسلامي

يقصد بمصدر السلطات : الجهة التي تملك سلطة وضع التشريعات والقوانين والأحكام التي يسير البشر علي وفقها ، في جميع جوانب الحياة .

وقد تكلم سيد قطب عن مصدر السلطات في نظام الحكم الإسلامي، والأنظمة الوضعية المختلفة في مواطن متفرقة يمكن إجمال كلامه في النقاط الآتية:

أولًا : اهتمام القرآن الكريم بتحديد مصدر السلطة :

تعتبر مسألة مصدر السلطات من قضايا العقيدة والمنهج الإسلامي ، ونظام الحكم والحياة في الإسلام ، يقول سيد – رحمه الله– : " تحدث القرآن الكريم عن نظام الحكم والحياة بشكل محدد وبنصوص وعبارات واضحة ، حيث ربط القرآن الكريم بين ذلك وبين الألوهية والتوحيد والإيمان، فقضية الحكم والشريعة والتقاضي – ومن ورائها قضية الألوهية والتوحيد والإيمان – تتلخص في الإجابة على هذا السؤال :

أيكون الحكم والشريعة والتقاضي حسب مواثيق الله وعقوده وشرائعه التي استحفظ عليها أصحاب الديانات السماوية واحدة بعد الأخرى، وكتبها على الرسل ، وعلى من يتولون الأمـر بعدهم ليسيروا على هداهم ؟ أم يكون ذلك كله للأهواء المتقلبة ، والمصالح التي لا ترجع إلى أصل ثابت من شرع الله والعرف الذي يصطلح عليه جيل أو أجيال ؟ وبتعبير آخر : أتكون الألوهية والربوبية والقوامة لله في الأرض وفي حياة الناس؟ أم تكون كلها أو بعضها لأحد من خلقه يشرع للناس ما لم يأذن به الله ؟ الله – سبحانه – يقول : إنه هو الله لا إله إلا هو، وإن شرائعه التي سنها للناس بمقتضى ألوهيته لهم وعبوديتهم له ، وعاهدهم عليها وعلى القيام بها، هي التي يجب أن تحكم هذه الأرض ، وهي التي يجب أن يتحاكم ، إليها الناس وهي التي يجب أن يقضي بها الأنبياء ومن بعدهم من الحكام . .

والله - سبحانه - يقول : إنه لا هوادة في هذا الأمر ، ولا ترخص في شيء منه، ولا انحراف عن جانب ولو صغير، وإنه لا عبرة بما تواضع عليه جيل ، أو لما اصطلح عليه قبيل ، مما لم يأذن به الله في قليل ولا كثير!، والله - سبحانه - يقول : إن المسألة - في هذا كله - مسألة إيمان أو كفر، أو إسلام أو جاهلية، وشرع أو هوى. وأنه لا وسط في هذا الأمر ولا هدنة ولا صلح! "[١].

ففي قول الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾[٢] بيان قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة، وقاعدة الحكم ، ومصدر السلطان.. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من الله وحده، والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصًا من جزيئات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال، مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام.. ليكون هنالك الميزان الثابت ، الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام! [٣].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[٤]، تتمثل النظرية الدستورية الإسلامية ، فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ قرآنًا أو سُنَّة .

والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول، فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان، لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان.. وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء ، وكل ما تشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان .

فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول ﷺ والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها والإمام نائب عن الأمة في هذا وفي هذا تنحصر حقوق الأمة . فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول في أي تشريع [٥].

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٨ بتصرف يسير ، ٢/ ٨٩١ .
(٢) آل عمران : الآية ١٣٢ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٦٩٠ .
(٤) سورة الحشر : الآية ٧ .
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٢٥ وينظر أيضًا : ٦/ ٣٥٤٨ ، والسلام العالمي والرأسمالية ص ٦٢ .

ويبين سيد – رحمه الله– أهمية تحديد مصدر السلطة باعتباره الميزان الذي يحكم حياة البشر، فيقول: " فلا بد من ميزان ثابت نرجع إليه بالأعمال، ولا بد من قيم معترف بها نقيس إليها المعروف والمنكر، فمن أين نستمد هذه القيم؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان؟ من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم وهي متقلبة لا تثبت على حال؟ إننا ننتهي إذن إلى متاهة لا دليل فيها، وإلى خضم لا معالم فيه! فلابد ابتداء من إقامة الميزان.. ولا بد أن يكون هذا الميزان ثابتًا لا يتأرجح مع الأهواء ،هذا الميزان الثابت هو ميزان الله.. فلابد من اعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة ابتداءً وعلى هذا الأساس يقام بعد ذلك البنيان" (١).

ويوضح سيد – رحمه الله– أن تشدد القرآن الكريم في مسألة مصدر السلطة على النحو الذي سبق وجعلها مسألة إيمان أو كفر يعود إلى أسباب منها:

١- أن مقتضى الإيمان بربوبية الله وألُوهيته –سبحانه– هو إفراده بحق السلطان والحاكمية والتشريع ، باعتباره– سبحانه –وحده هو الخالق الرازق المالك للوجود وبالتالي يجب أن يكون هو صاحب السلطان في حياة البشر .

٢- الأفضلية الحتمية المقطوع بها لشريعة الله على شرائع الناس، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢)، والاعتراف بهذه الأفضلية هو أساس الإيمان، وإعطاء حق التشريع والسلطان لغير الله لا يستقيم مع دعوى الإيمان و الإسلام " (٣) .

" فمظهر الإيمان الأول بالله هو استمداد الأنظمة من منهجه وشريعته ، ولا إيمان بغير هذه القاعدة الكبيرة " (٤) .

٣- أن جعل مصدر السلطة لغير الله هو أبرز مظاهر الجاهلية، يقول سيد – رحمه الله–: " والجاهلية حالة توجد كلما وجدت مقوماتها في وضع أو نظام.. وهي في صميمها الرجوع بالحكم والتشريع إلى أهواء البشر ، لا إلى منهج الله

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٥٠ بتصرف .
(٢) سورة المائدة : الآية ٥٠ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٨٩ بتصرف .
(٤) المصدر السابق ١/ ٥٨٤ .

وشريعته للحياة ، ويستوي أن تكون هذه الأهواء أهواء فرد، أو أهواء طبقة، أو أهواء أمة ، أو أهواء جيل كامل من الناس ، فكلها ما دامت لا ترجع إلى شريعة الله أهواء.

*يشرع فرد لجماعة فإذا هي جاهلية، لأن هواه هو القانون، أو رأيه هو القانون لا فرق إلا في العبارات!.

*وتشرع طبقة لسائر الطبقات فإذا هي جاهلية، لأن مصالح تلك الطبقة هي القانون - أو رأي الأغلبية البرلمانية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!.

*ويشرع ممثلو جميع الطبقات وجميع القطاعات في الأمة لأنفسهم فإذا هي جاهلية.. لأن أهواء الناس الذين لا يتجردون أبدًا من الأهواء، ولأن جهل الناس الذين لا يتجردون أبدًا من الجهل هو القانون - أو لأن رأي الشعب هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!.

*وتشرع مجموعة من الأمم للبشرية فإذا هي جاهلية . لأن أهدافها القومية هي القانون - أو رأي المجامع الدولية هو القانون - فلا فرق إلا في العبارات!.

*ويشرع خالق الأفراد، وخالق الجماعات، وخالق الأمم والأجيال، للجميع، فإذا هي شريعة الله التي لا محاباة فيها لأحد على حساب أحد، لا لفرد ولا لجماعة ولا لدولة، ولا لجيل من الأجيال، لأن الله رب الجميع والكل لديه سواء، ولأن الله يعلم حقيقة الجميع ومصلحة الجميع ، فلا يفوته - سبحانه - أن يرعى مصالحهم وحاجاتهم بدون تفريط ولا إفراط .

*ويشرع غير الله للناس فإذا هم عبيد من يشرع لهم ، كائنًا من كان ، فردًا أو طبقة أو أمة أو مجموعة من الأمم .

*ويشرع الله للناس فإذا هم كلهم أحرار متساوون، لا يحنون جباههم إلا لله، ولا يعبدون إلا الله.

ومن هنا خطورة هذه القضية في حياة بني الإنسان ، وفي نظام الكون كله ﴿ وَلَوِ

﴿ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (١)، (٢).

ويقول أيضًا : " إن الجاهلية هي الجاهلية ، ولكل جاهلية أرجاسها وأدناسها ، لا يهم موقعها من الزمان والمكان ، فحيثما خلت قلوب الناس من عقيدة إلهية تحكم تصوراتهم ، ومن شريعة - منبثقة من هذه العقيدة - تحكم حياتهم فلن تكون إلا الجاهلية في صورة من صورها الكثيرة " (٣).

ثانيًا : الفرق بين مصدر السلطة ومزاولة السلطة .

يبين سيد - رحمه الله- أن الجهة التي تملك حق الحاكمية ، أي التي تكون هي مصدر السلطات هي لله سبحانه وتعالى ، وأن استمداد القوانين من مصدر أخر أو من جهة أخرى غير الله سبحانه - ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية - ينافي الإيمان والتوحيد ويكون منازعة الله سبحانه في أولى خصائص ألوهيته .

والأمة في النظام الإسلامي هي التي تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله، ولكنها ليست هي مصدر الحاكمية التي تعطي القانون شرعيته، إنما مصدر الحاكمية هو الله ، وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة و بين مصدر السلطة، فالناس بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده ، والناس إنما يزاولون تطبيق ما شرعه الله بسلطانه ، أما ما لم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية ، وما أنزل الله به من سلطان ، وهذا ما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤)، (٥).

وهذه المسألة هي الفارق بين النظام الإسلامي والأنظمة الوضعية الجاهلية التي تجعل الأمة أو الشعب هو المصدر السلطات بمعنى هو صاحب الحق في وضع التشريعات والقوانين عن طريق البرلمانات والأغلبية النيابية وإن كانت مضادة

(١) سورة المؤمنون : الآية ٧١ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩١ ، وينظر أيضًا : السلام العالمي والرأسمالية ص ١٦٠ وما بعدها .
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥١٠ .
(٤) سورة يوسف : الآية ٤٠ .
(٥) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٩٠ بتصرف يسير .

لشرع الله وحكمه.

بينما النظام الإسلامي يجعل الأمة هي صاحبة الحق في مزاولة السلطة من خلال اختيار الحاكم ومراقبة تطبيق أحكام الله لا أنها هي مصدر السلطة والتشريع.

ويقول أيضًا : " ويجب أن نفرق بين قيام الحاكم بتنفيذ الشريعة الدينية ، وبين استمداده السلطان من صفة دينية لشخصه ، فليست للحاكم سلطة دينية يتلقاها مباشرة من السماء كما كان لبعض الحكام في القديم في نوع الحكم المسمى "ثيوقراطية " إنما هو يصبح حاكمًا باختيار المسلمين الكامل وحريتهم المطلقة ، لا يقيدهم عهد من حاكم قبله ، ولا وراثة كذلك في أسرة ، ثم يستمد سلطته بعد ذلك من قيامه بتنفيذ شريعة الله دون أن يدعي لنفسه حق التشريع ابتداء بسلطان ذاتي له ، فإذا لم يرضه المسلمون لم تقم له ولاية ، وإذا رضوه ثم ترك شريعة الله لم تكن له طاعة .

ومن هنا ندرك حكمة النبي ﷺ في أنه لم يعين خليفة من بعده إذ كان هذا مظنة أن يستمد خليفته سلطة دينيه ذاتية من استخلاف الرسول ﷺ له " (١).

ثالثًا : الاجتهاد لمواجهة المستجدات في الحياة وضوابط ذلك :

في الفقرة السابقة بين سيد – رحمه الله– أن مصدر السلطة هو الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له ، وذلك مقتضى الألوهية وعلامة الإيمان، وأنه لا يجوز لأحد سواه أن يشرع للبشر تحت أي مسمى وأن البشر مأمورون – حكامًا ومحكومين – بالرجوع إلى ما شرعه الله لهم من أحكام ونظم في مختلف جوانب حياتهم على السواء " باعتبار أن استئناف حياة إسلامية لا يتم بمجرد وضع تشريعات وقوانين ونظم مستمدة من الشريعة الإسلامية ، فهذا ركن واحد من ركنين يعتمد عليهما الإسلام في إقامة الحياة ، وهو الركن الثاني لا الأول .

أما الركن الأول ، فهو العقيدة الصحيحة التي تفرد الله سبحانه وتعالى بالألوهية، ومن ثم تفرده بالحاكمية وتنكر على غير الله أن يدعي الحاكمية أو يزاولها " (٢).

وبناء على ذلك يوضح سيد – رحمه الله– طريقة التعامل مع ما يعرض للبشر

(١) العدالة الاجتماعية ص ٨٢ .
(٢) المصدر السابق ص ١٩٦ .

من مشكلات وأقضية على مدى الزمان فيقول بعد أن بين وجوب التحاكم إلى نصوص الشرع : " ذلك فيما ورد فيه نص صريح، فأما الذي لم يرد فيه نص ، وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات - ولا يكون فيه نص قاطع ، أو لا يكون فيه نص على الإطلاق، مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام - فإنه لم يترك كذلك تيهًا ، ولم يترك بلا ميزان ، ولم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع، فقد وضع الله منهجًا للاجتهاد كله، وحدده بحدوده، وأقام " الأصل " الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضًا بقوله تعالى: ﴿تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (١)، ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمنًا، فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو، فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته.. وهذه ليست عائمة ولا فوضى ، ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول : وهناك -في هذا الدين - مبادئ أساسية واضحة كل الوضوح ، تغطي كل جوانب الحياة الأساسية ، وتضع لها سياجًا خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين " (٢).

- كما يحدد سيد - رحمه الله- أن الاجتهاد في حالة وجود نص يكون في تطبيق النص على الواقع فيقول:" وما قرره الله سبحانه من العقائد والتصورات ، أو من منهج الحياة ونظامها ، سواء في موقف العقل إزاءه متى صح النص ، وكان قطعي الدلالة ولم يوقت بوقت ، فليس للعقل أن يقول : آخذ في العقائد والشعائر التعبدية، ولكني أرى أن الزمن قد تغير في منهج الحياة ونظامها ، فلو شاء الله أن يوقت مفعول النصوص لوقته . فما دام النص مطلقًا فإنه يستوي زمان نزوله وآخر الزمان احترازًا من الجرأة على الله ، ورمي علمه بالنقص والقصور - سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا - إنما يكون الاجتهاد في تطبيق النص العام على الحالة الجزئية، لا في قبول المبدأ العام أو رفضه ، تحت أي مقولة من مقولات العقل في

(١) سورة النساء : الآية ٥٩ .
(٢) في ظلال القرآن ٦٩١ ، ويراجع بتوسع فصل " الثبات" في كتاب " خصائص التصور الإسلامي " ص ٧٥ وما بعدها .

جيل من الأجيال! " [١].

ويقول أيضا : " فأما حين لا يوجد نصوص فيما جاء به الرسول ﷺ بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلًا من أصول ما جاء به الرسول، وهذا لا ينقض تلك النظرية – النظرية الدستورية الإسلامية التي تجعل الله وحده مصدر السلطات – إنما هو فرع عنها ، فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول ﷺ إن كان هناك نص ، وألا يخالف أصلًا من أصوله فيما لا نص فيه ، وتنحصر سلطة الأمة – والإمام النائب عنها– في هذه الحدود ، وهذا نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعيه يربط التشريع للناس بناموس الكون كله ، وينسق بينه وبين القانون الذي يحكم البشر وهو من منهج الله ، كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون ، فيشقى الإنسان " [٢].

ويقول أيضا : " وحين يُضيِّق الإسلام سلطة الإمام فيما يختص بشخصه ، يوسع له إلى أقصى الحدود في رعاية المصالح المرسلة للجماعة ، تلك المصالح التي لم يرد فيها نص والتي تتجدد بتجدد الزمان والأحوال ، فالقاعدة العامة : أن للإمام المسلم القائم على شريعة الله أن يحدث من الاقضية بقدر ما يجد من مشكلات ، تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[٣] ، وتحقيقًا لأهداف الدين العامة ، في إصلاح حال الفرد، وحال الجماعة ، وحال الإنسانية كلها ، في حدود المبادئ المقررة في الإسلام ، وبشرط العدل الذي يجب توافره في الإمام ، فكل ما يوقع بالأمة ضررًا من أي نوع ، على الإمام ان يزيله ، وكل ما يتحقق للأمة نفعًا من أي نوع عليه أن يقوم به ، على أن لا يخالف نصًا من نصوص الدين" [٤].

ثم يتحدث سيد – رحمه الله– طويلًا حول مبدأ " المصالح المرسلة " و" وسد الذرائع " كدائرة واسعة تشمل تحقيق كافة المصالح للجماعة ، وتضمن دفع جميع

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٨ .

(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٥٢٥ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : نحو مجتمع إسلامي ص ٤٧ وما بعدها .

(٣) سورة الحج : الآية ٨٧ .

(٤) العدالة الاجتماعية ص ٨٤، ٨٥ .

المضار، وينقل نقولات عن ألائمه والفقهاء حول اعتبار مبدأ المصالح المرسلة وسد الذرائع في مواجهة مستجدات الحياة مما لا نص فيه، وينقل أمثلة لما قام به الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – بعد موت النبي ﷺ كجمع القرآن الكريم، وزيادة حد الخمر، وتضمين الصُنَّاع، وقتل الجماعة بالواحد وغير ذلك مما فيه حفاظًا على الحياة الإسلامية ويلخص سيد – رحمه الله– ما يتعلق بقضية الاجتهاد في مواجهة مستجدات الحياة في صورة تطبيق تشريعي جزئي للشريعة الإسلامية الثابتة ، مستشهدًا بفعل بعض الخلفاء الراشدين ومواقفهم إزاء المستجدات في عصورهم مما ليس فيه نص، واعتبار ذلك منارات ومعالم تهتدي بها الأمة ، ويذكر أن التطبيقات التي يحتاجها المجتمع لمواجهة المستجدات في أي زمن لا تخرج عن أربعة احتمالات :

الأول: أن تكون الشريعة قد نصت على حكمة نصًا معينًا صريحًا، فهذا واجب التطبيق دون تحوير أو تبديل.

الثاني: أن تكون الشريعة قد جاءت فيه بنص أو نصوص قابلة للتأويل فيكون حينئذ قابلًا للاجتهاد ترجيحًا أو توفيقًا بين النصوص والحالات المراد تطبيقه عليها، وهذا يسترشد بالتطبيقات العملية في صدر الإسلام وأقوال الفقهاء.

الثالث: أن تكون الشريعة قد جاءت بمبدأ عام ، تدخل هذه المسألة الخاصة فيه حتمًا ولكنه لا ينص عليها تصريحًا ، عندئذ يكون الأمر موضع اجتهاد في تطبيق المبدأ العام على الجزئيات المعروضة والاسترشاد بالسوابق التاريخية والأحكام الفقهية .

الرابع: أن لا يوجد في الشريعة نص عليه، فهو متروك للاجتهاد المطلق على ألا يصدم الحكم الذي يصل إليه مبدأ من مبادئ الإسلام ولا أصلًا من أصول الشريعة، مع الاسترشاد بتصرف فقهاء الإسلام في ما يماثله "[1].

وفيما سبق نجد أن سيدًا – رحمه الله– يرى أن ما لم يرد فيه نص من المستجدات في حياة البشر فلهم أن يواجهوها بالاجتهاد والرجوع إلى النصوص الشرعية في

(١) نحو مجتمع إسلامي ص ٥٢-٥٧ بتصرف .

الكتاب والسُّنَّة واستنباط الأحكام من المبادئ العامة المقررة في الشريعة ، ووضع النظم التي تحكم المستجدات بشرط ألاّ تخالف نصوص الشرع أو تصطدم مع أصوله ، وإنما تنطلق من خلال ما قرره العلماء في باب " المصالح المرسلة ودرء المفاسد " وهما مبدآن عظيمان من مبادئ النظام الإسلامي .

رابعًا : وقفة مع دعوى أن سيد قطب يجوز للبشر أن يشرعوا ما لم يأذن به الله :

أورد الدكتور/ ربيع المدخلي في كتابة " أضواء إسلامية على عقيدة سيد قطب وفكره " فصلًا بعنوان: " سيد قطب يجوّز للبشر أن يشرعوا قوانين لتحقيق حياة إسلامية صحيحة " ، ذكر فيه كلامًا لسيد قطب في العدالة الاجتماعية ونصه : " فإذا انتهينا من وسيلة التوجيه الفكري ، بقيت أمامنا وسيلة التشريع القانوني، لتحقيق حياة إسلامية صحيحة تكفل فيها العدالة الاجتماعية للجميع ، وفي هذا المجال لا يجوز أن نقف عند مجرد ما تم في الحياة الإسلامية الأولى بل يجب الانتفاع بكافة الممكنات التي تتيحها مبادئ الإسلام وقواعده المجملة ، فكل ما أتمته البشرية من تشريعات ونظم اجتماعية ولا تخالف أصوله - أصول الإسلام - ولا تصطدم بفكرته عن الحياة والناس ، يجب أن لا نحجم عن الانتفاع به عند وضع تشريعاتنا، ما دام يحقق مصلحة شرعية للمجتمع ، أو يدفع مضرة متوقعة، ولنا في مبدأ المصالح المرسلة ومبدأ سد الذرائع وهما مبدآن إسلاميان صريحان ما يمنح ولي الأمر سلطة واسعة لتحقيق المصالح العامة في كل زمان ومكان" [1] .

ثم يعقب الدكتور المدخلي على النص السابق بقوله : وعلى هذا مآخذ :

١- كأن سيد يرى أن الإسلام غير كافٍ ولا وافٍ بمتطلبات الأمة الإسلامية !

٢- يمكن لأي دولة تنتمي إلى الإسلام أن تأخذ بكل ما تهواه من القوانين الوضعية بحجة تحقيق المصالح ودرء المفاسد، وبحجة إنها لا تنافي أصول الإسلام...

٣- يرى سيد أخذ كل ما أتمته البشرية من تشريعات ونظم اجتماعية إذا لم تخالف

(١) أضواء إسلامية د/ المدخلي ص ٢١٦ ، وقد نقله عن العدالة الاجتماعية لسيد قطب - الطبعة الخامسة ولم أجده في الطبعة المعدلة .

أصول تلك التشريعات أصول الإسلام... أي لا تحرم التشريعات والنظم الكافرة إلا في حالة مصادمة أصولها أصول الإسلام . أما إذا خالفت أصول تلك التشريعات الكافرة نصوص الإسلام في الأمور الفرعية فلا تحرم بل يجب الأخذ بها والحال كذلك (!!!) وإذا خالفت تفريعات القوانين الكافرة أصول الإسلام فلا حرج فيها بل يجب الأخذ بها ، لأنها فروع صادمت أصول الإسلام ، وإنما الضرر فقط في مصادمة الأصول الكافرة لأصول الإسلام . وبهذا التأصيل والتقعيد الذي يضعه سيد تنفتح أبواب التلاعب بدين الله فكل طاغية يجلب قوانين أوربا وأمريكا تحت شعار هذه التأصيلات [1].

والحقيقة أن هذه المآخذ التي ذكرها د/ المدخلي على كلام سيد في النص السابق لم أجد لها سندًا في النص ،وبيان ذلك كما يأتي :

١- أين كلام سيد - رحمه الله- الذي يدل على أن الإسلام غير كامل ولا واف بمتطلبات الأمة الإسلامية ؟!!.

٢- من أين فهم الدكتور المدخلي أن سيدًا يقرر أن لكل دولة أن تأخذ ما تهواه من القوانين الوضعية ؟؟؟.

٣- أنه في المأخذ الثالث يطبق لازم الكلام ، فإذا أشار سيد إلى الاستفادة مما عند الغير بشرط إلا تخالف أصوله أصول الإسلام ولا تصطدم بفكرته عن الحياة، فهل يعني هذا ما فهمه الدكتور المدخلي من أن سيد - رحمه الله- يرى وجوب الأخذ بأنظمة الكفار إذا كانت أصولها مخالفة لفروع الإسلام أو العكس ؟؟؟ .

أظن أن القارئ المتأمل في كلام سيد - رحمه الله- لا يفهم شيئًا من هذه المآخذ، وخاصة إذا أضاف إليها الشروط التي وضعها سيد - رحمه الله- في النصوص السابقة للاجتهاد في مواجهة المستجدات، من رده الأمر إلى :

- النصوص التي تنطبق عليه ضمنًا.

---

(١) أضواء إسلامية د/ ربيع المدخلي ص ١٢٦، ٢١٧ بتصرف يسير .

- وإذا لم يوجد، فيرد إلى المبادئ الكلية العامة في منهج الله وشريعته .

- وأن للأمة أن تضع من التشريعات لمواجهة تطور الحياة فيما لم يرد فيه نص بشرط ألاَّ تخالف نصوص الشرع ولا أصوله ومبادئه العامة من خلال مبدأ المصالح المرسلة وسد الذرائع .

obeikandl.com

المطلب الخامس

الشورى في النظام الإسلامي

الفرع الأول: تعريف الشورى وحقيقتها :

الشورى في اللغة : الشورى والمشاورة والمشورة ، مصادر للفعل "شور" ، وأصلها في اللغة يعنى : الاستخراج والإظهار والإعانة .[١].

وفي الاصطلاح : هي استطلاع الرأي من ذوي الخبرة فيه للوصول إلى أقرب الأمور للحق[٢].

والشورى من المبادئ الإسلامية العامة التي قررتها الشريعة الإسلامية، وتحدث عنها أهل العلم والسياسة الشرعية في أبواب الإمامة والخلافة كثيرًا، موضحين أهميتها ومكانتها في الإسلام ، وحدودها ومجالاتها ، وشروط أهلها وكيفيها ، وما يتعلق بها من مسائل إجرائية .

حقيقة الشورى:

يرى سيد قطب – رحمه الله– أن حقيقة الشورى ومهمتها هي تقليب أوجه الرأي واختيار اتجاه من الاتجاهات المعروضة ، فإذا انتهى الأمر إلى هذا الحد ، انتهى دور الشورى وجاء دور التنفيذ في عزم وحسم وفي توكل على الله،يصل الأمر بقدر الله ويدع لمشيئته تصوغ العواقب كما تشاء "[٣].

ويقول : " وهذا الأمر – أي مبدأ الشورى وإنفاذه – يقتضي الأخذ بالرأي الذي بدا رجحان الاتجاه إليه في الجماعة "[٤].

---

(١) لسان العرب ٤/ ٣٤٣- ٤٣٦ .

(٢) الشورى في ظل الحكم الإسلامي – عبد الرحمن عبد الخالق – الدار السلفية الكويت ط عام ١٩٧١ ص ١٤ .

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٥٠٢ .

(٤) المصدر السابق ١/ ٥١٦ بتصرف يسير .

الفرع الثاني: أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام:

ذكر سيد -رحمه الله- أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام وكونها أصلاً من أصول الحياة الإسلامية من خلال ما يأتي:

١- ورودها في الآيات المكية ضمن صفات الجماعة المسلمة يدل على عمقها في الحياة الإسلامية:

ففي ظلال قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[١] يقول سيد - رحمه الله- : " وهنا يصور خصائص هذه الجماعة المسلمة التي تطبعها وتميزها ، ومع أن هذه الآيات مكية ، نزلت قبل قيام الدولة المسلمة في المدينة ، فإننا نجد فيها أن من صفة هذه الجماعة المسلمة ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ مما يوحي بأن وضع الشورى أعمق في حياة المسلمين من مجرد أن تكون نظامًا سياسيًا للدولة ، فهو طابع أساسي للجماعة كلها ، يقوم عليه أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها إفرازًا طبيعيا للجماعة ...، وذكر هذه الصفات المميزة لطابع الجماعة المسلمة ، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام ، ذكرها في سورة مكية وقبل أن تكون القيادة العملية في يدها فعلا ، جدير بالتأمل ، فهي الصفات التي يجب أن تقوم أولًا، وهي الإيمان ، والتوكل ، واجتناب كبائر الإثم والفواحش ، والمغفرة عند الغضب ، والاستجابة لله ، وإقامة الصلاة ، والشورى الشاملة ، والإنفاق مما رزق الله ، والانتصار من البغي ، والعفو ، والإصلاح ، والصبر " [٢].

ويقول أيضا : " وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ هذا التعبير يجعل أمرهم كله شورى ليصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة ، وهو كما قلنا نص مكي ، كان قبل قيام الدولة الإسلامية ، فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين ، إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد ... ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكرًا، وكان

(١) سورة الشورى : الآية ٣٨ .
(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٣١٦٠، ٣١٦١ بتصرف يسير .

مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها، إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية، وهي من ألزم صفات القيادة "[١].

٢-أمر الله تعالى لنبيه ﷺ بالشورى : وذلك في قوله تعالى :﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[٢]، يقول سيد - رحمه الله- " وفي هذه الآية نجد أصل النظام الذي تقوم عليه الحياة الجماعية الإسلامية - وهو الشورى - يؤمر به في الموضع الذي كان للشورى - في ظاهر الأمر- نتائج مريرة! [٣]. فهذا النص الجازم﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم، حتى محمد رسول الله ﷺ هذا الذي يتولاه، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكا في أن الشورى مبدأ أساسي لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه [٤].

ويقول أيضا: " ومما يلفت النظر أكثر، الكلام - في صدد التعقيب على معركة حربية ، عن الشورى والأخذ بها ، على الرغم مما كان للشورى من معقبات ظاهرية في النتائج السيئة للمعركة! " [٥].

٣- ممارسة النبي ﷺ للشورى : ولأهمية الشورى في الإسلام فقد درب النبي ﷺ أصحابه - رضوان الله عليهم - والأمة من بعدهم على هذا المبدأ ، مهما كانت نتائجه ، يقول سيد - رحمه الله- " كان الإسلام ينشىء أمة ويربيها ويعدها للقيادة الراشدة ، ولتحقيق ذلك فقد دربها على الشورى في حياتها العملية بإشراف النبي ﷺ ، ولو كان وجود القيادة الراشدة يمنع الشورى ويمنع تدريب الأمة عليها تدريبًا عمليًا واقعيًا في أخطر الشؤون - كمعركة أحد التي قد تقرر مصير الأمة المسلمة نهائيًا وهي أمة ناشئة تحيط بها العداوات والأخطار من كل جانب - ويحل للقيادة أن تستقل بالأمر وله كل هذه الخطورة - لو كان وجود القيادة الراشدة

(١) المصدر السابق ٥/ ٣١٦٥ بتصرف يسير ، وينظر أيضًا : ١/ ٤٥٨ .
(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .
(٣) أي : نتائج غزوة أحد .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٥٠٠-٥٠١ بتصرف
(٥) المصدر السابق ١/ ٤٥٨ .

في الأمة يكفي ويسد مسد مزاولة الشورى في أخطر الشؤون لكان وجود محمد - ﷺ- ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى - كافيًا لحرمان الجماعة المسلمة يومها من حق الشورى! - وبخاصة على ضوء النتائج المريرة التي صاحبتها في ظل الملابسات الخطيرة لنشأة الأمة المسلمة ولكن وجود محمد رسول الله - ﷺ - ومعه الوحي الإلهي ووقوع تلك الأحداث ووجود تلك الملابسات لم يلغ هذا الحق ،لأن الله - سبحانه - يعلم أن لا بد من مزاولته في أخطر الشؤون ومهما تكن النتائج ومهما تكن الخسائر و التضحيات و الأخطار ، لان هذه كلها جزئيات لا تقوم أمام إنشاء الأمة الراشدة المدربة بالفعل على الحياة ، المدركة لتبعات الرأي والعمل الواعية لنتائج الرأي والعمل ومن هنا جاء هذا الأمر الإلهي بالشورى في مثل هذه لظروف" [١].

٤- ممارسة النبي ﷺ وكذا خلفاؤه الراشدون :ومما يظهر أهمية الشورى ومكانتها في الإسلام أيضًا ، ممارسة النبي ﷺ لمبدأ الشورى وتربية الأمة عليه وكذا ممارسة خلفائه الراشدين لهذا المبدأ ، وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى أن النبي ﷺ كان يستشير المسلمين - فيما لم يرد فيه نص - ويأخذ برأيهم فيما هم اعرف به من شؤون دنياهم ، ومن ذلك :

* استشارته ﷺ لأصحابه في معركة بدر في شأن القتال ، وكذا أخذه بمشورة الحباب بن المنذر - رضي الله عنه - فنزل على ماء بدر بعد ان نزل على مبعدة منه [٢].

* وكذا استشارته لهم في شأن أسرى بدر وأخذه بمشورة أبي بكر - رضي الله عنه - حتى نزل القرآن الكريم مؤيدًا رأي عمر - رضي الله عنه - [٣] ، واستشارهم في معركة أحد[٤]، وسمع رأيهم في حفر الخندق ، وكذا في مصالحة غطفان على نصف ثمار المدينة في غزوة الأحزاب [٥]، واستشار بعض أصحابه في حادثة الإفك [٦]، وغيرها.

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٥٠٢ وينظر : ١/ ٥٣٢، ٥٣٣ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٥٦-١٤٥٧، والعدالة الاجتماعية ص ٨٣ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥١، العدالة الاجتماعية ص ٨٣ .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٣٦٠ .
(٥) المصدر السابق ٥/ ٢٨٣٤ ، العدالة الاجتماعية ص ٨٣ .
(٦) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٩٩ .

* وكذلك سار الخلفاء الراشدون من بعده في استشارة المسلمين ، واستشار أبو بكر – رضي الله عنه – في دخول الموبؤة ، وانتهى إلى رأي ، ثم وجد نصًا من السُّنَّة يؤيده فالتزمه ، وجعل الخلافة شورى في ستة من الصحابة ولم يستخلف أحدًا بعينه ، وغير ذلك . (١)

الفرع الثالث : فيم تكون الشورى وطريقتها .

يقرر سيد – رحمه الله– أن الشورى إنما تكون فيما لم يرد فيه نص أما ما ودر فيه نص فلا مجال للشورى فيه بل يجب العمل به " (٢) . فيقول: " كان النبي ﷺ يستشير المسلمين – فيما لم يرد فيه وحي ويأخذ برأيهم فيما هم عرف به من شؤون دنياهم.. أما ما كان فيه وحي فلا مجال فيه للشورى بطبيعة الحال، فهو من مقررات الدين، وكذلك سار الخلفاء في استشارة المسلمين " (٣) .

*أما طريقة الشورى: فيرى سيد – رحمه الله– أنها ليست محدودة بنظام خاص وشكل معين، بل طريقة تطبيقها متروك للأمة وفق أوضاعها وظروفها.

يقول - رحمه الله –: " أما شكل الشورى، والوسيلة التي تحقق بها ، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير وفق أوضاع الأمة وملابسات حياتهم ، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى – لا مظهرها – فهي من الإسلام " (٤) .

ويقول أيضا: " أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوبًا في قالب حديدي، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية، والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالا جامدة ، وليست نصوصًا حرفية ، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب ، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة . والبحث في أشكال الأنظمة الإسلامية دون الاهتمام بحقيقة الإيمان الكامنة وراءها لا يؤدي إلى شيء " (٥) .

---

(١) العدالة الاجتماعية ص ٨٣ .
(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٢/ ٨٠٨ ٣/ ٣٥٢٥ ، ونحو مجتمع إسلامي ص ٥٢ ما بعدها .
(٣) العدالة الاجتماعية ص ٨٣ بتصرف يسير .
(٤) في ظلال القرآن ١/ ٥٠١ .
(٥) المصدر السابق ٥/ ٣١٦٥ .

ويقول أيضًا: " أن الإسلام يجعل الشورى من أسس الحكم في الدولة الإسلامية، فما كيف تتحقق الشورى على الوجه الأمثل فهذا ما لم ينص عليه ، ولقد وقعت في المجتمع الإسلامي على عهد رسول الله ﷺ وبعده ألوان من الشورى ولكن هذه الذي وقع لا يحدد جميع وسائل الشورى ، بل إن ذلك متروك لما يجد من تطورات في جسم المجتمع الإسلامي ، وفي ظروفه ، ومتروك كذلك لما يبتكر من وسائل الشورى الناجحة حسب التجارب المتجددة .

- فهل تتم الشورى على الوجه الأمثل بالتصويت العام في كل الشؤون أم في بعضها ؟.
- أم تتم بتصويت أهل الحل العقد من ممثلي الأمة الذين لا يختلف عليهم ؟.
- أم تتم بواسطة ممثلين للنقابات والجامعات والطوائف المختلفة ؟.
- وهل تتم بالتصويت الشفهي أم الكتابي ؟.
- وهل تتم بمسؤولية الوزراء أمام الحاكم الأعلى المنتخب ؟.
- أم بمسؤوليته أمام الهيئة الممثلة للشعب ؟.
- وهل تتم بمجلس واحد أم بمجلسين ؟ ... الخ .

كل ذلك متروك لظروف كل أمة وزمانها ومكانها ، وللتجارب البشرية التي تحقق الشورى على الوجه الأمثل "(١).

الفرع الرابع: أهل الشورى وطريقة اختيارهم.

يرى سيد – رحمه الله– أن أهل الشورى أو أهل الحل والعقد في الأمة المسلمة هم طائفة من الأمة يبرزون لا من خلال تزكية أنفسهم وترشيحهم والدعاية لأشخاصهم بدعاية ما كي يختاروا لمجلس الشورى أو لغيره – كما هو الحال اليوم، وإنما تبرز هذه الطائفة في الأمة من خلال حركتهم بهذا الدين والعمل له ، ففي أثناء الحركة بهذا الدين – تتميز أقدار الناس وتتحدد مقاماتهم في المجتمع ، ويقوم

---

(١) نحو مجتمع إسلامي لسيد قطب ص ١٤١، وينظر أيضًا: العدالة الاجتماعية ص ٨٣.

هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية ، الجميع يتعارفون عليها ، ومن البلاء في الجهاد ، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق والقدرة والكفاءة ، وكلها قيم يحكم عليها الواقع ، وتبرزها الحركة ، ويعرفها المجتمع ، ويعرف المتسمين بها ، ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية..

وهذا ما حدث في النشأة الأولى للمجتمع المسلم - في عهد النبي ﷺ حيث تميز السابقين من المهاجرين ثم الأنصار، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن البلاء في الإسلام ...

وقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته، وينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة في أي زمان ، دعوة إلى الإسلام ، وفتنة البلاء ، وتميز للصادقين المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية ، وفق الموازين والقيم الإيمانية.. ويومئذ لن يحتاج إلى ترشيح أنفسهم وتزكيتها، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم!

وقد يقال: ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى، فإذا استقر المجتمع بعد ذلك ؟ وهذا سؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين! إن هذا الدين يتحرك دائمًا ولا يكف عن الحركة.. يتحرك لتحرير " الإنسان " كل الإنسان.. في " الأرض"..كل الأرض.. من العبودية لغير الله من الطواغيت وإذن فستظل الحركة التي هي طبيعة هذا الدين الأصيلة تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب، ولا تقف أبدًا ليركد هذا المجتمع ويأسن إلا أن ينحرف عن الإسلام .

وقد يقال: ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضًا، ويصبح الأكفاء الموهوبون في حاجة إلى الإعلان عن أنفسهم وتزكيتها وطلب العمل على أساس هذه التزكية!.

وهذا القول كذلك وهمٌ ناشئ من التأثر بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة ، إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين - كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه ، والالتزام في المجتمع المسلم - ومن ثم يكون

أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم، موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين و قيم إيمانية ، فلا يعز عليهم أن ينتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية.. سواء لمجلس الشورى أو للشؤون المحلية..أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام.. بين مجموعة الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة، والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم، والجهاد ماض إلى يوم القيامة "(١) .

ويتحدث سيد – رحمه الله– عن إشكالية محاولة تطبيق قواعد النظام الإسلامي وأحكامه في المجتمعات المعاصرة وتركيبها العضوي الذي يناقض التركيب العضوي للمجتمع المسلم ، فالمجتمع المسلم يقوم تركيبه على أساس ترتيب الشخصيات والفئات كما ترتبها الحركة لإقرار هذا النظام في عالم الواقع، ومجاهدة الجاهلية ،وتحمل الفتنة والأذى ، بينما المجتمعات المعاصرة تقوم على قيم لا علاقة لها بالإسلام والقيم الإيمانية في ترتيب الشخصيات والفئات .

وبالتالي فأول ما يحير الباحثين والكتّاب هو طريقة اختيار أهل الحل والعقد – أو أهل الشورى – من غير ترشيح من أنفسهم ولا تزكية ! في مجتمعات لا يعرف الناس فيها بعضهم بعضا، ولا يزنون بموازين الكفاية والنزاهة والأمانة، ثم تحيرهم أيضًا طريقة اختيار الإمام؟ أيكون الاختيار من عامة الشعب ؟ أم يكون من ترشيح أهل الحل والعقد؟ وإذا كان الإمام سيختار أهل الحل والعقد، فكيف يعودون فيختارونه ؟ ألا يؤثر هذا في ميزانهم؟ ألا تكون لهم ولاية عليه وهو الإمام الأعظم؟ ثم ألا يجعله هذا يختار أشخاصًا يضمن ولاءهم له ؟ ... وأسئلة كثيرة لا يجدون لها جواب !.

ويحدد سيد – رحمه الله– أن نقطة البدء في هذه المتاهة هو عدم إدراك الفرق بين المجتمعات المعاصرة بتركيبتها العضوية وبين طبيعة المجتمع المسلم المطلوب وكذا اختلاف القيم والموازين والتصورات بينهما ، ما يجعل تطبيق الأحكام الإسلامية في مثل هذه الأوضاع فراغًا لا يمكن أن تعمل فيه "(٢).

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٠٧-٢٠٠٩ بتصرف يسير .

(٢) ينظر : المصدر السابق ٤/ ٢٠٠٧-٢٠١٣ بتصرف .

المطلب السادس

شبهات حول نظام الحكم في الإسلام

استعرض سيد قطب - رحمه الله- عددًا من الشبهات التي تثار حول نظام الحكم في الإسلام، وبين أسبابها وحقيقتها ورد عليها وخاصة في كتابه " معركة الإسلام والرأسمالية " حيث عقد فصلًا بعنوان " شبهات حول حكم الإسلام " ويمكن استعراضها بإيجاز فيما يأتي :

أولًا : أسباب الشبهات المثارة حول الحكم الإسلامي :

يقول -سيد-: " تغيم على الإسلام وعلى حكم الإسلام شبهات داكنة في نفوس هذا الجيل ، وهي ناشئة إما من :

١- الجهل الفاضح بكل شيء عن هذا الدين .

٢- إلتباس فكرة الدين ذاته بمن يسمون في هذا العصر بـ "رجال الدين " وهو التباس مؤذٍ للإسلام وصورته في نفوس الناس ، بسبب جهلهم لحقيقة الدين ، وتأثرهم بثقافة الاحتلال .

٣- إلتباس صورة الحكم الإسلامي ببعض أنواع الحكومات التي تسمى نفسها "حكومات إسلامية " وهي لا تمثل حقيقة الإسلام .

٤- إلتباس صورة الحاكم الإسلامي ببعض الشخصيات التاريخية التي تنتسب إلى الإسلام وتزعم أنها تحكم باسمه "[1].

٥-كيد أعداء الإسلام في تشويه صورة الإسلام بشتى الوسائل وعلى مر العصور.

ثانيًا : بعض الشبهات والرد عليها .

عرض سيد - رحمه الله- بعض الشبهات المثارة في عصره حول الحكم الإسلامي

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٣- ٦٥

وناقشها ورد على أصحابها ويمكن إيجازها فيما يأتي :

الشبهة الأولى: "بدائية الحكم" :

عندما يسمع البعض" الحكم الإسلامي" يتصور بسذاجة أن معناه هو العودة إلى الصورة البدائية التي كانت عليها العرب عند مجيء الإسلام ، والبعد عن صورة الحضارة والمدنية وما أفرزته من تأثيرات على الحياة .

ويرى سيد - رحمه الله- أن سبب هذا يعود إلى:

١- الخلط بين النشأة التاريخية للإسلام وبين النظام الإسلامي ذاته كنظام ، فالنظام الإسلامي كنظام يحتوي على حاجات العصر المتجددة التي تشمل كل حضارة البشرية النظيفة وتجاربها العلمية والفكرية اللائقة بالإنسان ، والشظف والبداوة التي كانت عند مجيء الإسلام ليست أصلاً من أصوله، بل كانت ظاهرة اقتصادية في مرحلة معينة .

٢- الخلط بين الشريعة الإسلامية في ذاتها وبين النشأة التاريخية للفقه الإسلامي، فيظنون أن معنى استحياء القوانين من الشريعة هو الوقوف عند الأحكام الفقهية وهي لا تكفي لمواجهة حاجات المجتمع في هذه العصور!!!

ويبين سيد - رحمه الله- أن هذا خلط مضحك، فالشريعة فيها من المرونة والشمول ما يجعلها تستجيب لحاجات ومطالب الحياة في كل عصر، كما حدث ذلك في عهد النبي ﷺ وعهد الخلافة الراشدة الذي توسع كثيرًا في الأرض وحتى اليوم.

٣- جهل كثير من المشتغلين بالتشريع اليوم بالإسلام وشريعته ، حيث تلقوا تعليمهم غالبًا في ظل عقلية تشريعية أجنبيه ، لا تعرف عن الشريعة الإسلامية إلا اليسير .

ثم يقرر سيد - رحمه الله- تميز الشريعة الإسلامية عن غيرها من القوانين ، بما في ذلك مراعاتها لحاجات الفرد والجماعة ومطالب الحياة المتجددة والمتحضرة ، من دون أن يعني ذلك إخضاع الإسلام ومبادئه وأنظمته لشهوات الجماهير والطغاة

باسم " التحضر والتجديد " على طريقة من يسمونهم " المسلمين العصريين " أو الأقزام " المتحررين " الذين يسيرون على طريقة الكنيسة في تملق شهوات الناس وتقديم الدين بالطريقة التي تناسب شهوات المجتمع [١] .

الشبهة الثانية : حكم المشايخ والدراويش :

يقول سيد - رحمه الله- : " يتصور البعض أن حكم الإسلام معناه حكم المشايخ والدراويش ! بسبب الثقافة السطحية الناقصة ، وملابسات الواقع في هذا الجيل .

وفي الرد على هذه الشبهة يقرر-سيد- أن الإسلام الحق له أصوله وأحكامه التي يقوم عليها ، وليس مسألة الزي واللباس هي التي يُوَلَّى الناس بناءً عليها ، فالإسلام له شريعة واحدة تنظم جميع حالات الحياة وتصدر عنها نشاط البشر ، والذي يتولى عملاً في الأمة يشترط فيه أن يكون حاذقًا فيه، قاضيًا كان أو طبيبًا أو مهندسًا أو غير ذلك .

فالحكم الإسلامي لا يتحقق بوجود طائفة من الناس " رجال الدين " على سدة الحكم ، إنما يتحقق بكون شريعة الإسلام وقوانينه ومبادئه هي التي تحكم ، ويكون الحكم قائمًا على الشورى بين الحاكم والأمة ، والتلقي من مصدر واحد هو الشرع ، وبالتالي فلا مكان للدراويش ومشايخ الطرق الذين يسترزقون باسم الدين في ظل الحكم الإسلامي إلا إذا تحولوا إلى العمل المثمر كغيرهم من أفراد المجتمع " [٢].

الشبهة الثالثة : طغيان الحكم :

ارتبط في أذهان كثير من المثقفين وغيرهم أن الحكم الإسلامي يعني الحكومة الدينية التي من طبيعتها الاستبداد والظلم والجمود وخنق الحريات، وقد جاءت هذه الصورة البائسة من محاكم التفتيش في عصور الظلمات في أوربا ، والتي حرقت العلماء واستعبدت البشر، وكذا من بعض الحكومات القائمة اليوم باسم الدين في بعض بلاد المسلمين ، والتي لا تقوم على الإسلام ، وإنما تتخذه شعارًا للاستبداد .

*وفي الرد على هذه الشبهة يقرر سيد - رحمه الله- أن وجود مثل هذا النوع من

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٥-٦٩ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ص ٦٩-٧٥ بتصرف .

الحكومات المستبدة باسم الدين لا يعني اتهام الدين ووجوب إقصائه من الحياة.

ثم يذكر أمثلة كثيرة للأنظمة الديمقراطية، التي تحكم اليوم في كثير من دول العالم والتي فيها الظلم والاستبداد، وكتم الحريات وانتهاك الحقوق، ويروي قصصًا عن الجرائم والتعذيب للمواطنين في ظل بعض الأنظمة الديمقراطية المعاصرة ! فلماذا لا يطعنون في هذه الأنظمة كما يطعنون في الحكم الإسلامي بسبب سوء تطبيق البعض له أو بسبب انحرافات باسمه ؟؟؟ .

ثم يبين سيد - رحمه الله-: أن المرجع في الحكم على نظام ما يجب أن يكون هو قواعده وأصوله، أما حين تخالف هذه الأصول لأي سبب فلا يصح الطعن فيه .

فالإسلام بأصوله النظرية ومواقفه التاريخية يمثل نموذجًا فريدًا للعدل وحماية الحقوق المشروعة للبشر، وحتى الحدود التي شرعها الله ، والتي يخطر للبعض – ممن لم يدرس فكرة الإسلام الكلية وقواعده العامة – أن فيها قسوة ، فإن الإسلام لا يقيمها إلا بعد أن لا يكون للمجرمين عذر ولا شبهة ، فالإسلام يمنع أولًا الأسباب التي تضطر الفرد إلى الجريمة ويعالجها علاج وقاية قبل وقوعها ، فإذا استهتر الفرد بها وأقدم عليها فالعقوبة ضرورية لحماية المجتمع [1].

الشبهة الرابعة : غموض النصوص :

يصدق بعض الجهلة ما يشيعه المغرضون بقصد التخويف ، عن غموض النصوص في الشريعة الإسلامية ، ويظنون أن كتب الشروح والحواشي التي تمثل المذاهب الإسلامية وخلافات الفقهاء وردودهم شيء غامض لا يمكن الاستفادة منه.

ويرد على هذه الشبهة يقول سيد: " ينسى هؤلاء أن المذاهب الأربعة الكبرى في الإسلام كان مصدر ما فيها من أحكام وتشريعات هو الكتاب والسُّنَّة ، وإن وجد فيها آراء مختلفة في الجزئيات والتطبيقات .

وكل نظرية تشريعية في العالم تختلف حولها الشروح ، ويتجادل فيها القانونيون ، ومع ذلك لا يدعو أحد إلى نبذها بعذر اختلاف الشراح حولها .

---

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٧٥-٨٤ بتصرف .

إن الأصول الإسلامية واضحة في الكتاب والسُّنَّة ، وهما الينابيع الأصيلة في الإسلام ، وسعة المبادئ وعمومها في الشؤون العامة المتجددة تترك مجالاً لتطبيقها على الواقع في كل العصور [١] .

الشبهة الخامسة : " الحريم " :

وهي شبهة أُلصقت بهذا الدين ، وجدت في عهد الأتراك ، حيث يتحدث البعض أن الإسلام لو حكم فسيعيد النساء رقيقًا ، يحبسن في الحريم .

* وفي الرد على هذه الشبهة يقرر سيد - رحمه الله-: أن وثبة الإسلام بالمرأة وثبة إنسانية كريمة، لم تصل إليها حتى الحضارة الغربية اليوم .

فالإسلام منح المرأة حقوقها التي تحتاجها لتعيش امرأة فاضلة شريفة محترمة .

ويشير-سيد- إلى أن الذين يتحككون بقضايا المرأة اليوم لهم أهدافهم في تجريد المرأة من مقوماتها الإنسانية ، ليتحول المجتمع إلى بهائم باسم الحرية .

وبالتالي فلا خوف على المرأة من حكم الإسلام، لأنه يسمح لها بمزاولة نشاطها الإنساني في حدود الشرف والكرامة [٢].

الشبهة السادسة : التعصب ضد الأقليات :

ذكر سيد - رحمه الله- أن التخوف من حكم الإسلام على الأقليات القومية نوع من التجني الذي لا يليق ، فليس هناك دينٌ ولا حكمٌ في الدنيا ضمن لهذه الأقليات حرياتهم وكرامتهم وحقوقهم كما صنع الإسلام في تاريخه الطويل ... في حين كان جزاء الإسلام من هذه القوميات هو الاضطهاد لأتباعه في بلاد الأديان الأخرى ، مما يجعل الحديث عن قومية الحكم في ظل التشريع الإسلامي حديثًا بغيضًا لا سند له من الحق ولا من الواقع والتاريخ ولا من الإنصاف .

ثم ذكر مثالًا لعهد الأتراك وأورد كلامًا لأحد المستشرقين حول معاملة العثمانيين للمسيحيين مقارنة بما حدث بين بعض الفرق المسيحية في أوربا وروسيا

(١) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٨٤-٨٦ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ص ٨٦-٨٨ بتصرف .

من اضطهاد لأفراد الفرق المخالفة لها من المسيحيين، وأشار إلى أن اليهود الذين أضطهدوا في أسبانيا لم يجدوا لهم مكانًا يؤويهم إلا الخلافة العثمانية ، وبالمقابل أشار إلى ما يعانيه المسلمون في بلاد غير المسلمين كالحبشة وروسيا ويوغسلافيا وسائر بلاد الشيوعية والمسيحية من تعصب واضطهاد [1] .

وأشار سيد - رحمه الله- إلى أن هذه الشبهات وغيرها يكفي في جلائها مجرد المعرفة الصحيحة للحقائق التاريخية والاجتماعية الإسلامية [2] .

---

(١) المصدر السابق ص ٨٨ - ٩٢ .

(٢) معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٤ .

obeikandl.com

المطلب السابع

موقف سيد قطب من الأنظمة المعاصرة ومنهج التغيير عنده

تحدث سيد – رحمه الله– عن الأنظمة المعاصرة وحقيقتها، والموقف الذي ينبغي أن يكون حيالها وكيفية التعامل معها، ويمكن بيان ذلك في الفروع الآتية :

الفرع الأول: نظرة سيد قطب إلى الأنظمة المعاصرة :

يرى سيد – رحمه الله– أن هذه الأنظمة من صنائع الاستعمار ومخلفات الغزو الصليبي لبلاد المسلمين في القرنين الماضيين، وأنها أنظمة جاهلية ، لأنها لا تقرّ لله بالحاكمية ، وإنما تعتدي على سلطان الله ، وتدعي لنفسها الحاكمية .

يقول سيد : " إنَّ العالم يعيش اليوم كله في جاهلية ، من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها ، هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية وهي الحاكمية ، إنها تسند الحاكمية إلى البشر، فتجعل بعضهم لبعض أربابًا ، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى ، ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم، والشرائع والقوانين ، والأنظمة والأوضاع ، بمعزل عن منهج الله للحياة ، وفيما لم يأذن به الله "[1] .

ويبني سيد – رحمه الله– حكمه هذا على أنه لا يوجد في الأرض إلا حكمان: حكم الله سبحانه وتعالى أو حكم الجاهلية ، فلا وسط بين الطرفين ولا بديل .

* فحكم الله هو الذي يقوم على تنفيذ شريعة الله في حياة الناس ، والناس – في أي زمان وفي أي مكان – إما أنهم يحكمون بشريعة الله – دون فتنة عن بعضها – ويقبلونها ويسلمون بها فهم في دين الله ، وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر، ويقبلونها فهم إذن في جاهلية..والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية ، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية ، ويعيش في الجاهلية

(١) معالم في الطريق لسيد قطب ص ١٠ ، وينظر : في ظلال القرآن ٢/ ١١٣٨ ، ٣/ ١٧٣٥ .

وهذا مفرق الطريق" [١].

وأشار- رحمه الله - إلى دور اليهود والصليبيين في القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية ، وإقامة أنظمة وأوضاع في العالم الإسلامي تتـزيا بزي الإسلام، وتتمسح بالعقيدة، ولا تنكر الدين جملة ، بل تحوله إلى مجرد شعائر ومشاعـر في نفوس الأفراد مع طرده من واقع الحياة ، وهي بذلك تنفذ الأهداف والخطط التي عجز أعداء الإسلام عن تنفيذها من خلال الشيوعية والتنصير والاستعمار بالقوة .

وأحيانًا يلجأ أعداء الإسلام إلى إثارة حروب مصطنعة - باردة أو ساخنة - وعداوات مصطنعة في شتى الصور ، بينهم وبيِّن هذه الأنظمة والأوضاع التي أقامتها والتي تكفلها بالمساعدات المادية والأدبية ، وتحرسها بالقوى الظاهرة والخفية ، وتجعل أقلام مخابراتها في خدمتها وحراستها المباشرة!.

تثير هذه الحروب المصطنعة والعداوات المصطنعة ، لتزيد من عمق الخدعة، ولتبعد الشبهة عن العملاء ، الذين يقومون لها بما عجزت هي عن إتمامه في خلال ثلاثة قرون أو تزيد ، من تدمير القيم والأخلاق، وسحق العقائد والتصورات، وتجريد المسلمين في هذه الرقعة العريضة من مصدر قوتهم الأول وهو قيام حياتهم على أساس دينهم وشريعتهم ، وتنفيذ المخططات الرهيبة التي تضمنتها بروتوكولات الصهيونيين ومؤتمرات المبشرين، في غفلة من الرقباء والعيون!.

فإذا بقيت بقية في هذه الرقعة لم تجز عليها الخدعة، ولم تستسلم للتخدير باسم الدين المزيف، وباسم الأجهزة الدينية المسخرة لتحريف الكلم عن مواضعه، ولوصف الكفر بأنه الإسلام، والفسق والفجور والانحلال، بأنه تطور وتقدم وتجدد.. إذا بقيت بقية كهذه سلطت عليها الحرب الساحقة الماحقة، وصبت عليها التهم الكاذبة الفاجرة وسحقت سحقًا، بينما وكالات الأنباء العالمية وأجهزة الإعلام العالمية خرساء صماء عمياء!!! [٢].

" ويحتاجون في سبيل ذلك أن يخلقوا أبطالاً مزيفين في أرض الإسلام يعملون لهم

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٤ بتصرف ، وأيضًا ٤/ ٢٠١١ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١٠٣٢-١٠٣٣ بتصرف .

في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام كما فعلوا مع " أتاتورك " حتى صنعوا منه بطلاً قوميًا في أعين مواطنيه، وبذلك استطاع أن يلغي الخلافة ويمحوا الإسلام من تركيا ويحولها إلى دولة علمانية ، وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين "[1].

ومما سبق يظهر لنا أن سيد قطب - رحمه الله- كان ينظر إلى الأنظمة القائمة في العالم الإسلامي على أنها أنظمة غير إسلامية أو بتعبير أخر أنظمة جاهلية ، لقيام الحاكمية فيها على غير شريعة الله ، ولكن هذا لا يعني الحكم بكفر الشعوب والأفراد ، فتلك مسألة أخرى ! .

وقد وضح سيد - رحمه الله- ذلك كما نقله عنه غير واحد وفي محاضر التحقيق أيضًا حيث سئل - رحمه الله- عن ماذا يقصد بقوله: " إن وجود الأمة المسلمة قد انقطع منذ فترة طويلة ؟ " ، فقال : " لابد من تفسير مدلول كلمة الأمة المسلمة التي أعنيها ، فالأمة المسلمة هي التي تحكم كل جانب من جوانب حياتها الفردية والعامة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، شريعة الله ومنهجه، وهي بهذا الوصف غير قائمة الآن لا في مصر، ولا في أي مكان في الأرض ! وإن كان هذا لا يمنع من وجود الأفراد المسلمين، لأنه فيما يتعلق بالفرد يكون الاحتكام إلى عقيدته وخلقه، وفيما يتعلق بالأمة يكون الأحتكام إلى نظام حياتها كلها ! وبالتالي فنظام الحكم القائم نظام غير إسلامي، أو تعبير آخر نظام جاهلي" [2].

الفرع الثاني : الموقف من هذه الأنظمة :

الذي يقرا كتب سيد قطب - رحمه الله- يدرك بوضوح أنه لا يعترف بشرعية الأنظمة التي تقوم على تحكيم غير شريعة الله ، ويعتبرها أنظمة طاغوتية جاهلية، وبالتالي يجب مفاصلتها وفضح حقيقتها والسعي لتغييرها ، ويمكن تلخيص موقف سيد - رحمه الله- من الأنظمة العلمانية في النقاط الآتية :

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٥٥٧-٣٥٥٨ بتصرف .

(٢) ينظر في ذلك : " الموتى يتكلمون " لسامي جوهر ص ١١١- ١٤٦ ، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد للخالدي ص ٤٣٣- ٤٣٤ .

أولًا: وجوب مفاصلتها والبراءة منها :

حيث تحدث سيد - رحمه الله- عن تحديد العلاقة مع الجاهلية وأهلها عمومًا، ووجوب مفاصلتها والتميز عنها، ويعتبر ذلك شرطًا من شروط التمكين للعصبة المؤمنة، فيقول: " وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض ، وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها - والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية - وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها، باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذي يؤثرون البقاء في الجاهلية ،والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها .

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض.. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيديًا وشعوريًا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية.. وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج .. فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة ، ولم تتميز هذا التميز ، حق عليها وعيد الله هذا ، وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع ، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع ، ولا تتبين نفسها ، ولا يتبينها الناس مما حولها ، وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد، دون أن يدركها فتح الله الموعود!.

إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات.. لكنها لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه، ونتيجة انضمامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها.

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي الرسل يعطينا يقينًا جازمًا بأن فتح الله ونصره ، وتحقيق وعده للذين آمنوا لم يقع مرة واحدة ، قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة ..وطريق الدعوة واحد "[1] .

ويقرر سيد قطب - رحمه الله- أن المفاصلة تمر بمراحل :

المرحلة الأولى : المفاصلة العقدية الشعورية : وهي شعور المسلم بانفصاله عن أهل الجاهلية ، وبغضهم وعداوتهم ، والانخلاع من تصورات الجاهلية ، وقيمها

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٥ بتصرف يسير ، ٤/ ١٩٤٦- ١٩٤٧ .

وروابطها ، والتحلي بالقيم الإيمانية ، وهذه المفاصلة العقيدية الشعورية يجب أن تتم منذ اللحظة الأولى [١] .

المرحلة الثانية: الوضوح في دعوة الناس إلى الإسلام الحق: فلا بد من الوضوح في دعوة الناس إلى الدينونة لله وحده في كل شؤون الحياة ، ونبذ الدينونة لغير في أي صورة من الصور، وقد تطول فترة الدعوة قبل المفاصلة العملية [٢] .

وتحدث سيد – رحمه الله– عن العرض المتميز للدعوة في فصل كامل من " معالم في الطريق " بعنوان ! " نقلة بعيدة " فقال : " هناك حقيقة أولية ، ينبغي أن تكون واضحة في نفوسنا تمامًا ونحن نقدم الإسلام للناس : المؤمنين به أو غير المؤمنين على السواء..

إن الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة ذو خصائص متميزة، ينبثق منه منهج مستقل للحياة بكل مقوماتها، ويقوم عليه نظام خاص، يخالف سائر التصورات الجاهلية قديمًا وحديثًا..

ووظيفة الإسلام الأولى هي إنشاء حياة توافق هذا التصور وتمثله في الواقع نظامًا، وليس الاصطلاح مع التصورات والأوضاع الجاهلية – أو الالتقاء معها في منتصف الطريق والقبول بأنصاف الحلول، فالإسلام وظيفته إقصاء الجاهلية من قيادة البشرية، وتولي قيادتها على منهجه الخاص، لم يجيء ليربت على شهوات الناس وأنظمتهم وأوضاعهم الجاهلية..

فالجاهلية خبثت قديمًا وخبثت حديثًا.. يختلف خبثها في مظهره وشكله ، ولكنه واحد في أصله ومغرسه.. وهذه الحقيقة ينبغي أن تكون من القوة والوضوح في نفوسنا ونحن نقدم الإسلام للناس بحيث لا نتلجلج في الإدلاء بها ولا نتلعثم، ولا ندع الناس في شك منها...

يجب ألاَّ ندع الناس حتى يدركوا أن الإسلام ليس هو أي مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية ، كما أنه ليس أي نظام من أنظمة الحكم الوضعية .. بشتى

---

(١) معالم في الطريق ص ٢٠ ، وفي ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٦-١٩٤٧ .

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٧ بتصرف يسير .

أسمائها وشياتها ورواياتها جميعًا .. وإنما هو الإسلام فقط ! الإسلام بشخصيته المستقلة وتصوره المستقل، وأوضاعه المستقلة، وحين ندرك حقيقة الإسلام على هذا النحو، فسيجعلنا نخاطب الناس ونقدم لهم الإسلام، في ثقة وقوة، وفي عطف كذلك ورحمة.. ثقة الذي يستيقن أن ما معه هو الحق وأن ما عليه الناس هو الباطل، وعطف الذي يرى شقوة البشر، وهو يعرف كيف يسعدهم ..

لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسسًا ، ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة .. سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة.. هذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس والله يريد أن يطهركم.. هذه الأوضاع التي أنتم فيها خبث، والله يريد أن يطيِّبكم.. هذه الحياة التي تحيونها دَوْنٌ، والله يريد أن يرفعكم ، والإسلام سيغير تصوراتكم وأوضاعكم وقيمكم ، ويرفعكم إلى حياة وأوضاع وقيم أفضل منها وهكذا ينبغي أن تخاطب الناس ونحن نقدم لهم الإسلام .

وهذه هي الصورة التي خاطب الإسلام الناس بها أول مرة ، نظر إليهم من عل، خاطبهم بلغة الحب والعطف ، وفاصلهم مفاصلة كاملة لا غموض فيها ولا تردد لأن هذه هي طريقته.. ولم يقل لهم أبدًا إنه لن يمس حياتهم وأوضاعهم وتصوراتهم وقيمهم إلا بتعديلات طفيفة ! أو أنه يشبه نظمهم وأوضاعهم، كما يقول بعضنا اليوم للناس وهو يقدم إليهم الإسلام.. مرة تحت عنوان: " ديمقراطية الإسلام " ! ومرة تحت عنوان " اشتراكية الإسلام " ! ... إلى آخر هذا التدسس الناعم والتربيت على الشهوات ! .

كلا، إن الأمر مختلف جدًا.. فصورة الحياة الإسلامية مغايرة تمامًا لصور الحياة الجاهلية قديمًا وحديثًا... وهذه حقيقة يجب أن نجهر بها ونصدع، وألا ندع الناس في شك منها ولا لبس. وقد يكره الناس هذا في أول الأمر و يجفلون منه كما كرهوه في أول الدعوة وحاربوه، ومع ذلك فقد فاؤوا إلى الحق الذي لم يعجبهم أول مرة... وعمومًا فليس لنا أن نجاري الجاهلية في شيء من تصوراتها وأوضاعها وتقاليدها ، مهما كان ضغطها علينا ، لابد لنا أن نثبت أولًا ، وأن نستعلي ثانيًا ، وأن نبين حقيقة

الجاهلية بالقياس إلى الآفاق العليا للحياة الإسلامية التي نريدها [١].

المرحلة الثالثة : المفاصلة العملية : وتكون في حالة الضعف تكون بهجر مجالس المنكر والزور وعدم مجاراة أهل الجاهلية في باطلهم أو السكوت عنهم ، فالمسلم مأمور بمفاصلتهم وبمقاطعتهم إلا للذكرى [٢].

يقول سيد - رحمه الله-: " ولن يكون هذا- أي التميز والمفاصلة- بأن نجاري الجاهلية في بعض الخطوات، كما أنه لن يكون بأن نقاطعها الآن وننزوي عنها وننعزل.. كلا! ، إنما هي المخالطة مع التميز ، والأخذ والعطاء مع الترفع ، والصدع بالحق في مودة ، والاستعلاء بالإيمان في تواضع [٣]. فسيد - رحمه الله- في كلامه السابق يرفض أمرين :

الأول : مجارة أهل الجاهلية في جاهليتهم سواء كانت في التصور أو الحكم أو السلوك .

والثاني : الانعزال والانزواء في الكهوف وترك أهل الجاهلية يزاولون منكراتهم، ويحدد طريقة التعامل: بالمخالطة مع التميز ، والتعامل مع الترفع ، والصدع بالدعوة في مودة والاستعلاء بالإيمان الذي يحمله الداعية .

وهذا يرد على من يقول بأن سيد - رحمه الله- دعا إلى عزلة المجتمعات ومفاصلة الناس . أما قضية تولي المناصب في ظل الأنظمة غير الإسلامية ، فيفهم من كلام سيد قطب - رحمه الله- في قصة يوسف - عليه السلام - أنه يرى جوازها بشرط أن يكون من يتولاها في عمله حاكمًا مطاعًا لا خادمًا للوضع الجاهلي، وأن يتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره وإلا فلا [٤].

ويقرر سيد - رحمه الله- أن فترة الدعوة قد تطول قبل المفاصلة العملية ، وقد يبطئ الفصل ، وتكثر التضحيات ، ولكن وعد الله بالفصل يجب أن يكون في قلوب

---

(١) معالم في الطريق : فصل نقله بعيدة ص ١٦٢-١٧٧ بتصرف يسير .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٨ بتصرف .
(٣) معالم في الطريق ١٧٦ .
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠١٣ .

العصبة المؤمنة أصدق من الواقع الظاهر في جيل أو أجيال فهو لا شك آتٍ ، ولن يخلف الله وعده [١] .

ثانيًا: إزالة اللافتات المضللة عن الأنظمة الجاهلية :

يقول سيد - رحمه الله- : "وأعداء هذا الدين الراصدون لحركات البعث الإسلامي الجديدة في هذا الجيل، يرصدونها عن خبرة واسعة بطبيعة النفس البشرية وبتاريخ الحركة الإسلامية على السواء وهم من أجل ذلك حريصون كل الحرص على رفع لافتة إسلامية على الأوضاع والحركات والاتجاهات والقيم والتقاليد والأفكار التي يعدونها لسحق حركات البعث الإسلامي الجديدة في أرجاء الأرض جميعًا ، ذلك لتكون هذه اللافتة الخادعة مانعة من الانطلاق لمواجهة "الجاهلية" الحقيقية القابعة وراء تلك اللافتة الكاذبة ! ... كما فعلوا مع حركة " أتاتورك " التي ألبسوها " لافتة إسلامية " فتحتم - إذن - إزالة هذه اللافتة ، وتعريتهم من ظلها الخادع، وكشفهم على حقيقتهم الواقعة، لأن السذج من الدعاة إلى الإسلام في الأرض يتحرجون من إنزالها عن " الجاهلية " القائمة تحتها، ويتحرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هذه اللافتة الخادعة.. وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الكامل لمواجهة هذه الجاهلية ، بل يؤدي إلى تخدير حركات البعث الإسلامي ، وتقوم حاجزًا دون الوعي الحقيقي ، وهؤلاء السذج - من الدعاة إلى الإسلام - أخطر في نظري على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين الذين يرفعون لافتة الإسلام على الأوضاع والحركات والاتجاهات والأفكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق هذا الدين.

والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس في قوة أعدائه بقدر ما يكمن في سذاجة أبنائه .. لذا فالواجب الأول على الدعاة في الأرض أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية.. وهذا نقطة البدء في أية حركة إسلامية " [٢] .

---

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩٤٧ .

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٦٤٨-١٦٥٠ بتصرف .

ثالثًا : السعي لتغيير الأنظمة الجاهلية وإقامة النظام الإسلامي :

الذي يقرأ كتب سيد - رحمه الله- وخاصة "الظلال" و "المعالم" يجد أنه يتحدث كثيرًا عن وجوب العمل الدائب لتغيير الأنظمة الجاهلية، من خلال إستراتيجية طويلة، إبتداءً بتوعية الأمة بالإسلام وتكوين قاعدة شعبية تقبل الإسلام وتطالب به وتحافظ عليه.

ومع ذلك لا يغفل محاربة المنكرات الجزئية ، بل يرى وجوب ربطها بالمنكر الأكبر وهو " حاكمية غير الله " وعدم الانشغال بها عن هذا المنكر الأكبر .

وقد انتقد رحمه الله الذين ينشغلون بالمنكرات الجزئية ، ويجعلون منها إستراتيجية تشتغل الناس عن المنكر الأكبر.

ويحدد - سيد قطب - بوضوح موقفه من الأنظمة الجاهلية ، ويقرر أن الاكتفاء بترقيعها والانشغال بالجزئيات عن الأصل وهو التغيير ، لا يصح مطلقًا ، بل هو انحراف عن المنهج الإسلامي الذي يرفض التعايش مع الجاهلية أو الالتقاء معها في منتصف الطريق فيقول: " وليست وظيفة الإسلام إذن أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض ، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان، لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ، ولن تكون هذه وظيفته اليوم ، ولا في المستقبل، فالجاهلية هي الجاهلية، الجاهلية هي الانحراف عن العبودية لله وحده ، وعن المنهج الإلهي في الحياة ، واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الإلهي والإسلام هو الإسلام ، ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام " [1].

ويقول : " إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية، لا من ناحية التصور، ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة من هذا التصور.. فإما إسلام وإما جاهلية، وليس هنالك وضع آخر نصفه إسلام ونصفه جاهلية يقبله الإسلام ويرضاه .. فنظرة الإسلام واضحة في أن الحق واحد لا يتعدد ، وأن ما عدا هذا الحق فهو الضلال، وهما غير قابلين للتلبس والامتزاج، وإنه إما حكم الله وإما حكم الجاهلية، وإما

(١) معالم في الطريق ص ١٦٣ .

شريعة الله، وإما الهوى..والآيات القرآنية في هذا المعنى متواترة كثيرة :﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[١]، [٢].

ويقول : " ليست مهمتنا أن نصطلح مع واقع المجتمع الجاهلي، ولا أن ندين له بالولاء.. فهو غير قابل لأن نصطلح معه، إن مهمتنا أن نغير من أنفسنا أولًا لنغير هذا المجتمع أخيرًا.

إن مهمتنا الأولى هي تغيير واقع هذا المجتمع من أساسه لأنه يصطدم اصطداما أساسيا بالمنهج والتصور الإسلامي ويحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهي أن نعيش " [٣].

ويقول : " إن الإسلام إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد ،فهو يهدف إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان " [٤].

مراحل التغيير ووسائلها عند سيد قطب :

يرى سيد قطب: أن تغيير الأنظمة الجاهلية يحتاج إلى إستراتيجية طويلة تمر بعدة مراحل هي :

المرحلة الأولى: مرحلة الدعوة والبيان وإحياء العقيدة في نفوس الناس وتربيتهم على الإسلام:

حيث خلص -سيد قطب- من خلال مراجعته ودراسته الطويلة للحركة الإسلامية المعاصرة ومقارنتها بالحركة الإسلامية الأولى - جيل الصحابة - إلى أن الحركة اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات يوم جاء الإسلام من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية ، والبعد عن القيم والأخلاق الإسلامية ،

(١) سورة المائدة : الآية ٤٩ .
(٢) معالم في الطريق ص ١٦٣ .
(٣) المصدر السابق ص ١٦٣ .
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣٥.

وليس فقط البعد عن النظام والشريعة الإسلامية ، وفي الوقت نفسه توجد معسكرات مختلفة تحارب الدعوة الإسلامية وتعمل على تدميرها بوسائل مختلفة .

وبما أن المجتمعات بجملتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة الإسلامية والغيرة عليها ، وبعدت عن الأخلاق الإسلامية ، فلابد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول [١] .

ويرى أن" أصحاب الدعوة إلى دين الله وإقامة النظام الذي يتمثل فيه هذا الدين والواقع خليقون أن يقفوا أمام ظاهرة اهتمام القرآن الكريم والنبي ﷺ بتقرير العقيدة في بداية الدعوة وعدم مجاوزتها إلى غيرها ..فمتى استقرت العقيدة في النفوس استقر معها النظام الذي تتمثل فيه " لا اله إلا الله " بعد ذلك في الواقع..

وينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة، وأن تتم خطوات البناء على مهلٍ ، وفي عمقٍ وتثبت، فبناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة [٢].

" وأشق ما تعانيه حركات الإسلام اليوم هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول " لا إله إلا الله" ومدلول الإسلام في جانب، وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر.. وبالتالي فيجب أن تبدأ الدعوة إلى الله ببيان الحق والباطل وألا تأخذها خشية أو خوف في سبيل بيان الواقع وتعريف الناس بما يجب أن يكونوا عليه " [٣] .

المرحلة الثانية :التنظيم وبناء القاعدة الصلبة (العصبة المؤمنة) :

يرى – سيد قطب – أن التغيير ينبغي أن يكون عن طريق تكوين تنظيم ناجح، يتنامى هذا التنظيم ويزداد انتشارًا حتى يكون قاعدة إسلامية صلبة قادرة على التغيير الشامل للأنظمة الجاهلية ، فيقول : " وهذا يقتضي عملية بعث في الرقعة الإسلامية ، هذا البعث الذي يتبعه – على مسافة ما بعيدة أو قريبة – تسلم قيادة البشرية ، فكيف تبدأ عملية البعث الإسلامي ؟ .

---

(١) ينظر : لماذا أعدموني ص ٢٧-٢٨ بتصرف .
(٢) ينظر : معالم في الطريق ص ٤٢-٥١ ، في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٥-١٠١٥ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ١١٠٦-١١٠٧ بتصرف .

إنه لا بد من طليعة تعزم هذه العزمة ، وتمضي في الطريق ، تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الأطناب في أرجاء الأرض جميعًا ، تمضي وهي تزاول نوعًا من العزلة من جانب ، ونوعًا من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة..

ولا بد لهذه الطليعة من معرفة بدورها ، وحقيقة وظيفتها ، ونقطة البدء في الرحلة الطويلة ، وموقفها من الجاهلية وأين تلتقي مع الناس وأين تفترق وكيف تخاطبهم وبم تخاطبهم ؟ (١).

ويطلق سيد - رحمه الله- على هذا التنظيم أسماء متعددة في كتاباته، فأحيانًا يسميه " الجماعة المسلمة" وأحيانا " العصبة المسلمة " وأحيانًا " طلائع البعث الإسلامي " وأحيانًا " الطليعة المؤمنة " وأحيانًا " التجمع الحركي العضوي " (٢).

ويعلل سيد - رحمه الله- ظروف وجود هذا التنظيم والتجمع الحركي لتغيير الأنظمة الجاهلية بقوله: " ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية مجردة ، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو، فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية ، ورد الناس إلى الله مرة أخرى ، لا يجوز - ولا يجدي شيئًا - أن تتمثل في نظرية مجردة ، فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلًا والمتمثلة في تجمع حركي عضوي ، فضلًا على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل ، لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وجزئياته ، لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية ، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك التجمع الجاهلي القائم فعلًا " (٣).

ويقول أيضًا : " والمنهج الإلهي الذي يمثله الإسلام في صورته التي جاء بها محمد ﷺ لا يتحقق في الأرض وفي دنيا الناس مجرد تنزله ، ولا مجرد إبلاغه للناس وبيانه، ولا بالقهر الإلهي على نحو ما يمضي ناموسه في دورة الفلك وسير الكواكب ، إنما يتحقق بأنه تحمله جماعة من البشر ، تؤمن به إيمانًا كاملًا، وتستقيم عليه - بقدر

(١) معالم في الطريق ص ١١، ١٢ بتصرف يسير .
(٢) ينظر : في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٦ و معالم في الطريق ص ١١ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٥٤ ، وهذا الدين ص ٩ .
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٥٦ ، معالم في الطريق ص ٥٤ .

طاقتها - وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين وفي حياتهم كذلك ، وتجاهد لهذه الغاية بكل ما تملك ، فتجاهد الضعف البشري والهوى داخل نفوسها ، وتجاهد الذين يدفعهم الضعف والهوى للوقوف في وجه الهدى "[١] .

وقد حاول سيد - رحمه الله- إنشاء هذا التنظيم من خلال محاولة إحياء تنظيم يستفيد من قاعدة الإخوان المسلمين المحظورة ، وهو ما عرف بتنظيم " ٦٥ " والذي شارك فيه مع مجموعة من قيادات الإخوان المسلمين ، ووضع له برنامجًا تربويًا يقوم على إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول ، وتربية من يقبل هذه الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة ، تربية إسلامية صحيحة ، وفق برنامج تربوي متكامل[٢] .

وبعد ذلك تجيء الخطوات التالية بطبيعتها، بحكم اقتناع وتربية القاعدة في المجتمع والتي تكون نواة للعمل والتغيير[٣] .

وقد أشار سيد - رحمه الله- إلى أنه " لا يجوز البدء بأي تنظيم إلا بعد وصول الأفراد إلى درجة عالية من فهم العقيدة ، ومن الأخذ بالخلق الإسلامي في السلوك والتعامل ، ومن الوعي بالمفاهيم الإسلامية وطريقة التعامل مع المعسكرات المعادية والعقبات في طريق الدعوة "[٤] .

المرحلة الثالثة: إزالة الأنظمة الجاهلية:

وهذه المرحلة هي المرحلة النهائية في طريق التغيير عند سيد قطب، حيث يقول: " وقيام مملكة الله في الأرض، وإزالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده ، وسيادة الشريعة الإلهية وحدها ، وإلغاء القوانين البشرية، كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لان المتسلطين على رقاب العباد ، المغتصبين لسلطان الله في الأرض لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان ، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض ، وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل -

(١) هذا الدين ص ٩-١٠ بتصرف يسير .
(٢) لماذا أعدموني ص ١٧، ٢٦-٢٩ بتصرف يسير ، وسيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد للخالدي ص ٣٨٦ وما بعدها .
(٣) لماذا أعدموني ص ٣١ .
(٤) المصدر السابق ص ٤٢، ٤٣ بتصرف .

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – وتاريخ هذه الدين على مر الأجيال !.

إن هذا الإعلان العام لتحرير " الإنسان" في " الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله ، لم يكن نظريًا سلبيًا ، إنما كان إعلانًا حركيًا ايجابيًا .. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل " الحركة " إلى جانب شكل " البيان " ليواجه " الواقع" البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه " فالبيان" يواجه العقائد والتصورات ، و" الحركة " تواجه العقبات المادية الأخرى ، وهما معًا يواجهان " الواقع البشري" بجملته "[١].

ومن ثم لم يكن بد " للإسلام " أن ينطلق في الأرض لإزالة " الواقع " المخالف لذلك الإعلان العام، بالبيان وبالحركة مجتمعين ، وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تُعَبِّد الناس لغير الله – أي تحكم بغير شرع الله وسلطانه – والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى " البيان " ،والذي يدرك طبيعة هذا الدين– على النحو المتقدم– ليدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة جهاد بالسيف – إلى جانب الجهاد بالبيان "[٢].

ويقول أيضًا : " وإن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد ،ولا يصلح إلا بعمل وكفاح ، ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه ، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وتقرير ألوهية الله في الأرض ، وردع للمغتصبين سلطان الله ، وإقامة شريعة الله في الحياة، لا بد من جهد :

- **بالحسنى :** حين يكون الضالون أفرادًا ضالين ، يحتاجون إلى الإرشاد والإنارة

- **وبالقوة :** حين تكون القوة الباغية في طريق الناس هي التي تصدهم عن الهدى، وتعطل دين الله أن يوجد ، وتعوق شريعة الله أن تقوم "[٣] .

ومما سبق عرضه من النصوص نجد أن سيدًا - رحمه الله- يؤكد على ضرورة التغيير بالقوة بشرط :

١ – أن يكون هذا التغير بعد مرحلة تعريف الناس بالإسلام الحق ودعوتهم إليه

(١)في ظلال القرآن ٣/ ١٤٣٤ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ٣/ ١٤٣٥ .
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٩٩٢-٩٩٣.

وتربيتهم عليه .

٢- وجود القاعدة الإسلامية الصلبة في شكل تجمع عضوي وحركي مؤثر في المجتمع .

٣- وجود القدرة على تغيير الأنظمة .

أما قبل وجود هذه الأمور فإن سيد قطب - رحمه الله- يرى استبعاد استخدام القوة لتغيير الأنظمة لان النتائج لن تكون نافعة بل ضارة حيث يقول : " فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام ، فهم - اللحظة وموقتًا - غير مكلفين بتحقيقها - ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها - ولهم في الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام عندما يكونون في الحال التي يستطيعون معها تنفيذها " (١) .

ويوضح سيد قطب - رحمه الله- طبيعة تنظيم "٦٥" ووسائل التغيير التي وضعها فيقول: " وكنا قد اتفقنا على استبعاد استخدام القوة كوسيلة لتغيير نظام الحكم أو إقامة النظام الإسلامي، وفي الوقت نفسه قررنا استخدامها في حالة الاعتداء على هذا التنظيم الذي يسير على منهج تعليم العقيدة وتربية الخلق وإنشاء قاعدة للإسلام في المجتمع " (٢) .

ويقول: " ولابد إذن أن تبدأ الحركات الإسلامية من القاعدة : وهي إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، وتربية من يقبل الدعوة وهذه المفهومات الصحيحة تربية إسلامية صحيحة ، وعدم إضاعة الوقت في الأحداث السياسية الجارية ، وعدم محاولات فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم قبل أن تكون هناك القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي لأنها عرفته على حقيقته وتريد أن تحكم به.. وفي الوقت نفسه ومع المضي في برنامج تربوي كهذا ،لابد من حماية الحركة من الاعتداء عليها أو تدميرها من خلال وجود مجموعات فدائية مدربة بعد تمام تربيتها للتدخل في حالة الاعتداء على الجماعة " (٣).

(١) المصدر السابق ٣/ ١٥٨٢ بتصرف يسير .
(٢) لماذا أعدموني ص ٤٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٨-٢٩ بتصرف .

ويفهم من كلام سيد - رحمه الله- السابق أن استخدام القوة يكون في حالتين:

الأولى: في حالة الاعتداء على التنظيم من قبل الأنظمة الجاهلية.

الثانية: في حالة تكوين القاعدة الإسلامية في المجتمع ووجود القدرة على تغيير الأنظمة الجاهلية .

أما قبل ذلك فلا يجوز استخدام القوة ، بل يجب الانصراف إلى الدعوة والبيان وتعريف الناس بالعقيدة وتربيتهم على الإسلام مهما اقتضى ذلك من الزمن الطويل والمراحل البطيئة [١].

وسائل التغيير الخاطئة في نظر سيد قطب :

تبين لنا فيما سبق أن إستراتيجية تغيير الأنظمة الجاهلية في فكر سيد قطب تقوم على التدرج في ثلاث مراحل:

الأولى: الدعوة والبيان والبلاغ وتعريف الناس بالإسلام الحق والمفاهيم العقدية الصحيحة وتربيتهم عليها.

الثانية: إنشاء تنظيم حركي من العناصر التي تم تربيتها على العقيدة والخلق، لتكون هي القاعدة الصلبة في المجتمع والتي ستنقل المجتمع إلى الإسلام الصحيح.

الثالثة: تغيير الأنظمة عند وجود القدرة وتوفر الوسائل التي تضمن النجاح.

وقد نبه سيد - رحمه الله- إلى بعض الطرق والوسائل التي يراها خاطئة في عملية التغيير ومنها:

١ - الانشغال بالمشاركة السياسية عن التربية :

وذلك نابع من نظرة سيد – رحمه الله– إلى الأنظمة القائمة اليوم سواء كانت رأسمالية أو اشتراكية أو ديمقراطية بأنها أنظمة علمانية جاهلية [٢].

*وبالتالي فالمشاركة فيها والانشغال بالعمل السياسي دون الاهتمام بالتربية فيه

---

(١) لماذا أعدموني ص ٢٩ .

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٢٥٦ بتصرف يسير .

إضاعة للوقت، وفيه تلبيس على الناس بشرعية هذه الأنظمة المضادة للإسلام، يقول سيد : " أن محاولة وضع أقنعة على الإسلام أخرى كالاشتراكية والديمقراطية، وغيرها هي محاولة ذليلة ، فالاشتراكية مذهب اجتماعي اقتصادي من صنع البشر، والديمقراطية نظام للحياة أو للحكم من صنع البشر كذلك يحمل صنع البشر من القابلية للصواب والخطأ ، بينما الإسلام منهج حياة مبرأ من النقص والعيب .. فالإسلام هو الإسلام ، والاشتراكية هي الاشتراكية ، والديمقراطية هي الديمقراطية .. ذلك منهج الله.. وهذه مناهج البشر ، ولا ينبغي لصاحب الدعوة إلى دين الله ، أن يستجيب لإغراء الزي الرائج .. فيقدم الإسلام للناس في أزياء اليوم التي يحبها البشر بل لا بد أن يستعلي بدينه فلا يستجيب لاقتراحات المقترحين، ولا يحاول تزيين هذا الدين بغير اسمه وعنوانه ، ولا مخاطبة الناس بغير منهجه ووسيلته " [١].

*" فالديمقراطية ليست إلا لافتة خادعة أوقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال وتملك معه الأغلبية البرلمانية والدساتير الوضعية والحريات الصحيفة...وغيرها مما ظنها الناس كفيلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم ، فكانت العاقبة ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الأمور إلى مجرد لافتات وخيالات" [٢].

*ويقرر سيد – كما سبق معنا– وجوب مفاصلة الأنظمة الجاهلية ، وعدم لبس الإسلام باللافتات الخادعة للجماهير ، فعلى العصبة المسلمة أن تتميز بعقيدتها ، وتفاصل مفاصلة كاملة واضحة لا غموض فيها، كما كان رسول الله ﷺ يعرضها مفاصلًا ومتميزًا ، لا كما يفعل اليوم البعض ممن يقدم الإسلام للناس مرة تحت عنوان " ديمقراطية الإسلام " ومرة تحت عنوان " اشتراكية الإسلام " ... إلى أخر هذا التدسس الناعم .. والأمر مختلف جدًا " [٣].

* فالإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية، ولا يقبل التلبس والامتزاج

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٠٨٣-١٠٨٤ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٢-١٩٤٣ بتصرف .
(٣) معالم في الطريق ص ١٦٩ بتصرف .

بها ،وإنه إما حكم الله وإما حكم الجاهلية : أمران لا ثالث لهما "[١] .

* ويؤكد سيد – رحمه الله– أن عدم مفاصلة أهل الباطل تسبب التباس الأمر على الناس وتحرم الدعوة من النصر في النهاية[٢].

* وكان من مآخذ سيد – رحمه الله– على الجماعات الإسلامية انشغالها في أحيان كثيرة بالاستغراق في الحركات السياسية ، وشغل نفسها بمطالبة الحكومات بتطبيق النظام الإسلامي ، بينما المجتمعات ذاتها بجملتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة والغيرة عليها والأخلاق الإسلامية ، ومن هنا يؤكد على أهمية التربية والتنظيم ، وعدم إضاعة الوقت في الإحداث السياسية[٣].

* ويرى أن قيام حكم إسلامي في أي بلد لن يجيء عن طريق الانتخابات ، وأنه لن يكون إلا بمنهج بطيء طويل المدى يستهدف القاعدة لا القمة ، ويبدأ من غرس العقيدة من جديد ، والتربية الإسلامية والأخلاقية ، وأن هذا الطريق الذي يبدو بطيئًا وطويلًا جدًا أقرب الطرق وأسرعها[٤].

* وكان من توجيهاته العامة للإخوان ولكل الحركات الإسلامية بعد خروجه من السجن أن لا تستغرقهم الأحداث الجارية ، وألا ينغمسوا فيها وفي المناورات الحزبية والسياسية ، فإن لهم حقلًا أخر أوسع وأبعد مدى وإن كان بطيئًا وطويل الأمد ، وهو حقل البعث الإسلامي للعقيدة والقيم والأخلاق والتقاليد الإسلامية في صلب المجتمع حتى بإذن الله بقيام النظام الإسلامي[٥] .

٢- الانقلابات على الأنظمة :

تحدث سيد – رحمه الله– عن وسائل تغيير الأنظمة الجاهلية بالخطوات الإستراتيجية كما سبق ، واستبعد التغيير عن طريق الانقلابات لما فيه من مفاسد،

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٤-١٦٥ بتصرف .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٢٥ بتصرف .
(٣) لماذا أعدموني ص ٢٨-٢٩ ، ٣١ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٧ ، وكلام سيد – رحمه الله تعالى – حول اهتمامات إخوان السودان بالانتخابات في وقته ، ولكن كانت نتيجتها كما توقع سيد مخيبة لآمالهم .
(٥) لماذا أعدموني ص ٧٠ .

حيث يرى أن التنظيم الذي يمثل القاعدة الصلبة لإقامة النظام الإسلامي مهمته تربية المجتمع ونقل قطاعات كبيرة من الأمة إلى الإسلام بالوسائل المشروعة ، وأن المجموعات الفدائية في هذا التنظيم ليس لها أن تبدأ الاعتداء ، ولا أن تحاول قلب نظام الحكم ، طالما والدعوة ممكنة بغير مصادرة أو تدمير ...

ويقرر أن الوصول إلى تطبيق النظام الإسلامي " الحكم بشريعة الإسلام ليس هدفًا عاجلًا لأنه لا يمكن تحقيقه إلا بعد نقل المجتمعات ذاتها أو غالبيتها إلى ممارسة الحياة الإسلامية الحقة " [١] .

وبالتالي لا يكون الوصول إلى إقامة النظام الإسلامي وتحكيم الشريعة الإسلامية عن طريق انقلاب في الحكم يجيء من أعلى ، ولكن عن طريق تغيير في تصورات المجتمع كله – أو مجموعات كافية لتوجيه المجتمع كله – وفي قيمه وأخلاقه والتزامه بالإسلام ، يجعل نظامه وشريعته فريضة لابد منها في حسهم [٢] .

٣- رفع رايات القومية والإصلاح الاجتماعي والأخلاقي والاقتصادي وغيرها:

حذر سيد – رحمه الله– الدعاة من بعض الطرق الخاطئة التي تخالف منهج التغيير الإسلامي وتعتبر مزالق للحركة الإسلامية أو استدراج لها ، ومن ذلك رفع راية للإصلاح والتغيير غير راية العقيدة ، حيث يقرر أن الأصل في الدعوة الإسلامية التغييرية هو البدء بالعقيدة كما بداء بها النبي ﷺ .

* فقد كان من الممكن لرسول الله ﷺ أن يقوم بحركة قومية عربية ، تستهدف تجميع العرب وتحريرهم من الاستعمار الفارسي والروماني ، فإذا نجح طبق عليهم الإسلام بحكم ما له من سلطان ، ومع ذلك بدأ بالعقيدة ،

* وكذلك كان بإمكان النبي ﷺ أن يقود حركة إصلاح اجتماعي وينادي بحقوق الفقراء والمستضعفين ويقودهم لتحطيم الطواغيت ، ثم يحكم الإسلام وينشر العقيدة ، ولكن الله لم يوجهه لهذا لأنه ليس هو الطريق .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨-٢٩ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ص ٤٣ .

* وكذلك كان بإمكانه ﷺ القيام بحركة أخلاقية لمحاربة الفساد المستشري في المجتمع ، فإذا استجاب له الناس حكمهم بالإسلام ، ولكنه لم ينطلق من هذا المنطلق ولا مما سبقه ، وإنما وجهه الله أن يبدأ بالعقيدة وتربية الناس عليها وتجميعهم على أساسها ، فإذا تقررت العقيدة في النفوس وعرف الناس ربهم وعبدوه وحده، وتحرروا من سلطان العبيد والشهوات سواء ، تطهرت الأرض من الطواغيت كلها وتطهر المجتمع من المفاسد وقام " نظام الإسلام " في صورة دولة وشرائع وأحكام على الأرض [1] .

(١) معالم في الطريق ص ٢٤ وما بعدها بتصرف ، وينظر أيضًا : في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٥ وما بعدها .

obeikandl.com

المطلب الثامن

أسباب معارضة الحكم الإسلامي والعدول عنه

تعرض سيد قطب - رحمه الله - لأسباب معارضة حكم الله والعدول عنه، والعداوات التي تواجهه ، وكذا مفاسد العدول عن الحكم الإسلامي إلى غيره وفيما يلي عرض لهذه القضايا بإيجاز:

أولًا : معارضة نظام الحكم الإسلامي وأسبابها:

يقول- سيد -: " ولقد علم الله - سبحانه - أن الحكم بما أنزل الله ستواجهه - في كل زمان وفي كل أمة - معارضة من بعض الناس، ولن تتقبله نفوس هذا البعض بالرضى والقبول والاستسلام..

* ستواجهه معارضة الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث ، ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه، ويرد الألوهية لله خالصة ، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله..

* وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على الاستغلال والظلم والسحت، ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة..

* وستواجهه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال، ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها وسيأخذهم بالعقوبة عليها..

* وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتلك، ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض. علم الله - سبحانه - أن الحكم بما أنزل ستواجهه هذه المقاومة من شتى الجبهات، وأنه لا بد للمستحفظين عليه والشهداء أن يواجهوا هذه المقاومة، وأن يصمدوا لها ، وأن يحتملوا تكاليفها في النفس والمال فيقول لهم : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ كما علم الله - سبحانه - أن بعض المستحفظين على كتاب الله المستشهدين، قد تراودهم أطماع الحياة الدنيا،

وهم يجدون أصحاب السلطان وأصحاب المال، وأصحاب الشهوات، لا يريدون حكم الله فيتملقون شهوات هؤلاء جميعًا، طمعًا في عرض الحياة الدنيا - كما يقع من رجال الدين المحترفين في كل زمان وفي كل قبيل، فناداهم: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1]، " لقد قال الرجل العربي - بفطرته وسليقته - حين سمع رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله: " هذا أمر تكرهه الملوك!

" فما يمكن أن تجتمع شهادة " أن لا إله إلا الله " مع الحكم بغير شرع الله، ولهذا يخاف منها الطواغيت "[2].

ثانيًا: أسباب العدول عن تحكيم شرع الله والحكم بما أنزل الله أو شيء منه:

يقول سيد: " وقد علم الله أن معاذير كثيرة يمكن أن تقوم وأن يبرر بها العدول عن شيء مما أنزل الله وإتباع أهواء المحكومين المتحكمين.. وأن هواجس قد تتسرب في ضرورة الحكم بما أنزل الله كله بلا عدول عن شيء فيه، في بعض الملابسات والظروف. فحذر الله نبيه ﷺ من إتباع أهواء المتحكمين، ومن فتنتهم له عن بعض ما أنزل الله إليه..

وأولى هذه الهواجس: الرغبة البشرية الخفية في تأليف القلوب بين الطوائف المتعددة، والاتجاهات والعقائد المتجمعة في بلد واحد، ومسايرة بعض رغباتهم عند ما تصطدم ببعض أحكام الشريعة، والميل إلى التساهل في الأمور الطفيفة، أو التي يبدو أنها ليست من أساسيات الشريعة!

وقد روي أن اليهود عرضوا على رسول الله ﷺ أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام معينة.. ولكن الأمر - كما هو ظاهر - أعم من ذلك..

وقد شاء الله - سبحانه - أن يحسم هذا الأمر، و يقطع الطريق على الرغبة البشرية الخفية في التساهل مراعاة للاعتبارات والظروف، وتأليفًا للقلوب حين

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩٧ بتصرف يسير، وينظر ٣/ ١٣٠٦، ١٣٠٧، ١٣٣٠.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٤٨ بتصرف، وينظر معالم في الطريق ص ٢٦-٢٧.

تختلف الرغبات والأهواء . فقال لنبيه : إن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولكنه جعل لكل منهم طريقًا ومنهاجًا، وجعلهم مبتلين مختبرين فيما آتاهم من الدين والشريعة... وإذن فلا يجوز أن يفكر في التساهل في شيء من الشريعة لتجميع المختلفين في المشارب والمناهج.. فهم لا يتجمعون.. بذلك أغلق الله - سبحانه - مداخل الشيطان كلها، وبخاصة ما يبدو منها خيرًا وتأليفًا للقلوب وتجميعًا للصفوف، بالتساهل في شيء من شريعة الله، في مقابل إرضاء الجميع! أو في مقابل ما يسمونه وحده الصفوف!.

إن شريعة الله أبقى وأغلى من أن يضحى بجزء منها في مقابل شيء قدر الله ألا يكون! فالناس قد خلقوا ولكل منهم استعداد، ومشرب، ومنهج، و طريق" [1].

*وفي ظلال قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [2].يقول سيد: " وأجل ! فمن أحسن من الله حكمًا ؟ ، ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ، ويحكم فيهم ، خيرًا مما يشرع الله لهم ؟ ، وأية حجة يملك أن يسوقها ؟ ، أيستطيع أن يقول : إنه أعلم بالناس من خالق الناس ؟ أيستطيع أن يقول: أو إنه أرحم بهم من ربهم ؟ أو أنه أعرف بمصالحهم من إلههم ؟ أم أن الله كان يجهل ما سيطرأ ويستجد من أحوال البشر ، ما الذي يستطيع أن يقوله من ينحي شريعة الله عن حكم الحياة ، ويستبدل بها شريعة الجاهلية ، وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين؟! ، الظروف ؟ الملابسات ؟ عدم رغبة الناس؟ الخوف من الأعداء؟.. ألم يكن هذا كله في علم الله، وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته، وأن يسيروا على منهجه، وألا يفتنوا عن بعض ما أنزله ؟.

قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة ، والأوضاع المتجددة ، والأحوال المتغلبة؟ ألم يكن ذلك في علم الله، وهو يشدد هذا التشديد ، ويحذر هذا التحذير؟ ، يستطيع غير المسلم أن يقول ما يشاء.. ولكن المسلم.. أو من يدعون الإسلام..ما الذي يقولونه من هذا كله ، ثم يبقون على شيء من الإسلام ؟ أو يبقى لهم شيء من الإسلام ؟ إنه مفرق الطريق... إما إسلام وإما جاهلية. إما إيمان وإما

(١) المصدر السابق ٢/ ٩٠٢- ٩٠٤ بتصرف .
(٢) سورة المائدة : الآية ٥٠ .

كفر. إما حكم الله وإما حكم الجاهلية " [١].

" وإردة الشيطان إضلال البشر هي العلة الكامنة وراء التحاكم إلى الطاغوت " [٢].

" كما أن مكائد وحرب أهل الكتاب لهذا الدين وإقامتهم ألُواهيات لغير الله في البلاد الإسلامية سبب من أسباب العدول عن تحكيم شريعة الله " [٣].

ثالثًا:عداوات الحكم الإسلامي:

عقد سيد قطب فصلًا كاملًا في كتابه " معركة الإسلام والرأسمالية " باسم " عداوات حول الإسلام " وضح فيه أن للإسلام أعداء كثيرون في الخارج والداخل، تلتقي مصالحهم في إقصاء الإسلام عن الحكم في الحياة، وأهم هؤلاء :

١- الصليبيون : فهم يتنادون لحماية الحضارة الصليبية المادية ، والدين والتوحيد الذي يواجههم هو الإسلام الحق ، الذي يقوم على الشريعة والعقيدة ، وبالتالي يحاربون رجعة الحكم إلى الإسلام بنفوذهم وقوتهم ، وبالمغفلين أصحاب المصالح من المسلمين .

٢- المستعمرون: لأنهم يرون في الإسلام عقيدة تكافح الاستعمار، والحكم الإسلامي هو الذي يوقظ هذه الروح بشدة لذا لابد من أن يبقى حكم الإسلام بعيدًا.

٣- المستغلون والطغاة : لأنهم يعرفون أن الجماهير تصعب قيادتها وتسخيرها ضد عقيدتها الدينية، فهم حريصون على جعل الإسلام شعارًا لا حقيقة في الواقع ، فلا ضير عندهم من الإسلام حين يكون طقطقة بالمسابح ، وأدعية وموالد ، وطرق ونحو ذلك من أجهزة التخدير للجماهير ، أما أن يكون حكما جادًا ينفذ شريعة الله في الحكم والمال والحقوق فهذا ما يتقيه الطغاة ..

٤- المحترفون من رجال الدين : الذين يسترزقون باسم الدين ، والذين يعرفون

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٩٠٥- بتصرف يسير ، وينظر أيضًا ٣/ ١١٩٤- ١١٩٥ .
(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٩٤ .
(٣) المصدر السابق ٣/ ١١٩٤ بتصرف .

أن حكم الإسلام الحق لو قام لما وجدوا لهم مكانًا، لأنه يطارد الدجالين والمتبطلين والدراويش الذين يعيشون على الاستغلال للجماهير باسم الدين.

٥- المستهترون والمنحلون : الذين غرقوا في أو حال الجنس والمخدرات والفاحشة لأنهم يعلمون أن حكم الإسلام سوف يكبح جماحهم ويمنعهم من تحللهم واستهتارهم .

٦- الشيوعيون والملاحدة : وعداؤهم للإسلام وحكمه شديد لأنه الوحيد الذي يقف في وجوه إلحادهم وفسادهم "[١].

رابعًا: مفاسد الإعراض عن حكم الله في حياة البشرية:

* بيَّن سيد قطب – رحمه الله – حتمية التلازم بين " دين الله " و " الحكم بما أنزل الله " وأن ذلك ناشئ من أن الحكم بما أنزل الله إقرار بألوهية الله وتحقيق مدلول الإسلام الحق ، وناشئ أيضًا من أن ما أنزل الله خير مما يصنع البشر لأنفسهم من مناهج وشرائع وأنظمة وأوضاع[٢].

* "وبين كذلك توافق الديانات التي جاءت من عند الله كلها على تحتيم الحكم بما أنزل الله ، وإقامة الحياة كلها على شريعة الله ، وجعل هذا الأمر مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية[٣] .

* " وبين الأفضلية المطلقة لشريعة الله ومنهجه- سبحانه القائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني ، والحاجات الإنسانية ، وبحقيقة الكون وطبيعة نواميس الحياة التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية . . حتى لا يقع تصادم بينهما ، ومن ثم قيامه على العدل المطلق والبراءة من الهوى والميل والجهل والقصور وقيامه على تحرير البشرية من العبودية لغير الله "[٤].

---

(١) انظر: معركة الإسلام والرأسمالية ص ٩٣-١١٢ بتصرف ، وفي ظلال القرآن ٤/ ٢٠١٢ .
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٢٨
(٣) المصدر السابق ٢/ ٨٨٨ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ٨٩٠.

بين- رحمه الله -مفاسد وأضرار وآثار العدول عن حكم الله في حياة البشرية ومنها :-

١ـ فساد الحياة البشرية وعدم استقامتها:

يقول: " فالحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد، يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك. ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا، فأما حين تتوزع السلطة، وتتعدد مصادر التلقي.. حين تكون السلطة لله في الضمائر والشعائر بينما السلطة لغيره في الأنظمة والشرائع.. وحين تكون السلطة لله في جزاء الآخرة بينما السلطة لغيره في عقوبات الدنيا.. حينئذ تتمزق النفس البشرية بين سلطتين مختلفتين، وبين اتجاهين مختلفين، وبين منهجين مختلفين.. وحينئذ تفسد الحياة البشرية ذلك الفساد الذي تشير إليه آيات القرآن في مناسبات شتى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1]، ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[2].

حكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج في النهاية عن نطاق الإيمان بنص القرآن "[3].

٢ـ القضاء على " إنسانية " الإنسان ومقومات الحياة الكريمة :

يقول سيد :" إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة - مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق! - إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته فهذه " الإنسانية " لا توجد، والإنسان عبد للإنسان - وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟! و تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان أخر به ، ورضاه أو غضبه عليه؟! . . وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ٧١.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٩١ .

علمًا أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعاني الرفيعة . . إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس - في حكم الطواغيت - أموالهم التي لا يحميها شرع... ويكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما شاء من التصورات والأفكار والأخلاق والعادات... ثم يكلفهم أعراضهم في النهاية. . حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التي يريدها بها الطواغيت، سواء في صورة الغصب المباشر - أو في صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبًا مباحًا للشهوات تحت أي شعار!... فالذي يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته في حكم الطواغيت من دون الله . إنما يعيش في وهم ، أو يفقد الإحساس بالواقع!" . [١]

٣ـ التخلف والفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي :

ربط سيد قطب - رحمه الله- بين الانحراف عن الحاكمية وبين ضعف المسلمين وتخلفهم في الجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي باعتبار أن الحاكمية - على شمول مفهومها - تنطلق أول ما تنطلق إلى الجانب السياسي والذي يقوم عليه بعد ذلك النظام الاقتصادي و الاجتماعي ، فالنظام في المجتمع الإسلامي نظام رباني قائم على العقيدة الإسلامية والشريعة المنبثقة منها ، وبالتالي فأثر العقيدة الإسلامية واضح في كل جزيئات النظام بما فيها السياسية الداخلية والخارجية ، والاجتماع والاقتصاد وغيرها من النظم التي تحكم الحياة .

ويقرر- رحمه الله " أنه لابد للإسلام أن يحكم ، لأن غياب الحكم الإسلامي سبَّب فسادًا عريضًا في حياة المسلمين ، وأدى إلى الانحطاط والتخلف والتيه في الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي على حدٍ سواء [٢].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ١٣١٩-١٣٢١ بتصرف .

(٢) ينظر : معركة الإسلام والرأسمالية ص ٦٥-٨٥ ، والسلام العالمي في الإسلام ص ١٠٢ ، والإسلام ومشكلات الحضارة فصل تخبط واضطراب، وعقوبة الفطرة ص ٣٥، ١٢٣ ، والمستقبل لهذا الدين فصل الفصام النكد ص٢٤، ٥٨ ، وخصائص التصور الإسلامي فصل تيه وركام ص ٢٣ ، والصلة بين الحاكمية والعقيدة عند سيد قطب للوهيبي ص ١٤٩ وما بعدها .